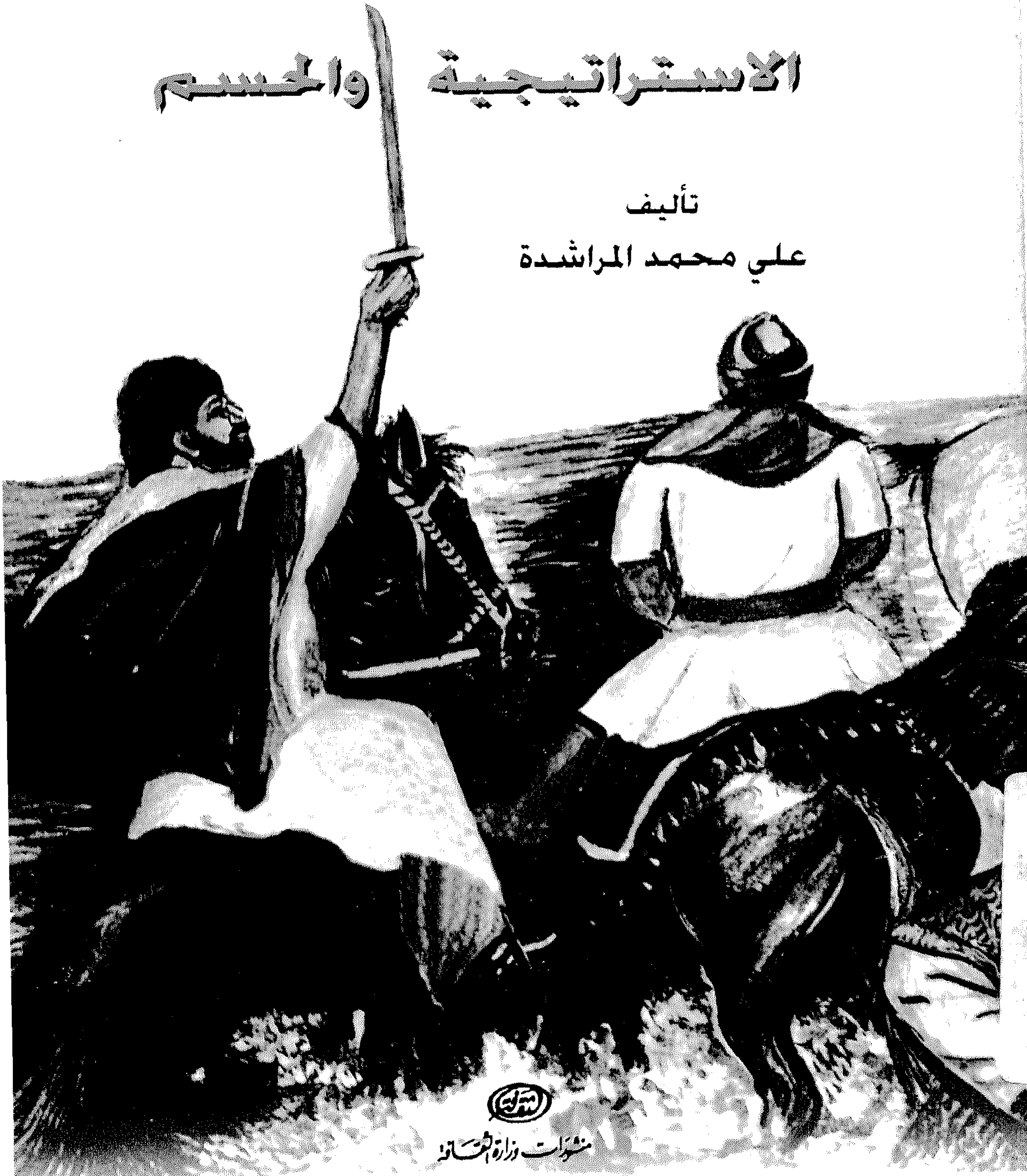
اليرموك

الاستراتيجية والحسم



تأليف

علي محمد المراشدة

منشورات وزارة الثقافة

اليرموك

الاستراتيجية والحسم

* اليرموك الاستراتيجية والحسم
* تأليف : علي محمد المراشدة
* الطبعة الأولى
* سنة الطبع ١٩٩٧
* حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر: وزارة الثقافة
عمان / الاردن
شارع وصفي التل
ص.ب ٦١٤٠
هاتف: ٦٩٦٢١٨ ، ٦٩٦٥٨٨ ، ٦٩٧٦٨٧، ٦٩٧٣٥٩
فاكس: ٦٩٦٥٩٨

اهداءات ١٩٩٨

المعهد الدبلوماسي الأردني
الأردن

منشورات وزارة الثقافة

اليرموك

الاستراتيجية والحسم

علي محمد المراشدة

المملكة الاردنية الهاشمية - عمان ١٩٩٧

رقـــم التصنيــــــف : ٢١٦,٩٥٢

المؤلف أومن هو في حكمه : علي محمد المزاشدة

عنـــوان المصنـــــف : اليرموك الاستراتيجية والحسم

رؤوس الموضـــوعـــات : ١ – الإسلام – نظم عسكرية

٢ – الاستراتيجية

رقـــم الايــداع : (١٩٩٦/٤/٢٢٩)

الملاحظـــــــات : عمان : وزارة الثقافة

* تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقـم الايـداع لدى المكتبة الوطنيـــة

(١٩٩٦/٤/٢٢٩)

❁ الصف الضوئي والإخـــراج : إيمـــان عبدا لله المصري

❁ عدد النسخ (٢٠٠٠) نسخة ❁ الطباعة : مطابع الدستور

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعتبر التاريخ عاملاً هاماً في حياة الشعوب والأمم ؛فهو علم إنساني يمكن من خلاله رصد اتجاهات التطور في المجتمعات الإنسانية وبيان أسباب رقيها وانحطاطها ، ولذلك فهو من هذا المنظور يمثل دفتر الأيام ومذكرة الزمن التي تجمع بين صفحاتها كل الأمور التي تتعلق بالسيرة الإنسانية .

ولأن التاريخ علم ، فإن أحداثه لا تقرأ فحسب وإنما تدرس وتحلل حتى يعي الإنسان هذه الأحداث ويوظّفها في خدمة حاضره الذي يصلح لبناء مستقبل مشرق من خلال استخلاصه العبر واستنباط الأحكام . ومن هذا المنطلق تأخذ قراءة التاريخ دورها كأحد مصادر التعليم والتطوير وبناء المجتمعات الإنسانية .

والتاريخ الإسلامي لا يختلف من حيث أهميته ودوره عن تاريخ المجتمعات الإنسانية الأخرى ، إلا أنه يتميّز عنها بخصوصيته الاستثنائية التي جسّدتها حقيقة الدعوة الإسلامية ، التي تعتبر المنطلق الأساسي لجميع أحداثه وتطوراته . فهذا

التاريخ حضارة إنسانية ، أنارت حياة الأمم الأخرى ، وأمدتها بكل ما هو خيّر ونافع، وسخّرت كلّ طاقتها نحو خدمة هذه الأمم وما يسهم في تطورها وتقدمها .

والتاريخ هو ذاكرة الشعوب ، فما بالك بأمة مثل أمتنا الإسلامية تمتلك من التاريخ ما هو مدعاة للفخر والاعتزاز . إن هذا التاريخ المشرق الذي أشرقت شمسه على بقاع واسعة من هذا الكون ، سيظل مهما اعتور مسيرتها من نكسات أو نكبات، فكّل أمّة من الأمم تمرّ بحالات متباينه من القوّة والمجد إلى الضعف والانحطاط إلا أنّ الأمم الحيّة لا تلبث بعد كلّ فترة أن تعود وتصعد إلى قمة المجد لتتربع على عرشه وتستأنف مسيرتها وتصنع تاريخها .

يقول بعض كُتّاب الغرب المتعصبين : " إن نهضة الأمة العربية الإسلامية وفتوحاتها التي تمت في القرن السابع للميلاد وما بعده ، لم تكن إلا طفرة نادرة ، لم يكن لها مقومات منطقية للتغلّب على أكبر دولتين في ذلك الزمن وصناعة الحضارة وإنشاء الدولة الإسلامية " . كلّ ذلك في محاولة سافرة لتخريب فكر الإنسان المسلم وتثبيت الأفكار الهدامة في مخيلته ، وزعزعة ثقته بنفسه وأمّته لاغتيال تاريخه الإسلامي وفكره الإنساني بصورة متعمّدة وعن سابق قصد وتدبير .

لقد استعمل في الهجوم على التارخ الإسلامي ، وقادته الأفذاذ كلّ الأساليب الممكنة، وحتى تلك القذرة منها ، وشارك في هذا الهجوم أعداء الإسلام وبعض منتسبيه في آنٍ واحد ، في محاولة لعزل هذا التاريخ وتشويه أحداثه وتدمير معالمه. ويمثل الهجوم على التاريخ الإسلامي جانباً من جوانب الحرب التي يتعرض لها الإسلام ، كدين وحضارة ، والتي استعمل فيها ومازال كل الوسائل المادية والمعنوية على الصعيد الفكري والثقافي. وفي مواجهة هذه الهجمة فإن أبناء الشعوب الإسلامية مطالبون بالدفاع عن حضارتهم وعقيدتهم من خلال البحث في تاريخهم وإبراز جوانبه المشرقة ودحض مزاعم المغرضين ،وبناء عليه فإن البحث في التاريخ الإسلامي ، والكتابة عن الحضارة الإسلامية أكبر من أن يتحملها

شخص أو حتى جيل من الأجيال ، بل هي مسؤولية جماعية متواصلة ، والحق لا يعدم النصير، وهو الذي يعلو دائما مهما حاول الباطل إزهاقه.

ولمّا كان الأمر كذلك ، فإنني شرعت في وضع هذا الكتاب في حين كنت أحدّث نفسي كثيراً في الماضي عن مشروع أستطيع أن أقدّم من خلاله خدمة لهذا الدين وتاريخه المشرق الذي أرى فيه جزءاً من الواجب الذي يتحتم عليَّ القيام به ، وجاءت الفرصة المناسبة لأكتب عن معركة اليرموك وأتناول هذا الموضوع بمفهوم عصري متطور ، واضعاً فيه تصوّراتٍ ومفاهيمَ معاصرةً لأحداث سابقة ، مبينا بعض الحقائق التي أعتقد بأنها ما زالت حتّى الآن بحاجة إلى البحث والتطوير وإلقاء المزيد من الضوء على جوانبها المختلفة . يقع هذا الكتاب في أربعة فصول، عدا عن المقدمة واللمحة التاريخية والخاتمة ، اجتهدت في ترتيبها لتبدو متسلسلة بصورة منطقية إلى حد ما .

وقد ابتدأ الكتاب بلمحة تاريخية موجزة عن تاريخ دولة الفرس والروم والأوضاع السياسية والاجتماعية والعسكرية التي كانت تعيشها ، كما بينا جزءاً يسيراً من تاريخ العرب قبل الإسلام ، ألقينا الضوء من خلاله على أوضاعهم السياسية والاجتماعية .

أما الفصل الأول فقد استعرضنا فيه استراتيجية الدولة الإسلامية ، وذلك من خلال قيامنا بوضع مدخل عام إلى الاستراتيجية ، ثم تعريف بأهم منطلقات الاستراتيجية الإسلامية وطبيعتها ، وتاريخ الحروب وتنظيم الجيوش عند العرب والمسلمين .

وقد بحثنا في الفصل الثاني حياة خالد بن الوليد وأهم المعارك التي خاضها قبل الإسلام وبعده ، وفتح العراق والدروس والنتائج التي تمخضت عنها باعتبارها الطريق التي سار عليها خالد حتى وصل إلى اليرموك . كما تطرّقنا في هذا الفصل إلى مباديء الحرب عند خالد بن الوليد ، وقمنا بمقارنتها بمباديء الحروب عند

مشاهير القيادات العسكرية ، ثم بحثنا في استراتيجية خالد العسكرية التي تبنّاها خلال معاركه المختلفة ، كما أننّا لم نغفل بهذا الفصل عن شرح وبيان المواهب الإدارية التي كان يتمتّع بها خالد بالإضافة إلى مواهبه العسكرية .

أما الفصل الثالث فقد بحثنا فيه موقف القوّات الإسلامية والرومانية قبل المعركة، حيث قمنا بتحليل عملية عبور خالد من العراق إلى بلاد الشام ، والموقف العامّ لقوّات الطرفين ، والخطط التي حاولت القيادات المختلفة العمل عليها . كما بحثنا في معركة أجنادين ومن ثمّ انتقلنا لوصف مسرح عمليات اليرموك من ناحية جغرافية وعسكرية والمواقع التي احتلتها قوات الطرفين والأخطاء التي ارتكبتها في هذا الاختيار. وفي الفصل الرابع قمنا بتحليل سير الأحداث في المعركة، وحاولنا إبراز أهم الدروس العسكرية وذلك من خلال تقسيم المعركة إلى مرحلتين رئيسيتين: مرحلة دفاعية ، ومرحلة هجومية . وبعد هذا الوصف استخلصنا أهم النتائج السياسية والعسكرية والجغرافية والاقتصادية التي أسفرت عنها هذه المعركة الحاسمة .

أمّا الخاتمة التي جاءت تحت عنوان استراحة المحارب ، فقد حاولنا من خلالها مناقشة عملية عزل خالد بن الوليد ، وبيان النتائج التي ترتبت عليها وأثر عملية العزل على نفوس المسلمين والقيادات الإسلامية المختلفة . وأخيراً أرجو أن أكون قد وفّقت في عرض هذه المعركة وتفاصيلها وإبراز بعض الجوانب المفيدة التي قد ينتفع بها المهتمون بالتاريخ والباحثون عن الحقيقة وطلاب العلم ، والله من وراء القصد .

المؤلف

علي محمد المراشدة

تمهيد:

لمحة تاريخية

لمحة تاريخية موجزة :

يشير تاريخ نشوء الحضارات والباحثون المختصون في هذا المجال ، إلى أن حضارات الأمم جميعها تنمو وتترعرع كالطفل لتصل إلى أوج قوّتها في مرحلة الشباب، ثم تأخذ بالانحدار إلى أن تصل إلى مرحلة الشيخوخة فالانهيار ، وهناك شواهد كثيرة في التاريخ تؤكد هذه الظاهرة .

ودولة الفرس والروم لا تخرجان عن هذا السياق التاريخي الثابت في حركة حضارات الأمم ؛ ذلك لا غرو أن نشاهد اندثار هاتين الحضارتين كما اندثرت حضارات أمم أخرى . وتؤكد جميع الدلائل التاريخية أن دولة الفرس كانت إمبراطورية عظيمة . لا مثيل لها في ذلك الزمان ، فهي تاريخياً تعتبر أول إمبراطورية عظيمة عرفها التاريخ على مختلف الصعد الجغرافية والعسكرية والاقتصادية ، فقد امتدت حدودها من اليونان غرباً إلى البنجاب شرقاً ، وازدهرت حضارتها وتطورت إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه من القوّة والمنعة ، خلال فترة طويلة من الزمن ، وامتدت من القرن السادس قبل الميلاد حتى القرن السابع بعد الميلاد ، بحيث لم تعمر أي إمبراطورية في التاريخ مثلما عمّرت الإمبراطورية الفارسية ، كما لم تبلغ أي إمبراطورية ما بلغته هذه الإمبراطورية في الثقافة والحضارة والقوة العسكرية . ومع أن هذه الإمبراطورية عبر مسيرتها الطويلة قد

عرفت فترات من التقهقر والهزيمة إلا أنها كانت تنهض ثانية بعد كل هزيمة بكامل قوّتها . ولقد مر علــى هذه الإمبراطوريــة فترات ازدهــار كثيرة ومتعدّدة ، إلا أن أكثرها تميُّزاً كان في القرن السادس الميلادي ، عندما بلغت أوج عصرهـا الذهبـي في عهد الملك (أنوشروان) الذي ارتقى بحنكته وإبداعه بإمبراطوريته إلى مستويات متميّزة من العظمة والتقدم والازدهار . وقد دام حكم هذا الإمبراطور حوالي ثمانيــة وأربعين عامـا ، حيث عـاصر إمـبراطور الروم (جوستنيان)، واستطاع ببراعتـه العسكرية أن يوسـع مـن رقعـة إمبراطوريتـه الجغرافيـة ، فـانتزع بـلاد الشـام مــن الرومان ، واليمن من الحبشة ، وكثيراً من أراضي أواسط آسيا من الأتراك قبل أن يتوفى عام (٥٧٩) م .

جاء بعد الإمبراطور أنوشروان مجموعة من الملوك والأباطرة أقلّ حنكة وبأسـاً ودراية بشؤون الحكم ، فبدأت الإمبراطورية تواجه أيام انحطاطها ، وتَراجَعَ موقفها على الصعيد الدولي والمحلّي ، فتوالت عليها الهزائم ، وأُصيبت بضربات قوية فــي حروبها الخارجية ، حيث هزمتهـا الإمبراطوريـة الرومانيـة وانـتزعت منهـا مصـر وبلاد الشام . وقـد مُنيت بهزيمـة أخـرى فـي معركـة (ذي قـار) ونتيجـة لذلـك كلّـه ساءت أحوالها السياسية والاجتماعية ، وانغمسـت قيادتهـا السياسـية والعسـكرية فـي الترف والفساد ، وشاع الفقر بين أفراد الشعب.

لقد بلـغ انحطـاط هـذه الإمبراطوريـة ذروتـه فـي عهـد الملـك (سـيروس) حفيــد الإمبراطور العظيم أنوشروان الذي عُرف عنه أنه كان مولعـا فـي السـلطة والحكـم ولا يقبل أن ينازعه عليها أحد . ويقال إنه من أجل ذلك قام بقتل جميع الذكـور مـن عائلته ولم يبق منهم إلا واحد اسمه (أردشير) حتى قيل إنّ سيروس قد سـجن أبـاه ثم قتله .

وبعد وفاة سيروس عمّت الفوضــى بصـورة أوسـع جميـعَ أرجـاء الإمبراطوريـة الفارسية ، حيث خلفـه بعـض الأبـاطرة الضعفـاء الذيـن كـان آخرهـم مـن سـلالة

(ساسان) وهو (يزدجرد بن شهريار بن بارويز) الذي كان عليه أن يشهد انهيار إمبراطورية آل كسرويه العظيمة وأُفول نجمها .

كان العراق في ذلك الوقت جزءاً من الإمبراطورية الفارسية ، على الرغم من أن سكّانه كانوا عربا ، وكان خاضعاً للحكم الإداري الفارسي على الرغم من أن جزءه الغربي والجنوبي كان أرضاً عربية ، إلا أن سكّانه العرب لم يكونوا مالكين لأراضي تلك المناطق .

ويقال إن أول هجرة عربية قدمت إلى العراق كانت مع أوائل ظهور الديانة المسيحية ، حيث قدمت بعض القبائل العربية من اليمن وأخذت تتمتّع ببعض النفوذ والسلطان بصورة تدريجية . وكان من بين هذه القبائل قبيلة لخم العربية التي سكنت في المنطقة الغربية من العراق ، وقد أطلق على هذه القبيلة في ما بعد اسم المناذرة حيث حكم ملوك هذه القبيلة أجيالاً تحت الحكم الإمبراطوري الفارسي . وكان النعمان بن منذر آخر ملوك هذه القبيلة حيث قاد هذا الملك عملية تمرُّد ضد سلطة الإمبراطور الفارسي ، فقبض عليه كسرى وحكمه بالإعدام . وبذلك انتهى حكم هذة العائلة في العراق ، وتسلّم السلطة من بعدهم (قبيص بن إياس الطائي) الذي لم يكن سوى ملك بالاسم فقط ، حيث ظلّ تابعا لحكم الفرس الإداري طيلة سنوات حكمه (١) .

كان العراق في ذلك الوقت يعتبر بلد الثقافة والثروة والخصب ، وكان يمثّل أفضل وأثمن ممتلكات الإمبراطورية الفارسية ، حتى أطلق عليه العرب لغزارة ثروته أرض الحليب والعسل ، نتيجة لوجود نهري دجلة والفرات اللذين كانا يعتبران في ذلك الحين أكثر الأنهر المعروفة عندهم .

هكذا كان الوضع السياسي والجغرافي للعراق عندما أرسل الخليفة أبو بكر خالداً إليها ، فقد كانت أرضاً محتلّة من قبل الفرس ، يديرونها إدارياً وسياسيا وفق مقتضيات حاجاتهم .

أمّا على الصعيد العسكري ، فعلى الرغم من أن الإمبراطورية الفارسية قد دخلت في مرحلة انحطاطها السياسي ، إلا أنه من الخطأ التصور أنها تقهقرت عسكرياً ، فحالة الجيش لم تكن كحالة النظام السياسي فيها . فقد كان هذا الجيش بجميع فئاته وفروعه يمثل أقوى آلة عسكرية مرهوبة الجانب في ذلك الزمن ، وكان يقف على رأسه نخبة من القيادات العسكرية المحنكة والمجرّبة ذات الخبرات الطويلة في ميادين الحروب .

وقد عرف عن هذا الجيش أنه كان يفخر بما حقّقه من إنجازات عظيمة للدولة ، ويتباهى بقوته بين الجيوش الأخرى . وقد قيل إن الجندي الفارسي كان أفضل الجنود المحاربين في زمانه من حيث عدته وعتاده والخدمات الإدارية التي كانت مجندة لخدمته . فالجندي الفارسي كان يرتدي درعا من الزرد ، ويضع على رأسه خوذة من المعدن ، أمّا ساقاه فقد كانت تغطيهما درع لوقايتهما . وكان هذا الجندي يحمل كلّ أدوات القتال المعروفة في زمانه . ومن هذا كلّه يتّضح أن الجندي الفارسي كان فعلاً من أفضل جنود عصره تجهيزا وقتالاً في معارك الكُتَل الثابتة[٢].

أمّا في مجال الاستراتيجية العسكرية التي تبنّاها الفرس في مواجهاتهم مع القوات الإسلامية فقد كانت متأثرة بالضرورة السياسية للدفاع عن حدود الإمبراطورية الفارسية ، ممّا جعل جيشهم يخوض معاركه ضد المسلمين على الحدود بين الصحراء والأراضي الزراعية – كما كان يتمنى خالد بن الوليد – لكنّهم ضمن هذا التحديد السياسي للاستراتيجية العسكرية كانوا قد اتّبعوا أسلوباً سليماً ، وخططوا لتنفيذ تحشّدات كبيرة لقواتهم من أجل مواجهة قوّات المسلمين ، إلا أنهم فشلوا في تحقيق النجاح الذي كانوا يصبون إليه .

على صعيد البناء الاجتماعي فقد كان المجتمع الفارسي مجتمعاً إمبراطورياً أرستقراطياً ، وفي مجتمع كهذا لا بدّ من وجود نظام دقيق للرتب والمناصب في الولاية والجيش تدلّ على مركز الرجل الاجتماعي والرسمي في طبقات المجتمع .

حتى قيل إنّ أهل فارس كانوا يجعلون من قلانسهم - مفردها قلنسوة - على قدر أحسابهم في عشائرهم وفي مجتمعهم ، وكلُّ مَنْ يَتِمُّ شَرفه تكون قيمة قلنسوته مائة ألف درهم (٣).

هذه هي أهم الملامح السياسية والعسكرية والاجتماعية التي سادت الإمبراطورية الفارسية قبل مجيء الإسلام وبعده ، وقد ذكر المؤرخون أن الملك الفارسي الذي عاصر الرسول ﷺ هو (كسرى أبرويز) الذي ثار عليه ابنه (شيرويه) وقتله .

أمّا الإمبراطورية الرومانية ، ففي الوقت الذي كانت فيه إمبراطورية الفرس تمر بفترة انحطاطها بعد موت انوشروان ، كانت الإمبراطورية الرومانية أيضا تمرّ بفترة انحطاط ، إلا أن انحطاط الإمبراطورية الرومانيه قد سبق مثيلتها الفارسية بمدة أطول . ففي الوقت الذي كانت فيه إمبراطورية الفرس ما تزال تتمتع بدرجة معقولة من الاستقرار السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي ، والذي كان يعزا بمعظمه إلى قوةّ الأسرة المالكة الساسانية التي حكمت بشكل مستمرّ طيلة أربعة قرون ممّا جعل نظام انتقال السلطة السياسية فيها واضحاً . كانت الإمبراطورية الرومانيه الشرقية لا تمتلك مثل هذه الأسر الحاكمة أو هذه الأنظمة ، لذلك لم يكن لديهم تصوُّر لانتقال السلطة السياسية أو العرش ضمن أسرة مالكة من شخص لآخر ضمن سلالة واحدة . فقد كان انتقال العرش في هذه الإمبراطورية يتم وفق تقاليد عسكرية بحتة ، فعندما يموت الحاكم كانت السلطة السياسية تنتقل إلى أكفأ قائد عسكري أو سياسي .

ونتيجة لذلك فقد ظهر فيها الفساد ، وعمَّ الظلم ، وضعف ولاء الناس للإمبراطور ، وظهر فيها الاختلاف بين المذاهب الدينية ، وأصيب الجيش بالخلل قبل ظهور الدعوة الإسلامية بأكثر من قرنين .

جاء هرقل إلى عرش الإمبراطورية الرومانية في عام (٦١٠) م عندما كانت شؤون الإمبراطورية في غاية الانحطاط . فقد كانت الإمبراطورية تتألّف من

المنطقة التي تقع حول القسطنطينية وأجزاء من اليونان وإفريقيا . وفي فترة قصيرة من الزمن تُقارب العقدين استطاع هرقل أن يعيد بناء الإمبراطورية ويرجعها إلى سابق عظمتها . فقد هزم برابرة الشمال وأتراك القوقاز والفرس ، وأعاد البلاد التي تمّ انتزاعها إلى إمبراطوريته . ولم يحقق ذلك عن طريق الحرب فقط ، بل وبالاستراتيجية البارعة والتنظيم الجيد ؛ حيث كان هرقل استراتيجياً فذاً استطاع بقدرته غير العادية على التنظيم أن يخلق جيشاً كبيراً منظماً يتكوّن من أكثر من اثنتي عشرة أُمّة من أجناس مختلفة .

وقد امتدت رقعة الإمبراطورية الرومانية في عهده من شرق أوروبا حتى حدود إفريقيا الشمالية ، وبهذا تكون قد اشتملت على الأقطار الرئيسية التالية :(٤) .

١- الأقطار الواقعة شرق حوض البحر المتوسط .

٢- اليونان ومنطقة الأناضول .

٣- منطقة شمال إفريقيا وتشمل مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب .

وهكذا كانت بلاد الشام جزءاً من أراضي الإمبراطورية الرومانية ، وكانت تتألف سياسياً من إقليمين هما : إقليم سوريا ويمتد من أنطاكية وحلب في الشمال حتى الجزء الأعلى من البحر الميت ، وإقليم فلسطين ويقع إلى الغرب وجنوب البحر الميت . وكان العرب في ذلك الوقت يتحدثون عن إقليم الأردن أيضا والذي كان يقع بين سوريا وفلسطين . وكانت جميع هذه الأقاليم جزءاً من الإمبراطوريه البيزنطية ، لذا فإن فتح بلاد الشام كان يعني من ناحية عسكرية غزو روما ، وهذا ليس بالأمر اليسير أو السهل .وفي الحقيقة كانت بلاد الشام بلاداً جميلة ، بل أجمل إقليم في الإمبراطورية الرومانية ، فمناخها معتدل نتيجة لقربها من البحر الأبيض المتوسط، وقد كانت أنطاكية عاصمة المنطقة الآسيوية من الإمبراطورية الرومانية، وتأتي بعد القسطنطينية من حيث أهميتها السياسية .

أماّ عن الوضع الاجتماعي في بلاد الشام ، فقد كانت هذه الأرض أرضاً عربية خاصة في الأجزاء الشرقية والجنوبية ، وقد قطنها العرب قبل مجيء الرومان . وعندما جعل الإمبراطور (قسطنطين) الديانة المسيحية دين الدولة في أوائل القرن الرابع للميلاد ، اعتنق العرب هذه الديانة . وقد كان من أشهر القبائل العربية التي سكنت بلاد الشام في ذلك الزمن قبائل جذام وكلب و غسان التي هاجرت من اليمن إلى بلاد الشام قبل الإسلام ببضعة قرون .

أدرك الروم أهمية الصفات العسكرية التي تتمتّع بها القبائل العربية ، ولذلك عقدوا اتفاقاً مع الغساسنة ، وافقوا بموجبه على إقامتهم في بلاد الشام ومنحوهم ما يشبه الحكم الذاتي ، وأصبح لهم ملكهم الخاص بهم . وأصبحت هذه الأسرة إحدى الأسر الحاكمة في الإمبراطورية ، كما أصبح غسان ملكا على العرب في الأردن وجنوب سوريا ، وكان آخر ملوك هذه الأسره هو جبلة بن الأيهم . وقد قاتل الغساسنة مع الإمبراطوريه الرومانية في حروبها ، كما قاتل المناذرة مع إمبراطورية فارس ، وكان للصراع القائم بين الفرس والروم أثره على العرب ، حيث ذكر العقّاد أن هذا الصراع قد هيّأ نفوس العرب في العراق وبلاد الشام لقبول دعوة جديدة تأتيهم من أبناء جنسهم بالجزيرة العربية (٥) .

أمّا على الصعيد العسكري ، فعلى الرغم من أن الإمبراطورية الرومانيه كانت تمر بمرحلة انحطاط إلا أن جيشها ظل متماسكاً ويشكل أداة قوية للدفاع عن حدود الإمبراطورية وشن الحروب ، وكان من حيث القوة يأتي في المرتبة الثانية بعد الجيش الفارسي . كما كانت فرق هذا الجيش مجهزة بشكل جيّد ، ويقف على رأسها قيادات عسكرية محنكة ، كانت تبثّ الرعب في قلوب القيادات التي تواجهها. وكأي جيش كبير فقد كان يضمُّ بين صفوفه أجناساً كثيرة من السلاف والفرنجة والإغريق والجورجيين والأرمن والعرب وغيرهم .

أمّا عن أساليب الجيش القتالية واستراتيجيته العسكرية ، فقد كان هذا الجيش خاضعاً للاعتبارات السياسية في المحافظة على الإمبراطورية والدفاع عن حدودها.

وقد ظهر في حربه مع المسلمين أنه يجيد حرب الكُتْلة الواحدة طبقاً لأساليب القتال النظامية ، وقد عَرَفَ الجيش الروماني بناء الحصون والقلاع للدفاع عن مراكز المدن . كما أنه كان يطبّق أساليب تعبويّة متطورة .

هذه حالة الإمبراطورية الرومانيه عند مجيء الإسلام ، وقد كان هرقل هو الإمبراطور الذي عاصر الرسول ﷺ في ذلك الوقت .

أمّا عن العرب والظروف التي كانوا يعيشونها قبل مجيء الإسلام فقد كانت مختلفة إلى حد بعيد عن ظروف الإمبراطوريتين الفارسية والرومانيه ؛ فمن الناحية السياسية اختلفت أحوال العرب السياسية في الجزيرة العربية عن أحوالهم السياسية خارجها . ففي الجزيرة ساد النظام القبلي ، بحيث كانت القبيلة هي الوحدةُ السياسية المعروفة ، ومع ذلك قامت بعض الدول العربية مثل دولة سبأ وحمير . إلا أن هاتين الدولتين قد سقطتا بعد أن وقعت اليمن تحت الاحتلال الفارسي ، وظلّت كذلك حتى جاء الفتح الإسلامي . أمّا عن عرب العراق فكما سبق أن ذكرنا فقد خضعوا مباشرة للحكم الفارسي بعد أن قضى الفرس على دولة المناذرة في مطلع القرن السابع الميلادي ، كما خضع عرب بلاد الشام ومصر للحكم البيزنطي .

وهكذا يتّضح أن العرب كانوا يعيشون حالة تفكك وانقسام داخلي على نطاق واسع ، وحالة استعباد خارجي لم يترك لهم من الأمر شيئا سوى حماية مصالح الدول الأجنبية .

أمّا عن حياتهم الدينية فقد تنوعت المعتقدات عند العرب قبل الإسلام ، وكان من أشهر المعتقدات التي سادت بينهم : عبادة الأصنام ، والنصرانية ، واليهودية ، كما ظهر بينهم الصابئة وهم جماعة كانت تعبد النجوم والكواكب ، وانتشرت بينهم الديانة المجوسية التي نُسبت إلى زرادشت الفارسي .

أما على الصعيد الاقتصادي ، فقد سادت رعاية الماشية معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية ، كما انتشرت الزراعة والصناعة في مناطق العراق وبلاد الشام

وشمال شبه الجزيرة العربية . أمّا في مصر وشمال إفريقيا فقد كان سكانها يهتمون بزراعة الأرض، إلا أنهم كانوا يقدمون محاصيلها لأسيادهم من الرومان .

تسبّب سوء الأحوال السياسية والدينية والاقتصادية في فساد الحياة الاجتماعية عند العرب ، فظهر بينهم نظام الطبقات ،وانتشرت بينهم بعض العادات السيئة ، مما تسبب في ظهور حالة من الاضطراب العامّ شملت كلّ جوانب الحياة ، إلى الدرجة التي أصبح فيها قيام حركة إصلاح تعيد إلى حياتهم توازنها أمرا محتّما وضرورة حيويّة ملحة .

وهكذا جاءت الدعوة الإسلامية والعرب يعيشون حياة الفوضى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، جاءت هذه الدعوة لتقلب موازين حياتهم وتدخلهم التاريخ من أوسع أبوابه ، على الرغم من مقاومتهم لها ومحاولتهم القضاء على الرجل الذي جاءهم بها ، مّما اضطر الرسول ﷺ للهجرة إلى المدينة المنورة . وبوصول النبي إليها قامت أول دولة إسلامية في العالم ، تسير وفق أحكام الشريعة الجديدة ، ووفق اجتهاد الرسول ﷺ ، الذي أخذ ينظم شؤون الدولة الناشئة ، لتكون المنطلق الذي ينتشر منه الإسلام في الجزيرة العربية والعالم أجمع .

لقد نجح الرسول ﷺ بوضع نظام ثابت للدولة الإسلامية ، يقوم على مبادىء الإسلام في الشورى والمساواة والعدل وعقد المعاهدات مع المشركين واليهود ، وأنهى الخلافات الداخلية بين القبائل العربية ، ممّا مكّنه من تنظيم صفوف المسلمين وجعلهم وحدة متعاونة ، كما حرّر العبيد ، وقضى على مظاهر الجاهلية ، وأزال الفوارق بين الأجناس . فعمّ الأمن والاستقرار ربوع الجزيرة العربية ، مما تسبب في ازدهار الصناعة والزراعة والتجارة . بشكل عام فقد رسم الإسلام لحياة العرب مثلا ونموذجا أعلى ، ولم ينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى حتّى كانت معظم شبه الجزيرة قد خضعت لسيطرة الدولة الإسلامية .

هذه هي أحوال الدولة الإسلامية حتى وفاة الرسول ﷺ وظهور الخلافة الإسلامية والانتقال إلى مرحلة جديدة من مراحل بناء الدولة .

الهوامش

(١) الجنرال. ا. أكرم ، خالد بن الوليد ، ترجمة العميد الركن صبحي الجابي ، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى/ بيروت ١٩٨٢ ، ص ٢٣٧-٢٤١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .

(٣) إبن جرير الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الثاني ، دار القاموس الحديث للطباعة والنشر ، ص ٥٥٦ .

(٤) نهاد عباس الجبوري، العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٧ ، ص١٤٦

(٥) عباس محمود العقاد ، العبقريات الإسلامية ، دار الأدب ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٨٥٤ .

الفصـــل الأول :

إستراتيجية الدولة الإسلامية

١ - مدخل إلى الاستراتيجية - عام .

٢ - الاستراتيجية الإسلامية .

أ . منطلقاتها .

ب. طبيعتها وأهدافها .

٣ - الحرب وتنظيم الجيوش عند العرب والمسلمين .

١- مدخل إلى الاستراتيجية - عام :

كان كبار القادة والمفكرين في الماضي يربطون الاستراتيجية بموضوع القوّة العسكرية فقط . وهذا بالطبع ربط ناقص من حيث المبدأ ، حيث يتعلق هذا المفهوم خصوصاً في الوقت الحاضر بالأهداف القومية للدول ، والتي يمكن تحقيقها بأعمال عسكرية أو سياسية أو اقتصادية أو غيرها . وربما يعود سبب الربط هذا إلى أنّ مفهوم الاستراتيجية يرجع إلى اصطلاح مشتق من الكلمة اليونانية (سترات أجوس) وتعني طريقة الجنرال أو القائد العسكري ، أي فنّ الحرب وقيادة القوات . إلا أنه مع مرور الزمن تطور هذا المفهوم وتعددت استعمالاته ومستوياته لتشمل كلّ المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية ، بالإضافة إلى المجال العسكري . وعلى الرغم من كل هذا التطور ، ظلّ هذا المفهوم يحتفظ بإطاره العامّ ومدلولاته الأساسية.

لقد تعرّض الكثير من المفكرين وخبراء الاستراتيجية والحرب إلى هذا المفهوم، واجتهدوا في تعريفه اجتهادات مختلفة . وفي اجتهاداتهم تلك فَرّقَ هؤلاء بين مستويات متعدّدة للاستراتيجية ، وقالوا بالاستراتيجية القومية أو العليا وقالوا بالاستراتيجية العسكرية والسياسية والاقتصادية والنفسية وغيرها من الاستراتيجيات

التي غطّت معظم مجالات الحياة المعاصرة ، وقد وضعوا لها الأُسس والأُطر العامّة والخاصّة ، كما بيّنوا الفوارق فيما بينها .

وقد اتفق معظم المفكرين على أن القصد الوطني لأي دولة يشكل أساس استراتيجيتها القومية ، ولهذا فإن معرفة القصد الوطني والهدف القومي يمثل ضرورة أساسية لمستويات القيادة العامة ، حيث يمثّل هذا القصد الموجّه الأساس لأصحاب القرار عند وضع الاستراتيجية القومية . وكما هو معروف فإن طبيعة الهدف القومي هي طبيعة سياسية ، لذلك يمكننا القول بشكلٍ عام : إنّ مصالح الأمّة وأهدافها هي القاعدة الأساس التي تنطلق منها استراتيجيتها القومية ، حيث يتمّ بعد وضع خطوط الاستراتيجية القومية رسم الأُطُر الأساسية للاستراتيجيات الفرعية التابعة لها والتي تعمل جميعها لتحقيق الهدف القومي ، وهذه الاستراتيجيات هي :

١ - الاستراتيجية العسكرية .

٢ - الاستراتيجية السياسية .

٣ - الاستراتيجية الاقتصادية .

٤ - الاستراتيجية النفسية .

وتمثّل هذه الاستراتيجيات بمجملها جزءاً من قوة الأمّة ، ولهذا فإنه عند تنفيذها يجب على الجميع أن يتأكّد من أنّها تخدم الاستراتيجية القومية وأهدافها البعيدة .

لقد تمّ تعريف الاستراتيجية القومية بصور وأشكال مختلفة من قبل المعنيّين : فقد عرّفتها كلّية الحرب الصينية : "بأنها فنّ تطوير واستخدام القوة واستثمار موقف ملائم بحيث إنه عند متابعة الهدف القومي ، أو هدف الحرب ، أو هدف الحملة ، أو هدف الحلفاء ، أو خوض المعركة الحاسمة ، فإن احتمالات النجاح ونتائجها المفضّلة تزداد بدرجة كبيرة " . وهناك من عرّفها أيضا : بأنها "فنّ تطوير واستخدام القوّة القومية لخلق واستثمار موقف ملائم ، بحيث إنه عند متابعة الهدف

القومي فإن احتمالات النجاح ونتائجها المفضلة تزداد بدرجة كبيرة " . أمّا القاموس العسكري الأمريكي فقد عرّفها : بأنها "فنّ وعلم تطوير واستخدام القوى السياسية والاقتصادية والنفسية والعسكرية للأمّة خلال الحرب والسلم لإعطاء أقصى دعم للسياسات القومية ، وذلك لزيادة احتمالات النصر ونتائجها ولتقليل فرص الهزيمة"(١) .

أما الكاتب أمين هويدي فقد عرّف الاستراتيجية القومية : بأنها "فنّ السيطرة على استخدام موارد الدولة أو مجموع الدول بما في ذلك القوات المسلّحة بغرض تحقيق مصالحها أو الحفاظ عليها من أيّ عدوان واقع أو محتمل " (٢). أما الجنرال ثيودور.ر.ملتون فقد عرّف هذه الاستراتيجية بقوله : "إنها عبارة عن مجمل خطط الدفاع الخاصة بدولة أو بائتلاف عدّة دول والاستعمال المنسّق لكلّ مصادر الأمة من أجل تحقيق أهدافها القومية " . كما يشرح الدكتور محمد الهيثمي في كتابه الموسوم (في الاستراتيجية الاسرائيلية) الاستراتيجية القومية فيقول : "تقع الاستراتيجية الشاملة في قمة الاستراتيجيات ، وتخضع مباشرة لإدارة الحكومة ، وعلى هذه الاستراتيجية فهم وتحديد سير الحرب الشاملة ، ويتلخص دورها في تحديد المهمّة الخاصة بمختلف الاستراتيجيات السياسية والاقتصادية والدبلوماسية ، وتأمين توافقها . وتعتبر هذه الاستراتيجية من عمل رؤساء الحكومات المتعاونين مع رؤساء أركان الدفاع الوطني والمستشارين أو مجلس الدفاع الأعلى " (٣).

من مجمل هذه الآراء نستنتج أن مفهوم الاستراتيجية القومية يمثّل إطاراً شاملاً ينطوي على الاستراتيجيات الفرعية العسكرية والسياسية والاقتصادية والنفسية والتي تمثّل المرتكزات الأساسية لهذه الاستراتيجية التي تكون مهمّتُها تنسيقَ عمل وتَوافُقَ كلّ استراتيجية مع غيرها من جهة ، ومع الهدف القومي من جهة أخرى .

ويقع على عاتق القيادة السياسية للدولة مهمة تحديد الأهداف وتوجيه كلّ استراتيجية نحو هدفها المحدّد ، ووضع أولويات الأهداف وتوفير الوسائل والمستلزمات الضرورية التي تجعل الأهداف ممكنة التحقيق .

هذا ما يتعلق بالاستراتيجية القومية ، أما عن الاستراتيجية العسكرية ، فإنه يمكن القول بأن مفهوم هذه الاستراتيجية الأساس ينطوي على اعتبار أن كلّ أمّة لكي تتأكد من أمنها وتحقق أهدافها الوطنية ينبغي أن تتبنّى (مبدأ الاستعداد الدائم لحربٍ ما)، بحيث تكون قادرة على مواجهة أنواع الحرب المختلفة في أيّ مكان وزمان . إن الاستراتيجية العسكرية تعنى بدراسة كيف تقوم الحرب وتدعم الاستراتيجية القومية وتكسب النصر . ولتحقيق ذلك فإن هذه الاستراتيجية تتطلب التحضير لتوفير جميع الأشياء الضرورية لشنّ الحرب ، بحيث تجعل القوّات المسلّحة في الموقف المناسب لكسب هذه الحرب وإحراز النصر .

إن الاستراتيجية العسكرية مصمّمة بحيث تستطيع أن تبني القوات المسلّحة وتستخدمها بفعالية لتحقيق بعض أهداف الاستراتيجية القومية ؛ لذلك فإن على الفكر العسكري بشكل عام مسؤوليتين هما : بناء القوات المسلحة والعمليات ، وذلك عن طريق وضع الخطط المختلفة القصيرة والمتوسطة والطويلة المدى من أجل تحقيق هذين الغرضين . أي أن الاستراتيجية العسكرية مصمّمة لتقدير وتخطيط كيف نبني ونستخدم القوات المسلحة والتحضير للمستقبل ومواجهة الحروب الفورية .

أمّا عن تعريف هذه الاستراتيجية ، فإنه على الرغم من الاختلاف الحاصل بين المفكرين في هذا المجال ، إلا أنهم اتفقوا جميعاً على إطارها ومفهومها العام في تعريفهم لها ، فقد عرّف المارشال فوش الاستراتيجية العسكرية : بأنها "اللعبة المجرّدة الناجمة عن تعارض إرادتين ، إنها الفنّ الذي يسمح باستخدام التقنية بأقصى فاعلية ممكنة ، إنها إذن فنّ حوار القوى أو بالأحرى فنّ حوار الإرادات التي تستخدم القوة لحل خلافاتها ".

أما المفكر البريطاني (ليدل هارت) فيعرف الاستراتيجية على أنها :" فنّ توزيع واستخدام الوسائل العسكرية لتحقيق أهداف السياسة " (٤) . ويعرف (أندريه بوفر) الاستراتيجية العسكرية بقوله :" إنها عبارة عن فنّ استخدام القوة للوصول إلى أهداف السياسة " .

وفي كتابه (السوق الأكبر) يعرف (جون إم كولـنز) الاسـتراتيجية العسـكرية بأنها : " فنّ علم استخدام القوة العسكرية في مختلف الظروف لبلوغ أهداف الأمن القومي ، وذلك باستخدام القوة أو التهديد باستخدامها " .

من خلال ماسبق يتبين أن الاختلاف بين وجهـات النظـر السـابقة لا يوحـي بـأي اختـلاف فـي الجوهـر أو الإطـار العـام لمفهـوم الاسـتراتيجية العسـكرية ، ولكـن الاختلاف واضح في شمولية النظرة فقط . وفي هذا السياق فـإنني أميـل إلـى الأخـذ بتعريف الأمريكي جون أم كولـنز ، وذلـك لشـمولية هـذا التعريـف وتحديـده المتقن لمفهوم القوة . فقد بين كولنز أن صـانع القـرار لديـه خيـاران فـي عقيدتـه العسـكرية هما:-

١- إستخدام القوة عملياً لتحقيق الهدف .

٢- التهديد باستخدام القوة لتحقيق الهدف .

وكـلا الخيـارين يسـتوجبان حشـد القـوة لإعطـاء المصداقيـة المطلوبـة للخطـاب السياسي كي يفعل فعله .

بعد هذا العرض الموجز لمفهوم الاستراتيجية العليـا والاسـتراتيجية العسـكرية ، نجد أنه لا بُدّ لنـا مـن توضيـح الفـرق بيـن هـاتين الاسـتراتيجيتين ؛ وذلـك لتحاشـي الالتباس الذي يقع فيه بعض المعنيين وهم يقرأون عن هذا الموضوع . ومن خـلال استعراضنا لوجهات النظر فإنه من الممكن أن نوجز هذا الفرق على النحو التالي :

١- إن المهمة الأساسية للاستراتيجية العليا هي تكييـف مختلـف الوسـائل لتحقيـق أغراض الدولة .

٢- إن مجال اهتمام الاستراتيجية العليا ينصب على تنسيق سياسة الدولة الداخلية والخارجية لتحقيق الأغراض الأساسية ، وذلك عن طريق استخدام الوسـائل السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية منفردة أو مجتمعة أو التهديد باستخدامها.

٣- تشتمل الاستراتيجية العليا على استراتيجيات فرعية متعدّدة ، اقتصادية وسياسية وعسكرية وغيرها .

أمّا لو نظرنا إلى الاستراتيجية العسكرية فإننا سنجد أنها تتميز بما يلي :

١- مهمة الاستراتيجية العسكرية هي إعداد ووضع الخطط العامة التي تحدد طرق استخدام القوات المسلحة لتنفيذ عمليات محدودة أو واسعة النطاق .

٢- تسعى الاستراتيجية العسكرية لتحقيق بعض أهداف الدولة ، وليس جميعها ، وذلك عن طريق الاستخدام الفعلي للقوة .

٣- الاستراتيجية العسكرية هي استراتيجية فرعية في إطار الاستراتيجية العليا مثل الاستراتيجية السياسية والاقتصادية وغيرها .

هذه أهم الفروقات بين الاستراتيجيتين المذكورتين ، رغبنا في توضيحها ليستطيع القارىء التمييز بينهما . أما عن هيكل الاستراتيجية ، فإنه لا بد لأيّ استراتيجية من أن تتضمن النواحي الرئيسية التالية :-

١- إختيار الأهداف .

٢- إختيار الأساليب والوسائل لتحقيق هذه الأهداف .

٣- وضع الخطط التنفيذية .

وهنا لا بدّ لنا من التأكيد على أن بلورة أيّ استراتيجية تعني الاستخدام المتوازن والأمثل لكل موارد الأمّة ، ويقع على عاتق القيادة السياسية للدولة أن تدرك هذه الحقيقة وتعمل بمقتضاها ، وهذا يستدعي إخضاع جميع النشاطات السياسية والاقتصادية والعسكرية لتحقيق الأهداف القومية والعلمية. وإنه بقدر ما تكون الأهداف المختارة منطقية ومتلائمة مع قدرات الدولة بقدر ما تكون قابلة للتحقيق .

كما أن تحديد الأهداف بوضوح معقول ، يحقق لمتخذ القرار القدرة على تقويم الأخطار الممكنة أو المحتملة التي قد تعترض سبيل تحقيقها ، كما يسمح للقيادة

السياسية لأي دولة بالقيام بوضع سلسلة من الاستراتيجيات التي تهدف كل منها إلى تحقيق الأهداف المحددة لها ، مما يجعل هذه القيادة قادرة على تحديد مستويات القوة العسكرية اللازمة ، والموارد الاقتصادية المطلوبة لتنفيذ الاستراتيجية المعنية . ومن خلال ذلك يتبين أن شكل الاستراتيجية القومية التي تتبناها القيادة السياسية ينطوي على ترجمة واضحة للعلاقة بين تطلعات هذه القيادة وواقع القدرات الحقيقية للدولة .

ونتيجة لكل ذلك تصبح كفاية التوجُّه السياسي في مجال رسم الخطط لمؤسسات الدولة المختلفة – بما فيها المؤسسة العسكرية – على درجة عالية من الأهمية . حيث يقع على عاتق القيادة السياسية ضرورة تحقيق التوازن بين الأهداف المطلوبة وقدرات الدولة الفعلية ؛ لأن الأهداف الطموحة تكون بحاجة إلى إمكانيات كبيرة لتحقيقها . وإن التاريخ يزخر بالكثير من الأمثلة لدول تعرضت للمصائب في أثناء سعيها لتحقيق أهداف سياسية طموحة تفوق قدرتها الفعلية ، فقد خسرت ألمانيا حربين عالميتين نتيجة لهذا الخطأ ، وقد سبق نابليون ألمانيا بذلك فضحَّى بجيشه ومن ثم بإمبراطوريته عندما حاول عام (١٨١٢) إرغام القيصر الروسي على مشاركته في فرض حصار بحري اقتصادي على بريطانيا .

من هنا يتضح أن كفاية القيادة السياسية تعتبر على درجة من الأهمية لإدارة الدولة وتوجيهها وما يحقّق أهدافها المختلفة . فكلّما كانت هذه القيادة حكيمة وعقلانية وتتصف بمنطقية توجهاتها ، كانت أقرب إلى تحقيق أهدافها والسير بالأمة إلى شاطيء الأمان .

هذا ما أردت توضيحه قبل أن أنتقل إلى الخوض في موضوع استراتيجية الدولة الإسلامية ، حيث يستوجب مثل هذا الموضوع من القاريء أن يكون لديه الإلمام الكافي بمثل هذه المفاهيم حتى يستطيع أن يستقبل هذه المعلومات ويكون قادراً على تحليلها والاستفادة منها .

٢- الاستراتيجية الإسلامية

إكتسح العرب المسلمون في مدة زمنية قياسية الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، وامتدوا إلى الأمصار الأخرى ، فاقتحموا الهند وحدود الصين في الشرق ، واجتاحوا شمال إفريقيا حتى شواطيء الأطلسي في الغرب ، ثم قفزوا إلى القارة الأوروبية واجتازوا جبال البرانس إلى قلب فرنسا حتى وصلوا إلى مسافة مائة وخمسين ميلاً من باريس . حدث كل هذا في سنوات معدودة لذلك طغت الفتوحات الإسلامية على كل منطق وقياس ، حيث كانت أقرب إلى المعجزة منها إلى الأمر الواقع المنظور . ولا يزال مؤرخو الغرب حتى يومنا هذا يحارون في تفسير الظاهرة ويختلفون في وصفها وبحث أسبابها ومقوماتها ، وعلى وجه الخصوص الفتوحات الإسلامية الأولى في بلاد الفرس والروم ؛ لأن العرب قبل ذلك -أي قبل الإسلام- لم يكن لهم شأن يذكر من الناحية العسكرية .

لقد أخذت الجيوش الإسلامية بعد الدعوة تضرب في كل مكان ، وتسحق من يقف في وجهها . كانت كالسيل الجارف لا يقف أمامها شيء ، وقد علّق الكاتب الإنجليزي المشهور (هليار بلوك) على هذه الظاهرة بقوله : " إن هذا ما وقع فعلاً، فبينما كانت الإمبراطورية البيزنطية تحتفل بانتصارات الإمبراطور هرقل على الفرس ، وبينما كان الناس في جذل وحبور عظيمين حدثت المعجزة ، حدث كل شيء لم يكن ينتظره أحد ، ولا يفطن له ، حدث أمر كان أقرب إلى الهزة الأرضية والفيضان العام في سرعته وشدته ووقوعه دون سابق إنذار أو إشارة " . ويمضي فيقول :" إني أقول إن معجزة كهذه من حيث خطرها وبعد أثرها وعظيم نتائجها كانت مسوقة بقوة لا يستطاع تفسيرها ، وان كان لدينا من المصادر والوثائق ما يساعدنا على تفهّم الأسباب التي جعلتها أمراً واقعاً منظورا " (٥).

لقد حدثت الصدمة الأولى عندما تقدمت الجيوش الإسلامية القليلة العدة والعدد من الجزيرة العربية لمنازلة جيوش أكبر دولتين في هذا العصر في آنٍ واحد . وبعد أن أنجز خالد بن الوليد فتحٍ ما بين النهرين في الشرق وأمّن جناح القوات التي غزت أرض الروم ، وعلى ضفاف اليرموك وقعت المعركة التي بدلت وجه التاريخ في هذه المنطقة من العالم ، فانتصر المسلمون انتصاراً حاسماً ومزقوا جيش الإمبراطورية الرومانية الذي كان يفوقهم عدداً وعدّة ، وبعدها بحوالي سنة واحدة فقط وعلى ضفاف الفرات وجهت الضربة القاصمة لإمبراطورية الفرس في الشرق. .

هذا ما حدث على أرض الواقع ، ولكن ما حدث لم يكن بفعل قوة لا يستطاع تفسيرها كما يحاول هليار بلوك تفسير ذلك ، بل إن ما حدث عبارة عن فعل قام به رجال آمنوا بالله وأخلصوا في إيمانهم لربهم ودينهم فنصرهم الله على عدوهم ففتحوا الآفاق ونشروا دعوتهم في محتلف بقاع الأرض .

إن ما حدث ليس مجرد فعل فقط بل هو فعل منسق ومخطط ومرسوم بدقة وعناية . لقد قيّض الله لهذه الدعوة رجالاً من أفذاذ الرجال على مختلف الصعد السياسية والإدارية والعسكرية فنجحوا في إيصال رسالتهم للعالم . ولا يعقل -كما يدّعي الكثير من المؤلفين والمؤرخين- أن تكون هذه الانتصارات والفتوحات قد جاءت بمحض الصدفة ، بل جاءت نتيجة لعبقرية قادتها الذين رسموها وخططوا لها واستعدّوا لخوض غمارها . لقد كان تفكير هؤلاء القادة بمستوى مسؤولياتهم وكانت عبقريتهم واضحة بكل أفعالهم وأعمالهم ، ولذلك نجحوا في كل ما رسموه أو خططوا له .

إن النجاحات التي حققها المسلمون على مختلف الصعد وفي شتى الميادين ، لا بد أن تكون قد انطلقت من استراتيجية واضحة الأهداف والمعالم ، ولم تكن للحظة وليدة لعمليات ارتجالية أو خاضعة لقوانين الحظ والصدفة ؛ حيث لا يعقل أن تنشأ إمبراطورية على نظرية الصدفة أو الحظ ؛ لأن أي أمة من الأمم تسعى إلى تحقيق

هدفٍ ما ، لا بد أن تكون لها رؤيتها الخاصة للوصول إلى هذا الهدف . ولا نعتقد بأن الأمة الإسلامية في واقعها ككيانٍ سياسيٍّ مستقلٍ تحيد عن هذه الرؤية أو المنطق. فهذه الدولة التي نشأت على يد رجل واحد لتصبح بعده إمبراطورية تمد جناحها على أقاصي الشرق والغرب ، لا بد أن تكون قد خططت لذلك وعملت على تنفيذه بدقّة متناهية وإتقان نادر .

لقد كانت نواة الدولة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ هي شبه الجزيرة العربية، أخذت بعد وفاته تتّسع إلى أن وصلت إلى المحيط الأطلسي .

إن معجزة ظهور دولة كهذه ، وما حققته من الرفعة والتقدم لا بد أن تكون قد استندت على جذور تاريخية وشخصية مميزة سمحت لها بأن ترتقي على سلّم المجد لتنافس غيرها من الأمم في حركتها التاريخية . كما أن هذه الحركة لا بد أن تكون قد انطلقت من استراتيجية واضحة ذات أهداف محدّدة ووسائل قادرة على تحقيقها.

وعلى الرغم من إدراكنا أن مفهوم الاستراتيجية هو من المفاهيم التي لم تستخدم نظريا من قبل القيادات الإسلامية ، فإن ذلك لا يمنعنا من محاولة رسم خطوطها ، والتعرّف عليها من خلال دراسة الأهداف والخطط والأساليب التي استخدمت في ذلك الوقت ووضعها ضمن إطار الاستراتيجية الحديثة ومفاهيمها ما دامت تقع ضمن هذا الإطار . وقبل البدء في المحاولة ، لا بد لنا من محاولة التعرف على المنطلقات الأساسية التي استندت إليها هذه الاستراتيجية في طبيعتها وأهدافها ووسائل تحقيقها . وسنحاول التعرف على هذا الإطار الشامل من خلال تتبعنا لكل المكونات الأساسية له ، ومحاولة وضعه في قالبه الصحيح ليتناسب والمفاهيم المعاصرة .

أ - منطلقات الاستراتيجية الإسلامية :

١- المرتكز العقائدي :

بسم الله الرحمن الرحيم قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافّةً للناس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾(٦) . وقال تعالى : ﴿ يا أيها المدثر قُمْ فأنذر ﴾(٧). وقال أيضا : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ (٨) . وقال عليه الصلاة والسلام : " وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصّة وبُعثت إلى الناس جميعاً " (٩). وقال تعالى : ﴿ وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة ﴾ (١٠). وقال عليه السلام : " أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّها ، وحسابهم على الله" (١١).

يتضح من الآيات والأحاديث سابقة الذكر أن العقيدة الإسلامية فكرة تتطلب التبليغ للناس كافّة ؛ ولأن هذه الفكرة بمجملها فكرة منطقية وتستجيب بشكل متوازن لجميع حاجات الإنسان المادية والروحية ، فقد استقبلها الكثير من الناس وآمنوا بها عن طريق الاقتناع بما جاء فيها ؛ لأن أي فكرة بهذه المواصفات يمكنها استقطاب الكثير من الناس ، لذلك فهي ليست بحاجة إلى استخدام وسائل أخرى لاستقطابهم . ولكنْ يصبح استخدام الوسائل الأخرى ضرورة حتمية إذا ظهر من يحاول الوقوف بين هذه الفكرة وبين الناس في محاولة لمنعهم من الاستماع إليها . ففي مثل هذه الحالة يصبح استخدام الوسائل الأخرى أمراً محتماً . وقد ثبت تاريخيا أنّ أصحاب السلطة الذين يخافون على مكتسباتهم ، هم أكثر الناس الذين كانوا يحولون بين أفراد الشعب وهذه الفكرة ، وكانوا يقاومونها بكل قوة سلطانهم . ولذلك لم تكن أفكار المفكرين ولا مذاهب الحكماء هي التي تقف في وجه الدعوة بل قوة السلطة

المادية لا غير ، والسلطة التي تتمتع بالقوة لا تواجه إلا بسلطة مماثلة إذا كان الهدف هو إيصال الفكرة إلى آفاقها البعيدة لتحدث عملية التغير المنشود . والقوة بمدلولاتها المادية والمعنوية تمثل ركيزة أساسية في عمليات التغيير ، والأحداث التاريخية تؤكد الدور الحاسم للقوة في العمل على تحقيق ذلك . وتأسيساً عليه يكون الإسلام قد فرض القتال حيث سوّغه العقل والمنطق ، لأنه لا يطلب الحرب من أجل الحرب أو الهيمنة والتسلّط ، بل الحرب كوسيلة من وسائل تحقيق الهدف المتمثل بنشر الدعوة الإسلامية ، بعد أن يكون قد وضع جميع الوسائل الأخرى موضع الاستخدام وجرّبها على أحسن وجه . وهكذا يكون الإسلام قد شرع القتال كوسيلة تغيير بعد أن تكون جميع الوسائل الأخرى المتاحة قد استنفدت أغراضها .

كما أن الإسلام لم يشرع القتال لفرض عقيدته بالقوة ، ولكنه أوجب القتال كوسيلة قد يتمّ اللجوء إليها للدفاع عن حرية نشر هذه العقيدة بين الناس ، ومن ذلك يتبين أن للقتال في الإسلام هدفاً سامياً وغاية مثلى تتحدّد في إعلاء كلمة الله في الأرض التي تستهدف خير الإنسانية ، ولهذا فرض القتال على المسلمين ليتمكنوا من التصدّي لكل قوة تحاول الوقوف بين الناس وهذه الغاية .

لهذا السبب وغيره فرض الله الجهاد على المسلمين بكل عناصره المادية والمعنوية ، قال تعالي : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ثمّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾(١٢).

ولأن الجهاد هو السبيل لأداء مهمة إعلاء كلمة الله في الأرض ونشر العقيدة بين الشعوب ، ومن خلاله يستطيع الإسلام إعلان فكرته وتعميم منهجه ووضع قوانينه الربانية العادلة موضع التطبيق العملي لخير البشرية جمعاء ، فقد اكتسب موقعه الخاص بين شرائع العقيدة ، وجوهر استراتيجيتها العسكرية . وكنتيجة حتمية لكل هذه الأبعاد والمعطيات فقد أخذت الاستراتيجية الإسلامية حتمية كونها استراتيجية يغلب عليها طابع التعرُّض .

من ذلك يتضح ، أن خصوصية وشمولية الدعوة ومسؤوليتها فرضت نوعا من التطور السياسي الحتمي على الدولة ذات العلاقه ، وهي الدولة الإسلامية . ونتيجة لهذا كان لا بد لهذه الدولة أن تتبنى استراتيجية قادرة على الضلوع بأعباء المسؤولية الملقاة على عاتقها ، وهذه الاستراتيجية لا بد أن تتصف بطبيعة تعرضية تلائم المقتضيات السياسية والاقتصادية .

٢- المرتكز الاجتماعي والجغرافي :

لم تكن حقائق العقيدة الإسلامية بخافية على أحد من سكان الدول المجاورة أو مسؤوليها . وكما هو معروف تاريخيا فإن المجتمعات الفارسية والرومانية والعربية قد انتشر فيها الكثير من المعتقدات والأديان قبل مجيء الإسلام ، حيث كانت المسيحية منتشرة بين الروم والعرب التابعين لهم في بلاد الشام ، وكانت الزرادشتية وعبادة النار منتشرة بين الشعوب الفارسية ، وانتشرت بعض الأديان الأخرى كعبادة الأصنام والكواكب والنجوم على أطراف الجزيرة العربية وفي داخلها . وجميع هذه الأديان كانت منتشرة بدرجات متفاوتة بين شعوب هذه المنطقة، حتى باتت تشكل عقبة رئيسية أمام انتشار الدعوة الإسلامية ، لذلك فإن أيّ متتبع للأحداث لا بد أن يتوقّع بأن هناك حتمية للمواجهة والصراع بين العقيدة الناشئة وتلك المعتقدات والأديان واسعة الانتشار . كما أنه من غير المعتقد أن فكرة القضاء على العقيدة كانت غائبة أو بعيدة عن مخيلة الساسة وأصحاب القرار في دولتي الفرس والروم وأتباعهم من العرب . ويرتكز هذا التوقّع على ظهور مصلحة مشتركة للدولتين المذكورتين وهدفٍ واحد في ضرورة القضاء على العقيدة الناشئة قبل أن يستفحل خطرها .

إضافة إلى ذلك فقد كانت الدولة الإسلامية في الجزيرة العربية تمتلك حدودا جغرافية طويلة مع هاتين الدولتين ، حيث كانت حدود الإمبراطورية الفارسية تمتدّ

من الشرق إلى الشمال الشرقي للجزيرة العربية ، بينما كانت حدود الإمبراطورية الرومانيه تمتد من الغرب وحتى الشمال الغربي .

ونتيجة لهذا الوضع الجغرافي فقد كانت الدولة الإسلامية محاطة بحدود طويلة مع أقوى دولتين في ذلك الزمن . لذلك فإن أي استراتيجية إسلامية لا بد لها أن تنطلق من محاولة بناء قوة قادرة على الدفاع عن نفسها من جهة ، ولديها القدرة على اختراق حدود هاتين الدولتين من جهة أخرى على اعتبار أن الهجوم خير وسيلة للدفاع .

وإذا كان هدف الدولة الإسلامية الأبعد هو نشر العقيدة ، وإذا كانت هذه العقيدة تتطلب السيادة على غيرها من العقائد المنتشرة ، فإن تشكيل واستخدام الجيوش يصبح ضرورة حتمية تقتضيها طبيعة وضرورات الدفاع عنها وقد أدركت القيادة السياسية والعسكرية في الدولة الإسلامية هذه الحقيقة بصورة واضحة حتى قبل أن يدركها غيرها .

إذن يتضح من واقع الحقائق الاجتماعية والجغرافية أن هناك حتمية مؤكدة للصراع ، ولذلك بادرت القيادات الإسلامية لتهيئة الظروف وحشد الإمكانات المناسبة وما يتلاءم مع هذه الحتمية ، وذلك لتحقيق عنصر المبادرة ، فتبنت استراتيجية تعرُّضية انتقلت فيها إلى مرحلة التطبيق العملي عندما انطلقت جيوشها مخترقة حدود الدول المجاورة .

٣- المرتكز السياسي والاقتصادي :

سبق أن بيّنّا أن الرسالة المحمدية هي رسالة عالمية جاءت للشعوب كافة ،مما يستوجب من جميع المؤمنين بها أن يعملوا على إيصالها ونشرها بين الأمم . وهذه المسؤولية الملقاة على عاتق أتباع هذه الدعوة تتطلب منهم قدرات وإمكانيات موازية ومكافئة لحجمها وتبعاتها العظيمة ؛ لأنّ طبيعة هذه المسؤولية تأتي من

خلال شمولية هذه الدعوة وبعدها العالمي ؛ ممّا يحتم وجود دولة ذات سيادة مرموقه وصاحبة دور عالمي يتماشى ومقتضيات العقيدة ومتطلبات مسؤوليتها ، إذا كان لهذه العقيدة أن تنتشر كما أراد لها الله .

لقد فرضت هذه الحقائق ذاتها على القيادات السياسية والدينية الإسلامية ، وحتمت عليها العمل على تطوير قدراتها السياسية ودورها العالمي وما يتناسب ومتطلبات الدور المنوط بها وحقائق الدعوة ومنطق الأشياء ؛ لأنه لا يعقل لعقيدة ذات خصوصية عالمية أن تضطلع بمسؤوليتها دولة ذات دور هامشي وقدرات متواضعة على الصعيد السياسي والعسكري والاقتصادي ، بل لا بد من التطوير والارتقاء بهذه القدرات لتتوازى مع حجم المسؤولية الملقاه على عاتقها ، ولتصبح مساوية أو تتجاوز مصاف الدول العظمى في ذلك العصر .

ومن الضرورة هنا أن لا يغيب عن البال أن أيّ استراتيجية تتبناها الدولة هي تعبير مكثف عن قدرات هذه الدولة الاقتصادية والعسكرية والسياسية . والاقتصاد بحد ذاته هو الأساس المتين لبناء واختيار الاستراتيجية المناسبة ، والجزيرة العربية كما هو معروف منطقة جغرافية تتصف بضآلة مواردها الاقتصادية ، لذلك اقتضت أهداف العقيدة وتبعاتها ومسؤوليتها الانطلاق إلى الآفاق الرحبة ؛ لأن الامتداد الجغرافي يمثل عنصراً مهماً في تطوير مساحة الدولة الجغرافية التي تمثل ضرورة استراتيجية مهمّة تكسب الدولة موقعا سياسياً مميزا بين الدول ، وتحقق لها موارد اقتصادية مضافة يمكن تجنيدها لخدمة الغرض القومي الأبعد .

٤- المرتكز الإنساني :

الإنسان هو عماد الحياة ، وهو بنفس الوقت غايتها الأساسية ، ولأنه يمتلك وحده القدرات والطاقات المبدعة والخلاقة أخذ أهميته كعنصر محرك أساسي في بناء المجتمعات الإنسانية ؛ ولأنه كذلك كان هدفاً ووسيلة في آنٍ معاً لكل المعتقدات والأديان والرسالات السماوية . وتختلف القدرات الإنسانية من فرد إلى آخر كما هي من مجتمع إلى آخر . ولأن الإنسان ليس بالضرورة أن يكون دائما صاحب سلوك إيجابي تجاه كل القضايا والمشكلات ، لذلك اكتسب الإنسان الذي يملك هذا الاستعداد أهمية خاصة . فقد خذلت الكثير من الشعوب أنبياءها وقادتها ومعتقداتها، ولنا في القرآن الكريم خير دليل على ذلك ؛ فقد تخلّى بنو إسرائيل عن نبيهم لأنهم لم يكونوا أصحاب سلوك إيجابي نحو المعتقد الذي جاءهم به ، ولذلك قالوا له : ﴿إذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون﴾ . وهذا يتناقض مع الرسالات السماوية وغاياتها ودور الإنسان فيها ، قال الله في كتابه العزيز ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ إذن فالإنسان هو خليفة الله في الأرض، ولن يكون كذلك إلا بتفاعله الإيجابي مع حقائق الكون والحياة .

إن السلوك السلبي من قبل بني إسرائيل جعل منهم شعباً ليس مؤهلاً لتحمُّل مسؤوليات إنسانية بمستوى الرسائل السماوية ، ولذلك فإن الرسالةالمحمدية بشموليتها وجسامة مسؤوليتها كان لا بد لها أن تصادف أناسا لديهم الاستعداد لتحمّل تبعاتها . ومن هنا أخذت القيادات الدينية والسياسية والعسكرية وجميع المسلمين الذين آمنوا بهذه الرسالة أهميتهم الاستثنائية التي انبعثت عن دورهم الاستثنائي في الحياة الإنسانية .

لقد آمن هؤلاء الرجال أن الرسالة المحمدية يجب أن تستمر دون انقطاع فيها ، أو انقطاع عنها بغية إيصال الإيمان بهذه العقيدة إلى مبتغاه . وأدركوا أن الصعوبات في كل درجاتها وفي كل مستوياتها وفي تباين أنواعها ، ما هي إلا

الرديف الذي لا بد منه لتحقيق المبادىء العظيمة ؛ لأن المصاعب في درجتها تعطي وصفا لمعنى المبادىء التي يتحملها المؤمنون . فكلما كانت المبادىء والأهداف عظيمة ، عظمت من أجل تحقيقها التضحيات وازدادت الصعوبات . وكلما كانت الشعارات صغيرة والمبادىء متواضعة وتصوراتها محدودة والخيال الذي يبنى حولها قصير المدى ، عزت في سبيلها التضحيات وتلاشت . وكلما كانت الأهداف عظيمة وكان الخيال الذي يبنى حولها بعيد المدى عظمت التضحيات وازدادت المخاطر . والخيال ليس هنا خيالاً طوباوياً ، بل هو خيال المجاهدين المؤمنين بحتمية انتصار المبادىء . لقد أيقن هؤلاء المؤمنون أن المبادىء عندما تنتصر فإنها ستغير واقع الأمم ، وسيكون هذا التغيير تغييراً نوعياً وشاملاً ، ويمتد في تأثير معانيه إلى زمن طويل لاحق ، ولن يبقى كمكتسب لمرحلة ، وضمن إطارها فقط .

لقد آمن الرواد الأوائل من المؤمنين أن الصعوبات التي يواجهونها في سبيل عقيدتهم، هي صعوبات لا بد أن ترافق مجهوداتهم وعملهم ، ولذلك تحملوها كما يتحمل أفضل الرجال مسؤوليتهم . ومع أننا الآن ندرك أن الصعوبات التي واجهها أولئك الرجال هي صعوبات غير اعتيادية على جيل من الأجيال إلا أننا نرى أنها كانت ضرورية لكي يقطف ذلك الجيل من الرجال معانيها الكبرى ويحقق الخير للإنسانية جمعاء .

إن الأهداف والمبادىء إنما تتحقق ابتداء داخل النفس عندما تعاني معاناة صادقة، وإن هذه المبادىء تنتشر من داخل النفس إلى ما حولها عندما يكون الإيمان بها عميقاً وحقيقياً ؛ لأن الإيمان يكون مؤثراً في الوسط القريب ابتداء ثم يأخذ تأثيره في الامتداد إلى الأبعد فالأبعد منه . لذلك فإن ذلك الجيل من المؤمنين الذي تحمل مسؤولية العقيدة وتبعات انتشارها على عاتقه ، والذي وقعت عليه كل الصعوبات لا بد أن يتمتع بمكانة لائقة عند الله والناس ، بمكانة لا يضاهيها مكانة في التاريخ ،

وفي معاني النماذج التي يحكي عنها ويتشبه بها المؤمنون من أقصى بقاع الأرض إلى أقصاها ولزمن طويل .

إن مثل هذا المكسب ليس مكسبا ذاتيا، إنما هو مكسب إيمان ، ومكسب مباديء، وإن مكسبا كهذا لكي يتحقق لا بد من تضحيات تكون بمستواه . وإن هذا المكسب لن يكون حكرا على أشخاص وإن كانوا هم رموزه وصانعيه وإنما سيكون مكسبا عاما للإنسانية جمعاء . وهنا علينا أن ندرك أن مكاسب حياة أولئك المؤمنين هي مكاسب روحية عظيمة ومعنوية ومادية تاريخية . لقد آمن رجال محمد صلى الله عليه وسلم بأن الحياة والمباديء والتاريخ لا تصاغ عن طريق القوة المادية فقط ، على أهميتها في موازين القوى ، ولكن للجانب المعنوي دوره الفاعل والحاسم أيضا، لذلك كانوا بقوتهم المعنويه أقوى مما هم عليه في حقيقة الحسابات المادية . فواجهوا مسؤولياتهم انطلاقاً من عقيدتهم كمنهج وأسلوب حياة ، ونجحوا في تحقيق أهدافهم كخير من نجح أو تحمل المسؤولية . هؤلاء الرجال هم الذين ارتضى لهم رب العالمين أن يتحملوا مسؤولية نشر دعوته وإعلاء كلمته ، لأنهم جديرون بالمسؤولية، فوضعوا لأنفسهم إطار عمل يتلاءم وطبيعة المسؤولية الملقاة على عاتقهم فكانوا تعرُضيين في استراتيجيتهم لأنهم كانوا مؤمنين بهدفهم وخير من يعرف أساليب تحقيقه فاستحقوا قوله تعالى :﴿ كنتم خير أمّة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ صدق الله العظيم(١٣).

هذه هي أهم المرتكزات التي انطلقت منها الاستراتيجية العظمى للدولة الإسلامية أردت بيانها وتوضيحها ليسهل علينا وصفها وتتبُّع أهم ملامحها ، حتى يكون لدى القاريء الأساس اللازم الذي يمكنه من الانطلاق معنا ونحن نحاول التعرف على الاستراتيجية الإسلامية العظمى والعسكرية ، دون أن يكون هناك أي تضارب أو شك ونحن نتحدث عنها . فهذه الأسس أو المرتكزات هي التي أعطت

للاستراتيجية الإسلامية ملامحها الرئيسية وحددت لها أهدافها وأساليبها ، وتركت للقيادات الإسلامية الاختيار من بين البدائل المتاحة للوصول إلى غايتها .

ب- طبيعة الاستراتيجية الإسلامية :

سبق أن ذكرنا أن أي استراتيجية تتكون من الأساسيات التالية:

١- الأهداف .

٢- الوسائل والأساليب .

٣- الخطط اللازمة .

وعلى هذا الأساس فإن التفكير بأي استراتيجية شاملة أو فرعية ، لا بد أن يأخذ هذه المكونات بعين الاعتبار من أجل التعرف على طبيعتها وتمييزها عن غيرها من الاستراتيجيات ، والحكم عليها .

إن أي قيادة سياسية لا بد لها أن تحدد أهدافها بصورة متوازنة ومتناسبة مع القدرات المتاحة للدولة حتى تكون هذه الأهداف ممكنة التحقيق ، وهذا هو منطق البناء الاستراتيجي . وتاسيساً عليه فإنه إذا حاولنا التعرف على أهداف الدولة الإسلامية ، وجدنا هذه الأهداف تختلف عن أهداف غيرها من الدول الأخرى . وهذا عائد إلى أن هدف الدولة الإسلامية المتمثل بإعلاء كلمة الله في الأرض لم تتم صياغته من قبل أي قيادة سياسية ، فهدف هذه الدولة قد تحدد بأمر إلهي وليس بناء على اجتهادات إنسانية أو تقديرات بشرية . وهذا يعني أن الدولة الإسلامية قد تحدد هدفها الأساس دون أن يترك أي خيار أمام قيادتها السياسية للاجتهاد في هذا المجال أو محاولة استبداله .

عندما حدد هذا الهدف في مراحل قيام الدولة الأولى ، لم يكن هناك أي تناسب بين الهدف والموارد المتاحة للدولة الإسلامية . وبناء عليه فإن استراتيجية

المراحل هي التي بدت ممكنة في حينه وتتناسب مع قدرات الدولة المتاحة . وهذا يعني وضع سلسلة من الاستراتيجيات والأهداف المرحلية التي يساهم تحقيقها في الوصول إلى الهدف الشامل .

ومع أن هدف الدولة الإسلامية قد اشتق من الرسالة الإسلامية التي أنزلت على سيدنا محمد ﷺ، إلا أن ذلك لا يمنع من القول إنه إلى جانب هذا الهدف كان هناك بعض الأهداف السياسية والاقتصادية سعت القيادات الإسلامية إلى تحقيقها ، بحيث كان لها في هذا المجال الحرية في وضع الأولويات واختيار الأهداف الفرعية . فقد سعى المسلمون على سبيل المثال إلى توسيع رقعة دولتهم الجغرافية ،وتنمية مواردهم الاقتصادية ، وتطوير دورهم السياسي العالمي . كل ذلك يمثل أهدافا ستؤدي حتما إذا استغلت بصورة مثلى إلى تحقيق الهدف الذي يسعون إليه . وهنا يجب أن يشار بوضوح تام ، إلى أن كل هذه الاعتبارات السياسية والاقتصادية لم تكن هدفاً بحد ذاتها ، بل كانت وسيلة لتطوير القدرات المتاحة للدولة الإسلامية بما يتلاءم وتحقيق الهدف الذي تسعى إليه .

هذا في مجال الهدف الحيوي للدولة الإسلامية ، أما عن الوسائل والأساليب التي استخدمت لتحقيق الهدف وأولويات استخدامها ، فكأي استراتيجية أخرى كانت استراتيجية الدولة الإسلامية تنطوي على ثلاث استراتيجيات فرعية هي : الاستراتيجية السياسية والاقتصادية والعسكرية .

وقد حددت هذه الاستراتيجيات في مصادر التشريع المختلفة ويمكننا توضيحها على النحو التالي :

أ- الاستراتيجية السياسية :

إعتمدت هذه الاستراتيجية على أساليب الإقناع في تحقيق الهدف وذلك من خلال دعوة الحكام وقادة الشعوب إلى الأخذ بمباديء الدعوة الإسلامية ، وتحرير

شعوبهم من الجهل والشرك . وقد بدأ الرسول عليه الصلاة والسلام هذه السياسة عندما أرسل وفوده ورسله ودعاته إلى ملوك وأمراء الدول يعرض عليهم الإسلام ، وطلب منهم أن يسمحوا لهؤلاء الدعاة بحرية القول والنشر والاتصال بالشعوب . وقد سار الخلفاء الراشدون فيما بعد على هذه السياسة .

ب- الاستراتيجية الاقتصادية :

وهي استراتيجية مكونة من شقين: الأول وضع العدو تحت ظروف اقتصادية غير مناسبة فقد تجعله يعيد التفكير فيما عرض عليه حول فكرة الإسلام . وهي إحدى الوسائل التي قد تعيد العدو إلى رشده بفعل الضغط الاقتصادي والنفسي الذي يمارس عليه . ولذلك كنا نشاهد القيادات الإسلامية -على مختلف مستوياتها- تضع ثلاثة خيارات أمام أعدائها هي : الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب ، وهي مرتبة حسب أولويات استخدامها ومن هنا نقول إن الإسلام لم يشرع الجهاد رغبة في الحرب ، بل رغبة في تخليص الإنسانية من الشرك بالله العلي العظيم .

أما الشق الثاني لهذه الاستراتيجية فقد كان يتعلق بالمسلمين ، فالأموال التي يحصلون عليها من الجزية ، وما يتم التبرع به من قبل المسلمين الأغنياء ، وما يتم الحصول عليه من غنائم الحروب كان وسيلة الدولة الإسلامية لتحقيق أهدافها . فعملية تمويل القوات كانت عملية أساسية في الدولة الإسلامية ، وقد سمعنا الكثير عن بعض الذين تبرعوا لتجهيز حملات عسكرية بالكامل . إن شقي هذه الاستراتيجية متكاملان لا نستطيع أن نفصل بينهما .

ج- الاستراتيجية العسكرية :

وهذا ما يمكن أن نسميه بالعمل العسكري الذي يعتمد القوة أساساً لإزالة الحواجز التي تقف في وجه الدعوة الإسلامية . فإذا ما وقف الحكام والملوك وقادة

الشعوب من الدعوة موقف العداء كان لا بد للمسلمين من أن يعملوا على إزالة هذه الحواجز باللجوء إلى القوة ؛ ولذلك خرجت جيوش الفتح الإسلامي للقيام بمهمة تحطيم هذه العقبات . وقد كانت جيوش المد الإسلامي تتألف من قسمين رئيسيين هما : فرق الجهاد العسكرية التي عملت أو ستعمل للقضاء على الطبقة الحاكمة المتسلطة ، والفرق الدينية التي يأتي عملها بعد حسم الصراع بالقوة ، وهدفها تحرير الحياة الاجتماعية للشعوب ، وإسقاط الانحرافات الفكرية . وتسمى هذه المرحلة بمرحلة إخراج الشعوب من حياة الشرك والجاهلية وإعدادها إسلامياً .

هذه الوسائل الثلاث كانت تهدف إلى تحقيق نفس الهدف ؛ وبذلك تكون مكونات الاستراتيجية الإسلامية ، هي نفسها مكونات الاستراتيجية المعاصرة لأي دولة ، إلا أن الاستراتيجية الإسلامية قد تميزت بما يلي :

أ - ثبات الهدف وديمومته :

إن هدف الدولة الإسلامية هو إعلاء كلمة الله في الأرض ، وهذا الهدف حُدّد من قبل رب العالمين ؛ ولذلك فإن هدف الدولة الإسلامية ثابت منذ مطلع الرسالة وحتى يرث الله الأرض وما عليها .

وبناء عليه فإن خيارات القيادة السياسية والدينية مقيدة في هذا المجال وهي بذلك تختلف عن غيرها من القيادات السياسية الأخرى التي تمتلك حرية الاجتهاد وتحديد الأهداف وفقا لمقتضيات تصوراتها السياسية .

ب- *الوسائل وأولويات استخدامها* :

تستخدم وسائل تحقيق الهدف في الدولة الإسلامية وفق أولوياتها التي جاءت بها، وهي بذلك تختلف عن الوسائل المستخدمة في الدول المعاصرة التي تتبنى تطبيق الخيار الأمثل وفق ما تقتضيه مصالحها القومية دون أي اعتبار لأولويات الوسيلة المستخدمة .

أما عن وضع الخطط التنفيذية فقد ترك الخيار فيها للقيادة السياسية للدولة، بحيث يتم التخطيط وفق ما هو مطلوب لتحقيق الهدف . وهي بذلك تلتقي مع الاستراتيجيات الأخرى . وبذلك تتصف الاستراتيجية الإسلامية بثبات الأهداف ومرونة التخطيط والتنفيذ وترتيب الأولويات . فعلى سبيل المثال بعد وفاة الرسولﷺ ارتدّت أعداد كبيرة عن الإسلام ، وكان الهدف واضحا أمام أبي بكر ، فالأولوية يجب أن تعطى لتثبيت أركان الدولة الإسلامية قبل الانطلاق لأي عمل . وقد استخدم في سبيل تحقيق هذا الهدف الوسائل السياسية أولاً ، فقام بإرسال وفوده، ومبعوثيه إلى جميع القبائل المرتدة يدعوهم إلى البقاء مخلصين للعقيدة الإسلامية ، وعندما فشل في ذلك لجأ إلى استخدام الوسائل العسكرية ، كخيار استراتيجي بديل لتحقيق الهدف (١٤) .

وهكذا نلاحظ كيف رتّب أبو بكر أولوياته ، واستخدم البدائل المتاحة في الوقت المناسب . فحينما كان المنطق الاستراتيجي يستدعي مواجهة المرتدين لضمان سلامة واستقرار الدولة الإسلامية ، فإن قرار المواجهة قد أخذ أولوية أولى على غيره من القرارات وفق مقتضيات الحاجة ومتطلبات الظرف الراهن .

لذلك يبدو واضحا من خلال الأهداف والمرتكزات سابقة الذكر أن طبيعة الاستراتيجية الإسلامية هي بالضرورة استراتيجية تعرُضية ، وتسعى لإعلاء كلمة الله في الأرض ، ورفع شأن الإنسان خليفة الله على هذه الأرض . وبهذا المفهوم تصبح الضرورة التعرضية للاستراتيجية الإسلامية ضرورة إنسانية حياتية لا غنى عنها . ومن هنا يأخذ مفهوم التعرض والميل إلى الحسم بالقوة إسلاميا مفهوما حياتيا راقيا وملحّاً يترفع عن الرغبة في سفك الدماء من أجل تحقيق أهداف أنانية ضيقة أو مصلحة خاصة كما هو شأن الكثير من القوى العالمية في هذا الزمن ؛ لأن التعرض واستخدام القوة في الاستراتيجية الإسلامية هو مفهوم حضاري تحت كل الاعتبارات .

وفي هذا الصدد بالرغم من كل الأهداف الإنسانية التي تسعى الاستراتيجية الإسلامية إلى تحقيقها عن طريق حسم الصراع بالقوة ، فإن هذا الأسلوب لا يتم اللجوء إليه كخيار وحيد وأولوية أولى تقتضي المبادرة بالاستخدام ، بل يتم اللجوء إليه كوسيلة أخيرة وبعد أن تستنفد الوسائل السياسية والاقتصادية أغراضها .

إن ما يؤكد الطبيعة التعرضية لهذه الاستراتيجية هو القرار السياسي الذي اتخذه أبو بكر مباشرة بعد أن تمكن من القضاء على حركة التمرد الداخلي على السلطة السياسيه والدينية في الجزيرة العربية ، بحيث كان هذا القرار يجسد عمليا تبني الدولة الإسلامية لخيار الحسم العسكري من أجل تحقيق أغراضها . مع ذلك ظلت القيادات الإسلامية تطرح على أعدائها قبل كل معركة الخيارات السلمية التي تمنع الحرب وتحقق الهدف ؛ ولذلك كان أمام القيادة العسكرية الإسلامية خياران لتحقيق الهدف هما :

أ- خيار استخدام القوة بمفهومها المادي المطلق .

ب- التهديد باستخدام القوة الذي يجبر الطرف الآخر على الإذعان للخيارات الأخرى . وهذا ما ذهب إليه كولنز في تعريفه للاستراتيجية العسكرية المعاصرة . ومن خلال ذلك يتضح أن القيادات العسكرية الإسلامية قد طبقت المفهوم المعاصر للاستراتيجية العسكرية منذ زمن بعيد .

إن القرار الحاسم الذي اتخذه أبو بكر بمواجهة قوات الإمبراطورية الفارسية وحسم الصراع معها عن طريق استخدام القوه ، قد جاء بعد أن استخدمت الوسائل السياسية مع هذه الإمبراطورية منذ عهد الرسول ﷺ .إلا أن الإمبراطور الفارسي كان قد رفض ذلك ، وبعملية الرفض هذه جعل أبا بكر يلجأ إلى الوسائل الأخرى المتاحة بين يديه لتحقيق هدف الدعوة ، فكان الخيار العسكري هو الخيار المتاح .

أما عن ميزات الاستراتيجية الإسلامية فقد سبق أن أشرنا إلى أهمية توازن الأهداف مع الإمكانيات المتاحة للدولة . ولأن الدولة الإسلامية ، لم تكن دولة قوية

على الصعيد العسكري والاقتصادي منذ نشأتها ، لذلك نجدها قد تبنت فلسفة سياسة المراحل التي ميزت استراتيجيتها منذ مطلع العصر الراشدي والتي سعت من خلالها لتحقيق الأهداف المختلفة وصولا إلى الهدف النهائي . وهذا هو الحل الأمثل و الأسلوب الأجدى في ظل الظروف الراهنة التي كانت تعيشها الدولة الإسلامية ؛ ولهذا السبب احتلت قوات خالد بن الوليد الحيرة وحققت هدفها المنشود وأمنت الجناح الشرقي للقوات الإسلامية في مسرح عمليات بلاد الشام ، ثم انتقلت بعدها مباشرة لعبور مرحلة أخرى متقدمة مع قوات الإمبراطورية الرومانية . وهكذا استمرت استراتيجية أبي بكر على هذا النسق طيلة فترة خلافته والفترات التي تليها. إلا أن ما يستحق الملاحظة ، هو التطور الحاصل على حجم الأهداف بين المرحلة والأخرى والذي كان مرافقاً لكل تطور يحصل على قوة الدولة الإسلامية ، فشاهدنا على سبيل المثال سقوط الحيرة كمرحلة أساسية لهزيمة الإمبراطورية الرومانية ، وهذه الأخيرة كضرورة لهزيمة الفرس اللاحقة في القادسية وهكذا .

هذه الميزة رافقتها ميزة أخرى لاستراتيجية الدولة الإسلامية تمثلت بتبني ما يطلق عليه في وقتنا الحاضر "الحروب الوقائية" والتي تدعي إسرائيل وغيرها من الدول أنها صاحبة السبق في هذا المجال بينما تبناها المسلمون قبل ما يزيد عن (١٤) قرناً من الزمن .

فالامبراطوية الفارسية على عظمتها وما تملكه من جيوش ومن أسباب القوة ، لم تكن قد قامت بأي اعتداء على الدولة الإسلامية عندما اتخذ أبو بكر قراره الخطير بمواجهتها . كما أن هذه الدولة لم تحاول أن تهدد أو تعمل على التدخل في شؤون الدولة الإسلامية الداخلية أو إثارة العنف على حدودها . إضافة إلى ذلك فإنها لم تتحالف مع أي قوة حتى تاريخ اتخاذ القرار لشن عدوان مسلح ضد الدولة الإسلامية، علماً بأنه كان من الممكن لها أن تتحالف مع بعض العناصر المرتدة في أثناء الفتنة الداخلية .

إن عدم تدخل دولة الفرس والروم في شؤون الدولة الإسلامية ، لايعود في الواقع إلى رغبة هاتين الدولتين الصادقة للعيش بسلام مع الدولة الإسلامية الناشئة، ولكنه يعود في الحقيقة إلى الأسباب التالية :

١ - عدم تقدير هاتين الدولتين لقوة الدولة الإسلامية الناشئة تقديراً صحيحاً .

٢ - لم تكن حالة الدولة الإسلامية والفوضى التي اعترتها في أثناء عملية الارتداد تشير إلى أن هذه الدولة مؤهلة للقيام بأي عمل عسكري قبل أن تلتقط أنفاسها بعد الحرب الداخلية العنيفة والفوضى التي عصفت بها . وبناء عليه يمكن القول إن توقيت القرار الذي اتخذه أبو بكر كان مفاجأة كاملة لكلتا الدولتين .

٣ - إن انتشار الفساد والظلم وتردي الأوضاع الداخلية في كلتا الدولتين قد ساهم إلى حد بعيد في اتخاذ هذا الموقف من قبل الدولة الإسلامية . فالفرس كانوا يداوون جراح هزيمتهم التي مُنوا بها على يد قوات الإمبراطورية الرومانية، وهذه الأخيرة كانت تعاني من الفوضى وتعدد الولاءات والتنافس على السلطة.

٤ - قوة الإمبراطوريتين العسكرية والاقتصادية والسياسية كانت تفوق بأضعاف مضاعفة قوة الدولة الناشئة في الجزيرة العربية ، ولذلك لم يخطر على بال قادة هاتين الدولتين ، أن تقوم دولة ناشئة وضعيفة اقتصادياً وعسكرياً بعمل تعرُضي في المدى المنظور . وهذا ما يمكن أن نطلق عليه خطأ التقدير في مفهوم القوة واعتباراتها ؛ فكلتا الامبراطوريتين كانتا تعتبران أن موازين القوى تحددها المكونات المادية فقط دون اعتبار للنواحي المعنوية والروحية، ولذلك اعتبرتاها الوحيدة القادرة على حسم أي مواجهة مقبلة ، وبناء عليه فقد كان تقدير موازين القوى تقديراً بعيداً عن حقائق الواقع .

وعلى هذا الأساس فإن قرار أبي بكر بالمبادرة إلى اختراق حدود الدول المجاورة كان قراراً صائباً ويمثل شكلاً من أشكال الحرب الوقائية المبررة ؛ لأن هذه الدول هي التي تمثل الخطر الكامن على الدولة الإسلامية ، والتي ستحاول تدميرها عندما يتاح لها الفرصة المناسبة . كما أن هذه الدول قد تصل بسبب التقاء مصالحها إلى تنسيق عسكري فيما بينها يوجَّه في النهاية لتهديد هذه الدولة . أضف إلى ذلك أن الدولة الإسلامية كانت تمتلك حدوداً طويلة مع هاتين الدولتين ، ودرءاً لأي خطر مستقبلي وتقليصاً لحجمه كان لابد من البدء بشن مثل هذه الحرب الوقائية. يضاف إلى ذلك أن هاتين الدولتين قد سبق لهما أن رفضتا الاستجابة لدعوة الرسول ﷺ للدخول في الدين الإسلامي ، ومن المعتقد إلى حدٍّ كبير بأنهما لن تتسامحا أمام حرية نشر الدعوة بين شعوبهما ، بل على العكس من ذلك فقد تعملان على اتخاذ كلّ الإجراءات المحددة لحرية نشر الدعوة ووصولها إلى أصحابها المعنيين . ومن هنا أخذ مبدأ الحرب الوقائية في الإسلام بُعداً مضافاً لا يعتمد حدوثه على مظاهر الحشد المادي لقوات العدو ، ولكنه يمتد ليصل إلى النوايا العدوانية المبيتة لدى العدو ومحاولة تدميرها والقضاء عليها .

كما تميزت استراتيجية الدولة الإسلامية بكونها استراتيجية ردعية ، والردع كما هو معروف عبارة عن منع الدولة المعادية من اتخاذ قرار باستخدام قواتها للتدخل أو الرد إزاء عمل معين ، وذلك باتخاذ كلّ الإجراءات الكفيلة بتشكيل تهديد جدّي للدولة المعادية يكون كافياً لردعها .

وقد حض الإسلام أتباعه على تبنّي خيار الردع والعمل به ، ومن هذا المنطلق أمر بإعداد القوة في المجتمع الإسلامي إعداداً سليماً لتحقيق ذلك ، ونعني بالإعداد السليم هنا ، إعداد المجتمع الإسلامي إعداداً مادياً ومعنوياً يجعل منه قوة مرهوبة الجانب ، ولذلك خاطب سبحانه المسلمين بقوله : ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم ﴾ .

يتضح من الآية أن هناك تمييزاً واضحاً بين مفهومين للقوة : الأول مفهوم القوة ببعده المعنوي ، والثاني مفهوم القوة ببعده المادي . وإن أي إعداد لا يأخذ بهذين البعدين يكون إعداداً ناقصاً ، فالقوة ورباط الخيل إشارة واضحة إلى القوة ببعدها الشامل الذي يتضمن القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية والحضارية والعلمية والمعنوية في المجتمع ، ومن مفهوم شمولي يتعامل مع القوة بكل معانيها وأبعادها. كما يتضح من الآية الكريمة أن للإعداد هدفاً محدداً هو إرهاب العدو وإلقاء الرعب في نفسه ، وهذا ما ينطبق على مفهوم الردع المعاصر بكل درجاته ومستوياته ، فهو يحقق الردع ضد عدو مباشر وآخر متخفٍ لديه نوايا عدوانية . .

وكما سبق أن بيّنا فإن استراتيجية الدولة الإسلامية هي استراتيجية تعرُضية ، ولذلك فإن أسلوب الردع ليس سوى جانب من جوانب هذه الاستراتيجية ، فإذا حققت استراتيجية الردع الوصول إلى الهدف المنشود فإنها بذلك تكون قد حققت هدف الاستراتيجية . أما إذا لم تحققه فإنها ليست بصالحة ، ولابد من استخدام الأشكال الأخرى . (١٥)

أما عن أهم عناصر الاستراتيجية الإسلامية المتمثلة بكفاية القيادة السياسية فقد ذكر المؤرخون قائمة تضم أسباباً عدة للانتصارات الإسلامية ، وقاموا بتحليلها وترتيبها وفقاً لأهميتها ودورها في تحقيق ذلك . ومن جملة هذه الأسباب : توفر القادة السياسيين المحنكين ، الذين كانوا على دراية واسعة بفنون إدارة الدولة ، ووجود قيادات عسكرية استراتيجية على معرفة تامة بالفن العسكري وإدارة الصراع وخوض المعارك ، لايقلون عن مشاهير قادة العصور القديمة والحديثة في عبقريتهم ونبوغهم العسكري . لقد تخرج هؤلاء الرجال من مدرسة محمد ﷺ أعظم استراتيجي عرفه التاريخ ، فكانوا السياسيين المبدعين والعسكريين الأفذاذ ، لقد علمهم قائدهم الكثير ، ففي غزوة الخندق استخدم الرسول ﷺ الاستراتيجية السياسية في الحرب لأول مرة في تاريخ الدولة الإسلامية ، فكانت هذه الخطوة ، أول تجربة في التاريخ الإسلامي يتم فيها التطبيق العملي لمثل هذه الاستراتيجية

التي حققت أغراضها بنجاح منقطع النظير ، حيث أظهرت مدى تفاعل السياسة مع القوة في تحقيق الهدف الأعلى للدولة .

لقد سبق أن بيّنا أن استخدام القوات المسلحة يتم عندما تفشل الإجراءات السياسية في تحقيق هدف الدولة ، بحيث يصبح استخدام القوة أمراً محتماً إذا كانت القيادة السياسية مصرة على تحقيق أهدافها ؛ حيث تقوم هذه القيادة عن طريق استخدامها للسياسة بتمهيد الطريق لاستعمال العنف عن طريق القوة المسلحة ، فهي تهيىء المسرح ، وتضعف العدو ، وتقلل قوته إلى درجة معينة بحيث تستطيع القوة المسلحة العمل ضده عند أقصى احتمال للنجاح .

وهذا ما فعله الرسول ﷺ تماماً في غزوة الخندق ، حيث استخدم السياسة بأداتها الدبلوماسية لبذر الشقاق في صفوف العدو لإضعافه ، ليس من حيث العدد فقط ، ولكن من حيث الروح المعنوية أيضا . وبالرغم من أن معظم المسلمين لم يستطيعوا أن يدركوا ذلك في حينه إلا أنهم كانوا يتعلمون من قائدهم فن إدارة الصراع بمستواه الاستراتيجي .

ولذلك تخرج أصحاب الرسول ﷺ وهم مؤهلون من مدرستهم النموذجية بكل احتياجاتهم الدينية والدنيوية . وإن المتتبع لمواقف أبي بكر وقراراته الاستراتيجية على الصعيد الاستراتيجي الشامل ، وعلى الصعيد العسكري ، لايملك إلا أن تأخذه الدهشة من كفاءة هذا الرجل وكفاية توجهاته السياسية . فالرسالة التي أرسلها إلى خالد وعياض بن غنم وطلب منهما التوجه لاحتلال الحيرة - سنأتي على ذكر نص الرسالة في مكان لاحق - يلاحظ فيها النظرة العظيمة والثاقبة للقيادة الناجحة ، والمسؤولة في الدولة الإسلامية ، فقد أكدت الرسالة العناصر الرئيسية التالية :

١ - القيادة للأكفاء عسكرياً ، لذلك جعل من أولوية الوصول إلى الحيرة الحكم الأمثل على القيادة الفضلى .

٢ - لقد طلب أبو بكر من خالد وعياض أن تتكون قوة الفتح الإسلامي من الجنود الأكفاء الذين يمتلكون الرغبة الأكيدة في نشر الدعوة ولديهم الاستعداد للشهادة في سبيلها ، ولذلك طلب منهما عودة كل من ليس له رغبة من المقاتلين في التوجه إلى العراق ، وأكد لهما عدم مشاركة المرتدين في عمليات الفتح ؛ لأنه ما دام الهدف بهذا الحجم من الخطورة فلا بد من أن تكون الحاجة تتطلب رجالاً من هذا الحجم تمسكاً بدينهم وإخلاصاً لعقيدتهم .

إذاً فإن الكفاءة كانت عنصراً أساسياً من العناصر التي ركزت عليها الشريعة الإسلامية ، ليس على مستوى القيادة فحسب ، بل وعلى مستويات أدنى من ذلك كما يتضح من رسالة الخليفة .

وعلى الرغم من أنه لم يُعرف عن أبي بكر قيادته للجيوش وخوضه للمعارك إلا أنه أظهر في إدارته للدولة الإسلامية أنه رجل استراتيجي بالفطرة ، ولذلك كانت قراراته وتصوراته وخططه على درجة عالية من الصواب ، لاتصدر إلا عن رجل كفؤ . ومن هنا يُعزا للقيادة السياسية في الدولة الإسلامية معظم النجاحات التي حققتها القوات الإسلامية في مسارح عمليات بلاد الشام والعراق .

٣ - الحرب وتنظيم الجيوش عند العرب والمسلمين :

لقد سبق أن بيّنا أنه يقع على عاتق القيادة السياسية للدولة العمل على تحقيق التوازن بين أهدافها ومكونات قوتها السياسية والعسكرية والاقتصادية والمعنوية المتاحة حتى تتمكن من تحقيق أهدافها . وتعتبر القوات المسلحة أهم عناصر القوة في أي نزاع مسلح ، ذلك لكونها الاداة الرئيسية القادرة على حسمه .

وعندما ذكرنا أن استراتيجية الدولة الإسلامية ، هي استراتيجية تعرُّضية ، كنا نعني أن على هذه الدولة أن تجند من عناصر القوة ما يكون كافياً للطبيعة التعرضية

لاستراتيجيتها ؛ لأننا نعرف أن أي استراتيجية إما أن تكون استراتيجية تعرّضية هجومية ، وإما أن تكون استراتيجية دفاعية ، وما يقع بين هذين الشكلين من أشكال أخرى . ومعلوم عسكرياً أن الاستراتيجية الهجومية بحاجة إلى موارد إضافية أكثر من تلك المخصصة لاستراتيجية دفاعية .

إن الموارد الكثيرة لا يجسّدها في العادة كَمُّها العددي فقط ، بل عادة ما يكون للكيف العددي دور رئيسي فيها ، والأمثلة على ذلك لاتحصر ، ففي حرب فيتنام تغلّب الإيمان بالعقيدة ، والتضحية من أجل الوطن والكرامة ، على الكم العددي في السلاح والمقاتلين . كما أن إسرائيل لا تتفوق عددياً على دول المواجهة العربية ، لامن حيث السلاح ولا من حيث عدد المقاتلين ، ومع ذلك هزمتهم في كل المعارك التي خاضتها ضدهم . وفي معركة (ذي قار) في التاريخ القديم ، تغلّب عدد من المقاتلين على جيوش إمبراطورية عظيمة . كل هذه الأمثلة تؤكد أن الكم العددي على أهميته ليس العنصر الوحيد الحاسم في الصراع .

إذن فليس من الغريب أو المستغرب أن تعتمد الدولة الإسلامية على جيش من المقاتلين الذين لا حدود لإيمانهم بعقيدتهم ، ويملكون الاستعداد والرغبة للتضحية في سبيلها حتى ولو وقفت في وجههم كل قوى الشرك في العالم . ولذلك انطلقوا بأعدادهم القليلة لسحق جيوش أكبر إمبراطورية في ذلك الزمن ، وعملوا على بناء دولتهم الإسلامية على أنقاضهما .

لم يحقق هذا الجيش انتصاراته ، ولم يحالفه النجاح ، إلا لأنه كان يستحق ذلك كله ؛ فقد تميز هذا الجيش بمواصفات كثيرة ، افتقدتها جيوش أعدائه ، لذلك لم يكن مستغرباً قهره لها في ميادين القتال وسحقه لأعدادها الهائلة ، فقد كان هذا الجيش ينفرد بمواصفات نادرة بين الجيوش ، أهمها :

١ - *البناء العقائدي* :

لقد آمن أفراد الجيش الإسلامي بعقيدتهم إيماناً مطلقاً ، وشعروا بحجم المسؤولية الملقاة على عاتقهم ، فانطلقوا يقاتلون بدوافع دينية ودنيوية عالية التأثير ، فقد آمنوا بأن هذا القتال هو السبيل لخيرهم وخير الإنسانية جمعاء ، وأن عليهم أن يخوضوه من أجل خدمة الإنسانية التي انتدبهم رب العالمين لخدمتها .

٢ - *الرغبة في الجهاد* :

إن فريضة الجهاد التي فرضها الله على المسلمين جعلت منهم جيشاً من المتطوعين الذين لا هَمَّ لهم سوى رضوان الله وإعلاء كلمته في الأرض ، مما خلق لدى الجندي المسلم رغبة هائلة للقتال وحوافز عظيمة للاستشهاد، حيث لا يُدفع هذا الجندي إلى الجهاد مكرهاً أو مجبراً من أحد كغيره من مقاتلي الأمم الأخرى ، بل يندفع بمحض إرادته ورغبته في الوصول إلى هدفه . وهذا ما جعل من الجيش المسلم جيشاً نادراً من المتطوعين الأشداء ، وليس من المرتزقة التي تنطوي تحت ألوية الجيوش لتحقيق المنافع المادية والآنية الرخيصة ، فإذا لم يتحقق ذلك تركت هذا السبيل إلى غيره .

٣ - *جيش الشعب*:

لقد كان التلاحم بين هذا الجيش وقاعدته الشعبية المسلمة كأفضل ما يكون التلاحم ، مما جعل لهذا الجيش رافداً لا ينضب من المقاتلين وأدوات القتال ، مكّنه من القيام بواجباته الملقاة على عاتقه خير قيام . فقد ذكر كثير من المؤرخين أن غزوات كثيرة قد تم تمويلها من قبل بعض المسلمين كعثمان بن عفان وغيره . إضافة إلى هذا ، فإن الجندي المسلم كان مسؤولاً عن تجهيز نفسه تجهيزاً عسكرياً كاملاً ، بحيث كان يقوم بذلك عن قناعة تامة وإيمان راسخ .

٤ - ***التنظيم القيادي*** :

تميز التنظيم القيادي لهذا الجيش ببعض الميزات التي منعته من الوقوع في أمراض الجيوش الأخرى كالأرستقراطية والفساد وغيرها . فالقيادة كانت عبارة عن منصب ، وهي تسند لمهمة واحدة فقط ، ينتهي دور صاحبها بإنجاز المهمة ، ولذلك فإن القائد قد يكون قائداً في هذه المعركة ، وجندياً مقاتلاً تحت إمرة قيادة أخرى في معركة ثانية . كما تميز هذا الجيش بعدم وجود نظامٍ للرتب بين أفراده ولذلك كان الجميع متساوين في الحقوق والواجبات .

٥ - ***الالتزام الخلقي والديني*** :

لقد كان أفراد الجيش الإسلامي جماعة من الملتزمين إلى حدّ الصرامة بجميع القوانين والتشريعات التي نصّت عليها شريعتهم ، وهذا ما أكسبهم سمعة طيبة بين الشعوب التي حاربوها ، سهلت عليهم الكثير من المهام ، ومنحتهم ثقة واحترام الآخرين ، ولم يُذكر عن هذا الجيش أنه قام بأي عمليات نهب أو سرقة أو سفك دماء كغيره من الجيوش ، وقصة الجزية التي دفعها أهل حمص لأبي عبيدة وغيرها من القصص تجسد مستوى الالتزام الخلقي والديني لهذا الجيش .

هذه هي أهم مواصفات الجيش الذي طبقت سمعته الآفاق ، وشيد في زمن قياسي أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ الإنساني ، ترجمت قولاً وعملاً قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمّة أخرجت للناس﴾. هذا هو الجيش الإسلامي الذي ما عرف تاريخ الأمم له مثيلاً في العهود الغابرة ، هذا الجيش الذي أتقن الحرب كما أتقن السلام والمحبة والعدالة للبشرية جمعاء . ولأنه كان كل ذلك فما زال بعض المؤرخين الحاقدين يستعظمون على العرب هزيمتهم لإمبراطوريتي الفرس والروم، ويدّعون أن هذا الانتصار ما كان ليحدث لولا المصادفة أو الحظ الذي لايقبل التكرار . كما عزا بعضهم الآخر هذه الانتصارات إلى الضعف والانحلال الذي أصاب الإمبراطوريتين ، والبعض الآخر عزا هذه الانتصارات إلى الإيمان الشديد

بالعقيدة الإسلامية . واحتراماً لتفكير الآخرين وخدمة للحقيقة فإننا سنحاول فحص هذه الادعاءات بصورة واقعية .

أمّا القول بالحظ أو المصادفة كسبب لهذه الانتصارات وظهور الدولة الإسلامية على أعدائها فهو مقولة واهية لا تستند إلى العقل والمنطق ، كما أن تاريخ الإنسانية لم يسجل عن دولة ظهرت وامتدت بفعل الحظ ، فالمصادفة لا تتكرر في سلسلة متصلة من المعارك الحاسمة تطيح بدول وتؤدي لظهور دول أخرى .

وأما عن عجز ووهن الدولتين الرومانية ، والفارسية فقد يكون لذلك شيء من الصحة حيث إن ضعف أي دولة يجعلها فريسة سهلة لأعدائها . كما أنه من المسلم به أن العقيدة لها آثار حاسمة في الكثير من المواجهات إلا أنها ليست كافية وحدها لتحقيق النصر ، وأكبر دليل على ذلك هزيمة المسلمين في معركة أُحد وحنين في عهد الرسول ﷺ ، كما فشل المسلمون في بعض المواجهات الفرعية مع دولة الروم أيضا .

إن الحقيقة التي يجب أن يحترمها المؤرخون على اختلاف جنسياتهم والتي لامراء فيها مهما حاولوا تجاهلها أو القفز عنها لأسباب عنصرية ودينية ، أن الانتصارات الإسلامية قد تحققت بفعل العوامل الرئيسية التالية :

١ – العقيدة الراسخة .

٢ – القيادة الفذة على مختلف الصعد السياسية والعسكرية .

٣ – شجاعة المقاتلين المسلمين وإتقانهم لفنون الحرب والقتال المختلفة .

ولأن الجانب العسكري هو الجانب المهم في تحليلنا هذا ، ولكون العنصرين الأول والثاني من العناصر التي لا تحتاج إلى البرهان والدليل ، فإننا سنركز على العنصر الثالث لأنه العنصر الذي ثار حوله الجدل ، وركز عليه المؤرخون من غير العرب ، وتساءلوا : كيف للعرب الذين عاشوا في الصحراء القاحلة كقبائل

رحل متناحرة أن يتقنوا فن القتال والتخطيط للمعارك ويخوضوا حرب الجيوش النظامية الكبيرة وينتصروا فيها ؟ ولدحض هذه المزاعم ، وهذا السؤال الاستنكاري نقول : صحيح أن الصورة الأكثر شيوعاً عن القبائل العربية وحروبها لم تكن أكثر من حروب تأخذ أشكال حرب العصابات التي يغلب عليها عمليات الكر والفر ، ولا يحكمها نظام ولا تنتج عن خطة مرسومة ، وليس فيها من الدروس العسكرية ما يمكن أن يستفيد منه أي متعلم لفنون القتال .

إلا أن هذه الصورة عن طبيعة الحروب في الصحراء العربية تبدو مغلوطة ومشوشة إلى حد كبير ، وهي ليست صحيحة ولا تعكس الوجه الحقيقي للفن العسكري عند العرب . وقد ساهمت عوامل كثيرة في رسم هذه الصورة ، كان من أهمها عدم قيام أصحاب الاختصاص بالتركيز على موضوع الفن العسكري عند العرب قبل الإسلام ، وظل التركيز منصباً على النواحي الأدبية وبعض الأمور الأخرى ، مما جعل هذا الموضوع عرضة للتشويه ، ولذلك لم نسمع عن الحروب العربية قبل الإسلام إلا عن معركة (ذي قار) ، وبعض المعارك التي كانت تدور رحاها بين القبائل العربية ، ويعزا السبب في ذلك إلى ضمور التفكير عند الكثير من المثقفين العرب الذين كانوا يركزون على أسباب الحروب بين القبائل دون التركيز على أسلوب القتال أو الفن العسكري عند هذه القبائل .

فالجميع يعرف أن العرب كانوا يربون أبناءهم على الفروسية وركوب الخيل واستعمال وسائل القتال المختلفة ، فيخرج منهم الفرسان والمقاتلون الأشدّاء . ومع أن معظم القتال بين القبائل العربية قد اتخذ شكل حرب العصابات ، إلا أن هذاالشكل من الحرب لابد له من خطة متقنة كما يعرف العسكريون جميعاً ، وله ميزاته التي يمتاز بها عن غيره من أشكال الحروب الأخرى ، مثل : المفاجأة ، والسرعة في الانقضاض ، وتنظيم القوات ، والتوقيت المناسب وغيرها ، وهذه الميزات كلها من فنون الحرب الرئيسية .

أضف إلى ذلك أن العرب لم يكونوا أمّة معزولة عن غيرها من الأمم ، فقد كان لهم اتصالهم بالدول المجاورة وتعاملهم مع شعوبها ، ولابد أنهم اطلعوا على فنون القتال وتنظيم الجيوش لدى هذه الدول أو الشعوب . فقد كان الغساسنة والمناذرة على سبيل المثال ، يقاتلون جنباً إلى جنب مع جيوش الفرس والروم ولا شك أنهم أخذوا عنهم الكثير من التقاليد العسكرية المختلفة وهذا ما أكدته معركة ذي قار قبل الإسلام ، حيث تغلب فيها العرب على جيوش الدولة الفارسية . وقد أثبتت تلك المعركة أن العرب هم الأبرع في قيادة الجند والأخبر بفنون الزحف والتعبئة من قادة الجيوش الأجنبية ، وقد قاموا بتنظيم قواتهم إلى ميمنة وميسرة وقلب ، ورفعوا معنويات جندهم قبل القتال ، كما استخدموا الحيلة وأساليب الحرب النفسية في تلك المعركة . (١٦)

ومن ذلك يتضح أن العرب لم يكونوا على جهل أو عدم دراية بفنون الحرب والقتال ، بل العكس يكاد أن يكون صحيحاً ، فقد اكتسب العرب خبرتهم في قتال الصحراء ومناورات الإغارة ومزجوها بما اكتسبوه من فنون الحرب النظامية نتيجة لاتصالهم بغيرهم من الدول الأخرى ، فتسنّى لهم أن يجمعوا سرعة الحركة والمفاجأة التي أتقنوها في حروب الصحراء إلى حرب الجيوش النظامية وخططها وإدارتها ، فأصبح لديهم خبرات متراكمة في مجال الحرب والقتال بمختلف أشكاله وفنونه ، وهذا ما سوف نلاحظه عند استعراضنا لحروب خالد واستراتيجيته العسكرية.

عندما جاء الإسلام استطاع الرسول ﷺ أن يصقل هذه الخبرات ويطورها ويضيف إليها ، وبذلك أوجد نواة الجيش الذي ضرب في مشارق الأرض ومغاربها، ولم ينتقل عليه السلام إلى جوار ربه إلا وقد أَلَمَّ هذا الجيش بمباديء الحرب وفنون القتال مما مكّن الخلفاء من بعده الانطلاق بالعقيدة إلى آفاقها الرحبة. لذلك فإن الادعاء بالمصادفة أو الحظ اللذين صادفهما العرب في حروبهم هو ادعاء باطل لا يرتكز على حقيقة أو منطق ، اللهم إلا ارتكازه على الكذب للانتقاص من

قدرة هذه الأمّة على الإبداع في جميع مجالات الحياة . وليست الناحية العسكرية هي وحدها التي ادعى دعاة الحضارة الغربية أن العرب غير قادرين على إتقانها ، بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك في محاولة رخيصة لتشويه كل المعالم الحضارية والإنسانية لهذه الأمة .

فالجيوش الإسلامية لم تنتصر نتيجة لضعف دولة الفرس والروم فقط ، بل لأنها تمتلك جميع المقومات العسكرية اللازمة للنصر ، وعلى رأسها إيمانها الراسخ بعقيدتها الإسلامية ، ورسالتها الإنسانية التي حملت مسؤولية نشرها بين أمم الأرض.

لقد انتصر المسلمون في حروبهم لأنهم يستحقون الانتصار . ومهما هرب المؤرخون من الحقيقة المؤلمة ، فلا بد لهم من الرجوع إليها يوماً لإعطاء الانتصارات الإسلامية حقها ، وفهم حقيقة الهزيمة الفارسية والرومانية ، وحقيقة بناء الدولة الإسلامية ، وقيامها كقوة عالمية مقتدرة في ذلك العصر .

إن الحروب الإسلامية والفتوحات التي تمت ، لم تتم في العراق وبلاد الشام فقط ، ولم يواجه المسلمون الروم والفرس فحسب ، بل انطلقوا إلى الهند والصين وشمال إفريقيا وأوروبا وجنوب شرق آسيا واستطاعوا أن يقاتلوا شعوبها وينتصروا عليها ، فهل كانت جميع هذه الأمم والشعوب ضعيفة ؟ أو أن العسكرية الإسلامية وقادتها كانوا متميزين على غيرهم ؟

إن أقوال بعض الباحثين والمؤرخين بحاجة إلى إعادة نظر شاملة من حيث نظرتها إلى الفتوحات الإسلامية ، وأسباب انتصار المسلمين على غيرهم من الشعوب والأمم ، فالعودة إلى الحق خير من التمادي في الباطل .

أما عن تقاليد الجيش الذي هزّ أركان أعظم إمبراطوريتين في ذلك الزمان وتنظيمه وتسليحه والإدارة التي كان يعتمد عليها ، فإننا نستطيع القول بأن هذا الجيش الذي شغل العالم بفتوحاته في صدر الدعوة والمراحل التي تلتها كان جيشاً

عادياً للغاية في تنظيمه وزيه العسكري ، ولكنه كان جيشاً استثنائياً في مدى إيمانه بعقيدته والتضحية في سبيلها . وعلى ما يبدو فإنه لم يكن هناك اهتمام من قبل القيادات الإسلامية ببعض المظاهر العسكرية ، وكان اهتمامها منصبّاً علىالجوهر من خلال التركيز على البناء العقائدي والنفسي والمعنوي للقوات المسلحة .

فقد كان جنود هذا الجيش لايرتدون زياً موحداً خصوصاً في المراحل الأولى من الفتوحات ، ولذلك لم يكن هناك ما يميزهم عن غيرهم من أفراد المجتمع ، كما في حالة الجيوش المعاصرة ، أو جيوش الفرس والروم التي كانت موجودة في تلك الفترة . وبناء عليه فلم تكن ملابس الجنود المسلمين متشابهة ، وبإمكان الجندي المسلم أن يرتدي من اللباس الزي الذي يناسبه .

كما أن هذا الجيش كان ينفرد بميزات خاصة تميزه عن الجيوش الحديثة ، حيث لم يكن هناك تسلسل قيادي كما هي حالة جيوش اليوم ، فالقيادة كانت تسند من قبل الخليفة لأي شخص مؤهل لذلك . ولهذا لم يكن هناك ترقيات أو رتب في الجيش الإسلامي، وهذا النمط من القيادة والتنظيم يمثل نمطاً فريداً بين الجيوش قاطبة .

وقد كان الانتساب لهذا الجيش مفتوحاً للجميع بغض النظر عن اللون أو العشيرة، واعتبر هذا الانتساب بمثابة الشرف الذي يسعى إليه كل مسلم . وكانت هذه القاعدة تشمل الجنود والقادة ، فأيُّ جندي قد يتحول إلى موقع قيادي ، فالمواقع القيادية في الجيش الإسلامي ليست مواقعَ ثابتة ، بمعنى أن القيادة ليست دائمة ، وهي لقيادة معركة واحدة فقط ، وقد تسند القيادة في المعركة اللاحقة لقيادة أخرى ، وعند انتهاء المعركة يعود القائد إلى موقعه كجندي من جنود الجيش الإسلامي .

أما عن تجميع القوات الإسلامية ، وتنظيمها فقد أوجدت القيادات الإسلامية تنظيماً متسلسلاً يشبه تنظيم جيوش اليوم ، فكان لكل عشرة أفراد قائد ، ولكل مائة قائد ، ولكل ألف قائد ، وهذا التنظيم قد أوجده الرسول ﷺ عندما كان في المدينة وقد كان تجميع هذا العدد يأخذ الصفة القبلية أو العشائرية ؛ فعندما كانت القيادات

الإسلامية تقسم جيوشها إلى ميمنة وميسرة وقلب في المعارك ، كان تنظيمها على أساس قبلي، وذلك لأسباب كثيرة أهمها أن الدفاع عن شرف القبيلة كان لايزال يأخذ حيزاً واسعاً لدى المقاتلين المسلمين .

إلا أن هذا التنظيم لم يكن شيئاً ثابتاً عند القوات الإسلامية ، بل كانت هناك إمكانية مستمرة لتغييره وفق مقتضيات المعركة وما يتطلبه الموقف الراهن ، فكان هناك الكراديس وكان هناك الميمنة والميسرة والقلب التي كانت تشكل من عدة كراديس .

أما عن التسليح ، فقد كان الجيش الإسلامي مسلحاً بكل الأسلحة التي كانت معروفة في ذلك الزمان ، وكانت عبارة عن السيف ، والرمح ، والقوس ، والخنجر، والمزراق ، والنبل وغيرها ، أما وسائل القتال فكانت الخيل والجمال ، ولم يعرف العرب الفيلة أو استخدموها قبل حروبهم مع الفرس والروم ، وعندما ظهرت لأول مرة في أرض المعركة شكلت مفاجأة لقوات الجيش الإسلامي بحيث وجدت القوات الإسلامية صعوبة في التعامل معها في بداية الأمر .

أما بالنسبة للتخصص في التسليح فلم يكن هناك موازنات دفاع تقوم الدولة من خلالها بشراء الأسلحة وتوزيعها على المقاتلين ، فقد كان يقع على عاتق المقاتل أن يقوم بتأمين السلاح المناسب لنفسه ، حيث لم تكن هناك مقاييس محددة للتسليح . وعادة ما كان المقاتلون يؤمنون أسلحتهم عن طريق شرائها من أموالهم الخاصة ، أو من أسلحة أعدائهم الذين يسقطون في أرض المعركة ، أو من الغنائم التي يحصلون عليها من أعدائهم .

ونتيجة لتشابه الأسلحة وسهولة استخدامها من قبل المقاتلين فقد كان الجميع يستخدمون الأسلحة نفسها ، ولم يكن هناك أي تخصص من قبل المقاتلين في صنوف الأسلحة المختلفة كما هو الحال في الجيوش المعاصرة ، حيث نجد تخصصات مختلفة في الدروع والمدفعية وسلاح الجو والبحرية بحيث لا يستطيع

الجندي المختص في المدفعية أن يعمل في اختصاص الدروع على سبيل المثال . ولذلك تميزت الجيوش المقاتلة في الزمن الماضي بسهولة إدارتها وسهولة تنسيق حركاتها المختلفة ، بينما تعقدت في العصر الحاضر عمليات التنسيق بين هذه الجيوش .

لقد اقتصرت صنوف الأسلحة في الجيش الإسلامي على المشاة والخيالة الذين كانوا يستخدمون الخيل في المعارك ، وكان الخيالة في الماضي يشبهون سلاح الدروع في الوقت الحاضر . ونتيجةً لذلك نجد الكثير من الدول ما زالت تطلق على قواتها المدرعة اسم سلاح الخيالة وذلك لسرعة حركتها في ميدان المعركة ومرونتها العالية .

أما عن الدعم اللوجستي والإداري فقد تميّز الجيش الإسلامي بعدم وجود نقاط تموين وإسناد على خطوط حركته ؛ وذلك لعدم وجود عمليات تخزين ، أو لعدم الحاجة لإقامة مثل هذه النقاط ، والاكتفاء بنقل ما يحتاجونه من مواد غذائية وماء على ظهور الخيل والإبل ؛ ولذلك تميزت القوات الإسلامية بميزة جيدة ، وهي عدم إمكان عزلها عن أماكن تموينها من قبل العدو ، وهذه ميزة هامة ، مازالت تشكل لجيوش اليوم معضلات رئيسية ، ولأهميتها في العمليات العسكرية يقول نابليون : "الجيوش تزحف على بطونها" وذلك كدلالة على أهمية الدعم الإداري للقوات المحاربة .

ولأن هذا الجيش كان يتكون من المشاة والخيالة فإنه كان يمتلك قدرة عالية على الحركة ، حيث لم يكن بحاجة في عمليات تنقله إلى الطرق الممهدة ، ولا تستطيع المعالم الطبيعية المختلفة أن تحد من قدراته على الحركة . ولذلك كان يمتلك درجة عالية من المرونة التي تجعله قادراً على التقدم على محاور متعددة في أي عملية عسكرية ، كما تجعله قادراً على تنفيذ واجباته وتحقيق أهدافه بسرعة عالية .

أما عن تشكيلات الجيش في المعركة في ذلك الوقت ؛ فقد كان يتشكل هذا الجيش بتشكيلات المعركة وهي الميمنة والميسرة والقلب ، وكانت هذه التشكيلات مكونة من كراديس أو صفوف ، وكانت الخيالة تستخدم لإسناد ودعم قوات المشاة ، ومحاولة الاشتباك مع خيالة العدو أو مطاردة فلوله . وقد استطاع خالد أن يضيف إلى التشكيل السابق قوات احتياطية تكون بإمرته عند الحاجة ، ولذلك تطور التشكيل إلى ميمنة وميسرة وقلب واحتياط .

أما عمليات التقدم فقد ماثلت قوات المسلمين في تشكيلاتها أثناء التقدم التشكيلات المعتمدة في الوقت الراهن . فأثناء الحركة كان خالد بن الوليد يرسل أمام الجيش بعض المفارز بمثابة حرس مقدمة ، واجبها استطلاع قوات العدو وحماية الجسم الرئيسي من الوقوع في كمين . بعد حرس المقدمة يأتي تشكيل الجسم الرئيسي للقوات المتحركة الذي يسير خلف حرس المقدمة ، ثم يتحرك بعد الجسم الرئيسي المواد والمتاع والنساء والأطفال إنْ وجدوا ، وفي نهاية التشكيل يأتي حرس المؤخرة (١٧).

هذا الجيش الذي كان يتحرك على شكل قافلة ، ولا يلبس الزي الموحد ، يعطي انطباعاً لمن يشاهده بأنه ليس بأكثر من حشد من الرجال غير المدربين ، بينما كان واقعاً وحقيقة من خيرة جيوش العالم في ذلك الزمان ، وإلا لما تصدى لأعظم الإمبراطوريات وهزيمتها في عقر دارها وأصبح مثار إعجاب العالم بأسره .

الهوامش

١ - نشرة الاستراتيجية - كلية القيادة والأركان الأردنية .

٢ - أمين هويدي ، في السياسة والأمن ، معهد الإنماء العربي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٢٦٠ .

٣ - محمد فاروق الهيثمي ، في الاستراتيجية الاسرائيلية ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٣٠ .

٤ - محمود عزمي ، دراسات في الاستراتيجية الإسرائيلية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٩ .

٥ - الزعيم الركن يوسف كعوش ، من أعلام تاريخنا العسكري ، مطبعة القوات المسلحة الأردنية ، الطبعة الثانية ، عمان ١٩٧٢ ، ص ١٢ .

٦ - سورة سبأ ، آية ٢٨ .

٧ - سورة المدثر ، آية ١ و ٢ .

٨ - سورة الأعراف ، آية ١٥٨ .

٩ - حديث شريف .

١٠ - سورة التوبة ، آية ٣٦ .

١١ - حديث شريف .

١٢ - سورة الحجرات ، الآية ١٥ .

١٣ - سورة آل عمران ، الآية ١١٠ .

١٤ - أكرم ، مرجع سابق ، ص ١٥٩ .

١٥ - بهاء الدين محمد أسعد ، وجمال يوسف الخلفات ، العسكرية الإسلامية وقادتها العظام، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى ، الزرقاء ١٩٨١ ، ص ٨٦ .

١٦ - العقاد ، مرجع سابق ، ص ٤٤٧ .

١٧ - أكرم ، مرجع سابق ، ص ٣٦٤ .

الفصـــل الثاني :

خالد بن الوليد والطريق

إلى اليرموك

١ – خالد بن الوليد .

أ – مولده ونشأته

ب – شخصيته .

٢ – الطريق إلى اليرموك .

٣ – مباديء الحرب عند خالد .

٤ – إستراتيجية خالد العسكرية .

٥ – الإدارة عند خالد .

مُقَدِّمَة

إن ميزان الرجال هو تـاريخهم ، وإن وزن الرجـال لايقـاس بثقـل أجسـامهم ولا بمحاسن أشكالهم ، وإنما يقاس الرجال بإنجازاتهم وتاريخهم .

وتأسيسا على ذلك فإن خالد بن الوليد هو أحد الرجال الذيـن دخلـوا التـاريخ مـن أوسع أبوابه ، وحفر اسمه عميقا في ذاكرته . وقد دخل خـالد هـذا التـاريخ بـالفعل العظيم والعبقرية الفذّة ، ولم يدخله كأحد أبناء أساطين المال في عصـره ، أو كـأحد أبناء عشيرة قوية ذات نسب معلى بين عشائر العرب .

إن دخـول التـاريخ ليسـت مسـألة اجتهاديـة أو قضيـة اعتياديـة ، بـل هـي مسـألة محظورة على غير العظماء من الرجال ، فـلا يمكـن لأحـد أن يحظـى بشـرف هـذا الموقع عن طريق الوراثة أو المال ، إذا لم تكن أعماله تتميز بالاستثناء الإنسـاني ، وتنطوي على مضامين ومواصفات مضافة تميزه عن غيره من أبناء زمانه ، ومـن هنا يبدأ دور أي رجل يأخذ معانيه الحقيقية ورسم موقعه في التاريخ .

وتأسيساً على ما ذكر ، فإن خالد بن الوليد يعتبر من أكثر الرجال الذين دخلوا التاريخ رسما لمعالم تاريخ أمتهم ، وصياغة لمفرداته فهو من طراز التاريخيين الذين يزداد تمسكهم بمبادئهم وعقائدهم كلما تم إضافة ثقل إضافي جديد على إرادتهم ، ولذلك سجل هذا الرجل صفحات من تاريخ أمة تتمنى أمم الأرض جميعا أن تسجل إلى جانبه .

إن دراسة حياة خالد بن الوليد وأفعاله ليست في الحقيقة دراسة لحياة إنسان فحسب ، بل هي دراسة لحالة غير مسبوقة على الصعيد الخاص ، وقراءة لتاريخ أمة ودورها في سياق حركة التاريخ الإنساني على الصعيد العام ، فخالد من وجهة نظر عسكرية من ألمع القادة العسكريين وكان لنبوغه العسكري أثرٌ إيجابيٌ على دور أمته ورسالتها العظيمة .

إذن فلا غرو والحالة هذه ونحن نتتبع سيرة هذا الرجل العظيم وجليل أفعاله أن نقول : إننا نتتبع دوراً إنسانياً مميزاً لرجل حمل رسالة إنسانية عظيمة ليطرحها على من قابلهم أو حاربهم من الشعوب ، محدثا في صفوفهم ثورة اجتماعية قلبت الكثير من موازين حياتهم السياسية والاقتصادية والعسكرية والمعنوية .

ولذلك لانبالغ إذا قلنا إن الرجل كان صاحب دور إنساني ، بل وصاحب أول دور فهو أول رجل مسلم أُرسل خارج الجزيرة لطرح رسالة أمته على أعظم إمبراطوريتين عرفهما ذلك الزمان ، طرحهما بالمفهوم الشامل لمعاني الطرح والتبليغ . فقد كان يحمل رسالة السلام في يد ، وسيف القوة باليد الأخرى ، وكانت أولويات الاستخدام معروفة لديه ومحددة بصورة تامة .

من هذه الحقيقة يتبين أن حروب خالد كغيرها من حروب المسلمين لم تكن حروب توسع وسيطرة ، أو حروب هيمنة وابتزاز ، بل كانت على عكس كل حروب الدنيا تحمل في ثناياها الخير كل الخير لأبناء الإنسانية جمعاء . كانت تحمل في ثناياها إخراج الناس من ظلمات الشر إلى نور الهداية ، ومن عبادة البشر إلى

عبادة رب البشر . إلا أن تاريخ هذا الرجل قد انفرد عن تاريخ الرجال الآخرين بتميز معانيه في ميادين فعل الإرادة باتجاه طريقهاالمرسوم ومقاومة القوى المضادة لهذه الإرادة .

هذا هو الرجل الذي سنتتبع تاريخ حياته منذ مولده ونشأته إلى أن انتقل إلى جوار ربه مستعرضين جوانب حياته العسكرية وأهم معاركه وآثارها على تاريخ أمته والإنسانية جمعاء .

١ - خالد بن الوليد

أ - مولده ونشأته

هو خالد بن الوليد بن المغيرة من بني مخزوم أحد بطون قريش ، نشأ في أعرق بيوت بني مخزوم وأعلاها شرفا وأكثرها غنى ، وهو أحد سبعة إخوة من الذكور ، وقيل عشرة ، وقيل ثلاثة عشر بين ذكور وإناث . وقد كان في نسبه رئيساً ابن رئيس لا تعلو على مكانته ونسبه مكانة في الجاهلية .

أبوه الوليد بن المغيرة الرجل الذي ذاع صيته بين العرب حتى لقب في الجاهلية "بالوحيد" لشدة كرمه فقد روي أن قريشاً كلها كانت تكسو الكعبة سنة ، ويكسوها الوليد وحده في السنة الأخرى . وكان من الزعماء المرموقين وذوي الشأن في الجاهلية ، فقد كان له من رجاحة العقل ما جعله مميزاً على غيره من زعماء القبائل القرشية ، كان يأبى على نفسه في الجاهلية أن يراه أحد وهو في حالة سكر رغم إباحة الخمر في تلك الأيام ، وكان فقيهاً في معاني الكلام ، ومن أحفظ الناس للشعر. وقد قال بعد سماعه للرسول ﷺ وهو يقرأ القرآن : "والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه " فقالت قريش بعد أن سمعته : صبأ والله الوليد . وعندما سألوه رأيه في تفسير بلاغة القرآن ، فكر ثم قال : "ما هو إلا سحر يؤثر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه" .

وفي هذه المناسبة أنزل الله :﴿إنه فكر وقدر ۞ فقتل كيف قدر ۞ ثم قتل كيف قدر ۞ ثم نظر ۞ ثم عبس وبسر ۞ فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ .

أشتهر الوليد بأنه أغنى بني زمانه ، ومن أصحاب الحيلة والإقدام ، وصاحب الكلمة في قومه . وكان تاجراً يرسل قوافل التجارة إلى البلدان المجاورة ، وقد رافق خالد هذه القوافل أكثر من مرة إلى سوريا ، وزار المدن التجارية الكبرى في ذلك الإقليم ، وهناك كان يقابل أجناساً كثيرة من العرب والأقباط والفرس والرومان.

كان الوليد رجلا متكبراً في كل شيء ، كريما إلى حد الإسراف ، حتى بلغ به الأمر أنه كان ينهى أن توقد نار غير ناره في منى لإطعام الحجيج ، وكان معتزاً بنفسه إلى حد التطرف ، ولذلك عندما قاد المعارضة مع أبي سفيان ضد النبي ﷺ لم يُسِء التصرف أو يستخدم الشتم ، بل كان رد فعله الأولي على نبوة محمد ﷺ أنه قال بانفعال : "لماذا تنزل النبوة على محمد ، ولم تنزل علي ، أنا أكبر رجل في قريش منزلة وسنا ، وكذلك يوجد أبو مسعود زعيم قبيلة ثقيف ، وبالتأكيد هو وأنا ، أعظم رجلين في المدينتين " .

وطبقاً لرواية ابن هشام ، فإن الآية القرآنية : ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم﴾ قد نزلت بشأن ما قاله الوليد .

أما جدُ خالد فهو المغيرة بن عبدالله ، الذي كان الرجال من بني مخزوم يؤثرون الانتساب إليه ليطلق على أحدهم لقب "المغيري" تشرفا بالمغيرة . أما عمه هشام بن المغيرة الفارس الشجاع وقائد بني مخزوم في أشهر معاركها ، والذي حين توفي أصبحت قريش تؤرخ بوفاته كما يُؤرَّخ حديثا بالأحداث العظام . وعمه الآخر كان الفاكهة بن المغيرة الذي قيل عنه بأنه كان من أكرم العرب في زمانه حتى ذكر المؤرخون أنه كان له بيت للضيافة يأوي إليه كل محتاج دون أن يستأذن من أحد .

وعمه الآخر هو أبو حذيفة أحد الرجال الأربعة الذين أخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود إلى موضعه من الكعبة كما أشار عليهم النبي عليه السلام قبل الدعوة .

أما بنو مخزوم فقد كانوا من أقوى بطون قريش وأكثرهم ثروة وعدة وبأساً ، ولذلك كان لهم أمر القبة والأعنة عندما وزعت قريش المفاخر على بطونها ، والقبة خيمة كان العرب يضربونها ليجمعوا فيها عدة القتال استعداداً للحرب ، وأما الأعنة فكانت الخيل وفرسانها وقيادة الحروب . وهكذا كان بنومخزوم مسؤولين عن شؤون الحرب وإعداد وتجهيز الحملات العسكرية وقيادتها ، ولذلك لا عجب في أن نرى ظهوراً متميزاً لبعض القيادات العسكرية في هذه القبيلة ، فقد ظهر قبل خالد عمه هشام بن المغيرة الذي كان واحداً من أشهر قادة الحروب في الجاهلية وأكثرهم شجاعة وحنكة .

ونتيجة لذلك الموقع المتميز بين القبائل كانت هذه القبيلة من أكثر قبائل قريش تمسكاً بأسباب المحافظة على القديم حين تصدى الإسلام لتبديل ذلك القديم ، ومن أكثر الناس تمسكا بمواقعهم ومكتسباتهم التي حاول الإسلام التصدي لها وتغييرها ، حيث صعب عليهم أن يتصوروا نزول القرآن على رجل فقير ليس له مال ولا ولد ولا جاه .

بعد أن ولد خالد أخذ من أمه كما هي العادة لدى عائلات قريش ، وأرسل إلى إحدى القبائل في الصحراءء لتربيته والاعتناء به لدى إحدى المرضعات . وقد وجدت الصحراء هوى في نفس خالد فأحبها ، وشعر كأنه بين أهله وذويه ، وظل خالد يعيش بين عرب الصحراء حتى بلغ الخامسة أو السادسة من عمره حيث عاد إلى منزل أبويه في مكة . وقد أصيب خالد في طفولته بمرض الجدري ولكن إصابته كانت خفيفة لم تسبب له تشويها ولم تؤثر على وسامة وجهه . وبعد أن أصبح الطفل فتى ، وبلغ سن الصبا أدرك بشيء من الفخر أنه ابن زعيم إحدى

القبائل المشهورة في مكة وأن البيت الذي نشأ فيه هو بيت الزعامة والسيادة والكرم والأنفة .

ولأن خالداً كان أحد أبناء بني مخزوم فقد فرض عليه هذا المنشأ أن يتعلم ركوب الخيل وأن يستعمل السلاح وهو مازال طفلاً ؛ لأنه كمخزومي يتوجب عليه أن يكون فارساً بارعاً ؛ ولذلك عندما وصل سن الرشد أصبح اهتمامه الرئيسي هو الحرب ، وأصبح هذا الاهتمام مسيطراً عليه بدرجة كبيرة ، وكانت أفكاره قتالية ودوافعه عنيفة، وتركيبه النفسي عسكرياً .

لقد كانت علامات الفروسية تلوح على خالد منذ صباه الباكر فرشحه أبوه لقيادة الخيل ولم يكن أكبر أبنائه ، وهذا دليل قاطع على استعداده الفطري للقيادة والحرب منذ صباه .

كان الوليد بن المغيرة رجلا ثريا كما سبق وأن أشرنا ولذلك لم يكن خالد بحاجة إلى العمل كي يكسب قوته ، فانصرف إلى تعلم مهارات ركوب الخيل والمبارزة . وبسبب هذه الخلفية من الثراء فقد كبر وهو غير عابيء بالأمور الاقتصادية ، وأصبح معروفاً بإسرافه وكرمه .

وهكذا تكفل الوليد بن المغيرة بتنشئة ولده وتربيته ونجح في زراعة الخصال الحميدة كالفروسية والشجاعة والكرم في نفس خالد ،وكان المغيرة يفتخر بعائلته ونسبه فأخبر ابنه عن شجرة عائلته التي كانت حسب التسلسل التالي : (١)

خالد

ابن الوليد
ابن المغيرة
ابن عبدالله
ابن عمر
ابن مخزوم
ابن يقظة
ابن مرة
ابن كعب
ابن لؤي
ابن غالب
ابن فهر
ابن مالك
ابن النضر
ابن كنانة
ابن خزيمة
ابن مدركة
ابن الياس
ابن مضر
ابن نزار
ابن معن
ابن عدنان
ابن او
ابن مقوم
ابن ناحور
ابن تيرح
ابن يعرب
ابن يشجب
ابن نابت
ابن اسماعيل
ابن ابراهيم
ابن آزر
ابن ناحور
ابن ساروغ
ابن راعو
ابن نالع
ابن عيبر
ابن شالخ
ابن ارفخشد
ابن سام
ابن نوح
ابن لمك
ابن متوشلع
ابن ادريس
ابن برد
ابن مهليل
ابن تينن
ابن يانش
ابن شيث
ابن آدم

بعد وفاة والده ، عاش خالد فترة هدوء في مكة خلال السنوات التي تلت موت أبيه وتمتع بحياة جيدة نتيجة للثروة التي كان يملكها . ومع أننا لانعلم على وجه اليقين كم زوجةً وكم ولداً كان لدى خالد في ذلك الوقت ، لكننا نعلم عن ولدين : أكبرهما يدعى سليمان حيث كان يلقب (بأبي سليمان) والثاني يدعى عبد الرحمن.

وقد كان لخالد الكثير من الأصدقاء المقربين الذين كان يعاشرهم ويذهب معهم لركوب الخيل والصيد ، وعندما لايذهبون للصيد كانوا يقرضون الشعر ويتناولون الشراب . وقد لعب بعض هؤلاء الأصدقاء دوراً هاماً في حياته ، ومن بين أقرب أصدقائه كان عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص رضي الله عنهما ، وكذلك عمرو ابن هشام بن المغيرة وعكرمة بن أبي جهل .

لم يكن خالدٌ في يوم من الأيام متديناً أو ميالاً إلى آلهة الكعبة . وعلى الرغم من ذلك فقد بدأ التفكير بالأمور الدينية بصورة جدية بعد أن أدى النبي ﷺ مناسك العمرة ، حيث شعر خالد أن الإسلام هو فعلاً دين حقيقي يستحق التفكير به . وبعد أن استقر رأيه حول الدين الجديد اتخذ قراره السليم ، ثم ذهب وقابل بعض أصدقائه، وقال لهم :" من الواضح للعقل النير أن محمداً ليس شاعراً ولا ساحراً كما تزعم قريش ورسالته من عند الله ، ومن واجب كل ذي بصيرة أن يتبعه ".

بعد إسلامه عكف خالد على زيارة النبي باستمرار ، وكان يجلس إليه ساعات طويلة يستمع إلى الحديث ويتعلم منه الحكمة والفضيلة .

أما عن تاريخ مولده فقد اختلف المؤرخون في تحديده فمنهم من قال :إنه ولد في السنة الثامنة والثلاثين قبل الهجرة ، ومنهم من قال : إنه ولد بين سنتي ثمانية وعشرين وثلاثين قبل الهجرة ، ورجح بعضهم أن خالداً قد ولد في السنة الرابعة والثلاثين قبل الهجرة على وجه التقريب (٢) .

ب- شخصية خالد

نشأ خالد وترعرع في بيت يتصف بعلو النفس والأنفة ؛ حيث كان على صلة بالكثير من بيوت العرب النبيلة ، سواء عن طريق النسب أو المصاهرة وهذا المنشأ الذي نشأه قد ساهم بقوة في صياغة شخصيته ومستقبله العسكري . فإذا كان القادة العسكريون يتعلمون فنون الحرب والقتال في الأكاديميات العسكرية وكليات الحرب، ويقرأون صفحات القتال المختلفة وتنمي فيهم صفات القيادة ، ثم ينتقلون إلى الميدان للتدريب والمناورة وتطبيق ما تعلموه في التمارين العسكرية المختلفة . فإن خالدا لم ينشأ على هذا الأسلوب ، ولم تتح له فرصة لقراءة التاريخ العسكري ، وتحليل المعارك الفاصلة في هذا التاريخ والاستفادة منها .

لقد نشأ خالد وترعرع في الصحراء العربية ، ونهل من مدرسة البادية عناصر تكوينه النفسي والشخصي والعسكري ، فتربى تربية خشنة وهو ابن أغنى رجل في زمانه ، ومارس الرياضة والفروسية ، وعود نفسه على تحمل الشدائد والصبر على المكاره ، ثم أطلق العنان لعقله المبدع وعبقريته الفذة أن تلعب دورها في الخطط واستنباط الأساليب القتالية المناسبة ليخوض أعنف المعارك وأشدها حسما في التاريخ . إن خالداً لم يكن القائد الوحيد الذي أبدع وانتصر دون أن يرتاد الكليات الحربية والمعاهد العسكرية ، فقد سبقه إلى ذلك الاسكندر الكبير و هنيبال ، وجاء بعده نابليون وبسمارك وغيرهم وكلهم من طراز القادة العظماء ، إلا أن خالداً تفوق عليهم جميعا بأنه لم يهزم في أي معركة خاضها على الإطلاق .

لقد خلق خالد عسكريا ، مرشحا للحرب والفروسية والقيادة ، وشجاعا مقداما يتفجر حيوية وقوة ، فبرع وصنع المعجزات .

أما عن عناصر بناء شخصيته ، فلا شك أن هذا الفتى قد تعلم في صباه كل ما يتعلمه الفتى المرشح للحرب والفروسية وظهرت عليه علامات القيادة مبكراً .

كما أنه تعود عيشة الشظف وعود نفسه على الخشونة في البادية ليصبر على مضانك الحرب وشدائدها .

ويمكننا القول إن هناك أكثر من عنصر ساهم في تكوين شخصيته ، أولها : الظروف الاجتماعية التي عاشها من حيث النسب ودور القبيلة و الظروف الاقتصادية . وثانيها : البيئة الجغرافية ؛ فالصحراء العربية أرض قاحلة كانت تسكنها القبائل المتناحرة التي تعيش وتتقاتل من أجل البقاء . وثالثها : ميول خالد النفسية ، فقد أكدت الوقائع أن هذا الفتى كان ميالا للحياة العسكرية والعنف ، ولما كان يعرف مقدار إمكاناته وبسالته فقد كان يشعر بأنه يستحق أكاليل الغار عن جدارة .

هذه العناصر الثلاثة ساهمت في تكوين شخصية خالد وأبرزت مواهبه العسكرية، ولذلك سلمه أبوه قيادة الخيل ولم يكن أكبر أبنائه ، وقاد فرسان قريش يوم أحد وألحق الهزيمة بالمسلمين ، كما صارع عمر بن الخطاب الرجل القوي فصرعه وكسر ساقه ، كل ذلك كان ينبيء عن قائد ذي دراية نادرة بفنون الحرب والقتال ، وشجاعة فائقة بين أقرانه، وعبقرية عسكرية فذة .

كما تميز خالد بطبيعته العنيفة ، وهذا ما ستؤكده أحداث المعارك التي قادها أو شارك فيها ، في معركة أحد قتل بعض المسلمين على الجبل ، وفي فتح مكة اشتبك في صدام قصير وعنيف مع القريشيين وقتل منهم اثني عشر رجلا . وعندما علم الرسولﷺ بذلك لم يسر من خالد لأنه كان يرغب في عدم إراقة الدماء ، وقد خشي أن يكون خالد نفسه هو الذي تسبب في هذه المناوشة نظراً لمعرفة النبي بطبيعته العنيفة .

لم يكن من ميزات خالد الاعتدال أو الحلول الوسط ، ولذلك كان إذا ضرب أوجع ، فبعد الفتح على سبيل المثال ، أرسل النبي عددا من الحملات إلى القبائل العربية التي تسكن في جوار مكة يدعوهم إلى الإسلام ، وأعطى تعليماته لقادة

الحملات أن لا يقاتلوا من يقبل الدعوة . وتسلم خالد قيادة الحملة التي أرسلت إلى تهامة ، وفي الطريق قابل قبيلة بني جذيمة ، وبعد أن ألقوا سلاحهم أمر خالد أن يكتفوا ثم عرضهم على السيف ؛ لأنه اعتقد بأن بني جذيمة لم يسلموا حقا . عندما انتهى الخبر إلى الرسول ﷺ رفع يديه إلى السماء وقال :" اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ".

أما في قتاله مع المرتدين فهناك الكثير من الأمثلة على رفض خالد بقبول الحل الوسط أو الاعتدال فقتل المرتدين الذين قتلوا مسلمين بنفس الطريقة التي قتلوا بها ضحاياهم .

على الرغم من أن الوليد بن المغيرة والد خالد ، هو الذي ادعى أن الرسول ﷺ رجل ساحر ، إلا أن خالداً لم يتأثر بهذا الرأي ولم يتعصب له ، وهذا ما يظهر استقلالية الرأي وواقعية التفكير التي كان يتمتع بها ، فهو لا يتأثر حتى برأي أكثر المقربين إليه . ومما يؤكد على هذه الصفة في شخصية خالد حادثة إسلامه ، فعندما اتخذ قراره بالدخول في الإسلام ، قابل ابن عمه عكرمة بن أبي جهل وآخرين من أصدقائه ، وأخبرهم بأنه عازم على الدخول في دين محمد ، وبالرغم من المعارضة التي واجهته من عكرمة وأبي سفيان ، إلا أنه أصرّ على ذلك.

لقد كانت استجابة خالد للإسلام استجابة طبيعية مبنية على الإدراك الواسع ورجاحة العقل ، ولذلك جاءت استجابته متدرجة من الإصرار على الكفر إلى قتال المسلمين ، إلى الموادعة إلى الموازنة إلى الترجيح إلى الإجابة ، يقول العقاد : "ولو عجل بواحدة من هذه الخطوات لكانت هذه المعالجة في مكان العجب وهي الأمر المخالف لطبائع الأمور " (٣)

لقد أحاط النبي ﷺ نخبة من كبار الصحابة ذوي الأعمار والأقدار ، والبيئات والأحساب ، والعقول والكفاءات المختلفة برعايته واهتمامه . وما من عظيم من هؤلاء العظماء إلا كان تقدير النبي إياه تقديرا صحيحا ، وذلك لمعرفته الأكيدة

بخصائص النفوس . ولكن تقديره لخالد بن الوليد على وجه التخصيص كان آية ، لأن النبي ﷺ لم يكبره إكبار السياسي ، وإنما أكبره لأنه عرف قدرات خالد قبل أن يأتي الوقت ليفصح عنها وسماه سيف الله المسلول وكان بينه وبين الوقائع التي يستحق بها ذلك اللقب الجليل بضع سنوات . يضاف إلى هذه الصفات صفة إنسانية واضحة في شخصية خالد ، وهي ميله إلى النساء ، ومع أننا لا نعرف على وجه اليقين عدد زوجاته ، إلا أننا نعرف بأنه تزوج ليلى (أم تميم) زوجة مالك بن نويرة ، التي كانت أجمل بنات الجزيرة العربية . وبعد أن هزم مسيلمة الكذاب تزوج ابنة (مجاعة بن مرارة) وكانت فتاة جميلة . ومع أن خالدا تحمل الكثير من اللوم على بعض أفعاله هذه ، إلا أننا لا نرى فيها شيئا غريبا ما دامت الشريعة الإسلامية وقوانينها تتيح عمليات الزواج هذه ، لذلك فإننا لا نعتبر هذه الصفة منقصة في شخصية خالد وإن حاول البعض جعلها كذلك ، وردوا إليها بعض أفعاله زورا وبهتانا . هذه هي نشأة خالد وشخصيته ، بطل عبقري نشأ للقيادة والرئاسة ، وقد جاءته البطولة وهو ينتظرها لا يشك فيها . إن التوافق النادر في شخصية خالد هو توافق يقود إلى دلالة واحدة في شخصية هذا الرجل ويؤكد حقيقة راسخة مفادها أن هذا البطل نشأ للقيادة والعزة والمجد .

٢- الطريق إلى اليرموك

إن دراسة معركة اليرموك والظروف التي أحاطت بها تستوجب على الباحث أن يقوم بعملية تمهيد واسعة النطاق قبل أن يدخل في البحث بتفاصيلها والتعرف على طبيعتها وأهميتها وآثارها . فمعركة اليرموك من حيث طبيعتها وأهميتها والآثار المختلفة التي ترتبت عليها ، لايمكن أن تكون قد حدثت فجأة بين إرادة طرفي القتال، فمعركة بهذا الحجم لا بد من التحضير لها والاستعداد لخوضها استعداداً كافيا.

ولهذا السبب فإننا نعتقد بأن كل المعارك التي خاضها المسلمون بصورة عامة ، وخالد بن الوليد بصورة خاصة ، كانت مقدمات ضرورية لخوض مثل هذه المعركة. فمعارك خالد في الجزيرة العربية لم تكن معارك ضد جيوش منظمة ، وكانت في طابعها العام عبارة عن غزوات تشن ضد القبائل العربية التي تتماثل في تكوينها النفسي والعسكري مع قوات المسلمين من حيث الخبرة والمعرفة بشؤون الحرب وشجونها . ولذلك فإن الخبرات المتراكمة من هذه الغزوات لا تكفي لأن تكون أساسا صالحا للانتقال بهذا الجيش إلى مرحلة متقدمة جداً في مقياس الحروب، والزج به في معركة حاسمة يتوقف عليها مصير الدولة الإسلامية ، ودعوتها في الجزيرة العربية .

وتأسيسا عليه يمكن اعتبار حروب خالد في العراق بمثابة الفرصة التي توفرت للقوات الإسلامية لاكتساب الخبرات المتقدمة في حرب الجيوش النظامية الكبيرة ، حيث جعلت هذه القوات قادرة على خوض معركة بهذا الحجم ، وما يؤكد على هذه الحقيقة أن الجيوش الإسلامية الأربعة التي كانت متواجدة في مسرح عمليات بلاد الشام لم تستطع المجازفة في مواجهة القوات الرومانية إلا بعد انضمام قوات خالد إليها ، علما بأن القوات التي جاءت مع خالد إلى بلاد الشام لم تكن كثيرة العدد ، إلا

أنها كانت من أفضل القوات الإسلامية : خبرة وتدريبا وقدرة على مواجهة الجيوش النظامية . أضف إلى ذلك العلاقة بين نتائج حروب العراق وظروف مسرح عمليات بلاد الشام ، فقد ساهمت نجاحات خالد في العراق إلى حد بعيد في خلق الظروف المناسبة للقوات الإسلامية ، وأمنت لها جناحها الشرقي ومنعت عنها أي تهديد محتمل ، بعد أن أصبحت القدرة على الاتصال بين الفرس والروم محدودة خصوصا في المناطق المحررة . ولا تنس أن معارك العراق قد أكسبت خالد بن الوليد قدرات عسكرية وتعبوية مضافة ؛ ولهذا السبب تم اختياره ، من قبل الخليفة أبي بكر ليكون على رأس الجيوش الإسلامية في بلاد الشام ، علما بأن القيادات التي كانت على رأس الجيوش الأربعة تعتبر من أشهر القيادات الإسلامية في ذلك الوقت . هذه الأمور جميعا تجعلنا غير قادرين علىفصل ما حدث في اليرموك عن حروب خالد التي سبقت هذه المعركة ، إذا أخذنا الأمور بصورتها الشمولية الصحيحة ونظرنا إليها من منظور استراتيجي عام .

وعلى هذا الأساس فإننا سنقوم باستعراض موجز لهذه المعارك ، للتعرف على صفات القائد الذي سحق جيوش الروم في أعظم معركة عرفها التاريخ الإسلامي .

أ- معركة أحد :

مثّلت معركة بدر أول اختبار رئيسي على الصعيد العسكري بين المسلمين وأعدائهم ، حيث كانت هذه المعركة إيذانا عن تغيير شامل في أسلوب الدعوة الإسلامية . فقد صمدت في معركة بدر قوة صغيرة من المسلمين قوامها (٣١٣) رجلاً أمام (١٠٠٠) رجل من كفار قريش ، وبعد قتال عنيف استمر من ساعة إلى ساعتين حطمت القوة الصغيرة المؤمنة الجيش الذي يفوقها بأكثر من ثلاثة أضعاف، بعد أن قتلت سبعين مشركا وأسرت سبعين آخرين .

وكان من بين قتلى المشركين (١٧) قتيلا من بني مخزوم ومعظمهم من أقارب خالد بن الوليد ، كان على رأسهم عمرو بن هشام والد عكرمة بن أبي جهل الذي كان يقود جيش قريش ، كما تم أسر أحد إخوانه ، ولم يشترك خالد في هذه الغزوة بسبب غيابه في ذلك الوقت عن الحجاز . عقدت قريش إثر هزيمتها في بدر مؤتمرها الرئيسي لدراسة الوضع الذي نشأ بعد المعركة ، وقد اتخذ الحديث في هذا المؤتمر اتجاهين رئيسين الأول : الحديث عن الثأر للقتلى وكرامة قريش التي مرغها محمد بالتراب . والثاني : التهديد الاقتصادي الذي بات المسلمون يشكلونه على تجارة قريش ، بعد أن أصبحت الطريق المؤدي إلى سوريا وفلسطين مهددة من قبل قوات المسلمين .

حاولت قريش تغيير طرق تجارتها بعد تهديد الطريق الأول ، فأخذت تسلك الطريق المؤدي إلى العراق ، إلا أن هذا التعديل الذي طرأ على اتجاه سير القوافل لم يمنع المسلمين من تتبع القوافل التجارية لقريش ، فقد استطاع زيد بن حارثة مطاردة إحدى هذه القوافل وأسرها علي المحور الجديد بأمر من الرسول ﷺ .

تحت وطأة الحصار الاقتصادي الذي فرضه المسلمون بدأت قريش بإعادة تقييمها للأوضاع العسكرية والاقتصادية المستجدة ، فأجمع قادتها وقرروا حسم الأمور بمواجهة ثانية مع المسلمين ، وبدأوا يعدون لغزوة أحد بحماس مدفوع بالثأر حينا وبالمصالح الاقتصادية حينا آخر .

أخذت الإمدادات تصل من القبائل العربية إلى قريش . وفي أوائل عام ٦٢٥م بدأ تجمع الحملة في مكة ، وفي الأسبوع الثاني من آذار من نفس العام ، انطلق القرشيون من مكة بجيش مؤلف من (٢٠٠٠) رجل ، وكان معهم مائتا فرس وثلاثة آلاف بعير . وفي الحادي والعشرين من آذار غادر النبي المدينة ومعه ألف رجل ، ولم يكن معه سوى فرسين ، وخلال المسير تخلى (٣٠٠) رجل من المنافقين عن النبي بحجة أن قتال قريش خارج المدينة لن يكتب له النجاح .

تقع أحد شمال المدينة ، وهي عبارة عن هضبة طبيعية تقع على مسافة أربعة أميال من المدينة تقريبا ، ويصل ارتفاعها إلى حوالي ألف قدم عن مستوى السهل المحيط بها ، ويبلغ طولها حوالي خمسة أميال . وفي صباح يوم السبت الموافق ٢٢ آذار عام ٦٢٥ م (السابع من شوال عام ٣هـ) بدأت المعركة بين المسلمين والقريشيين ، وبدأ جيش قريش بالتقهقر تحت ضغط هجوم المسلمين الذين سيطروا على هضبة أحد . وفي الوقت الذي كانت فيه الهزيمة تدب في صفوف قريش كان خالد بن الوليد يسيطر تماما على رجاله من الفرسان ، ولم يسمح لأي فارس أن يتراجع أو ينسحب ، وقد شاهد ما حل بجيش قريش وهو ينهزم ، ولكنه ظل متحليا بالصبر لدرجة كبيرة ، وظهرت شجاعة منقطعة النظير على الرجل ، فهو يرفض الهزيمة كغيره من القادة ، ولا بد من عمل شيء ، وجاءته الفرصة المناسبة عندما ترك نبالة المسلمين مواقعهم التي أوصاهم النبي ﷺ بعدم مغادرتها أو الانسحاب منها مهما تطورت المعركة .

وبلمح البصر انتهز خالد الفرصة المناسبة ، وبدأ ضربته ، فشن هجوما بقواته على من تبقى من قوات المسلمين على تل أحد ، واستمر في مناورته على مؤخرة المسلمين ، فهاجمهم على حين غرة من الخلف . وفي الوقت الذي أخذ خالد فيه بتنفيذ مناورته ، استطاع قائد قوات قريش أن يستعيد السيطرة على قواته ، وهكذا وقع المسلمون في الطوق .

بدأ خالد يوجه هجماته إلى القوة الرئيسية للمسلمين فأخذت هذه القوة بالانهيار وفقدت تماسكها وبدأت هزيمتها باتجاه التلال تاركة ميدان المعركة بعد أن فقدت سبعين رجلا .

تعتبر أحد أول هزيمة تلحق بالمسلمين إلا أن هذه الهزيمة لم تكن حاسمة تلحق الضرر بالدعوة الإسلامية .

ولكن ما يهمنا من هذه المعركة على وجه التحديد هو دراسة الفكر العسكري عند خالد ومواهبه القيادية التي ظهرت في أول معركة له في حياته ، والتي يمكن أن نوجزها على النحو التالي :

- الشجاعة غير الاعتيادية التي تميز بها خالد ، وقدرته الفائقة في السيطرة على قواته حتى عندما انهزم جيش المشركين ، والصبر عند الشدة الذي تحلى به وهو يراقب هزيمة جيش قريش ، وظهر في هذا الموقف مدى رفض خالد بن الوليد للهزيمة وإنكاره على نفسه القبول بها .

- أسقط خالد في أول معركة له بعضا من المنطق العسكري المتداول حديثا ؛ والذي يؤكد أن هزيمة القوة الرئيسية للجيش تؤدي إلى هزيمة الفروع المساندة . إلا أن خالداً قلب هذا المنطق فقد هزمت القوة الرئيسية للمشركين ولكنه استغل قواته الفرعية لقلب نتائج المعركة ، واستطاع أن يحقق ذلك .

- أظهرت معركة أحد أن خالداً من طراز القادة الموهوبين الذين يملكون قدرات غير اعتيادية في المناورة العسكرية ، ومن هنا أدرك إمكانية الاندفاع بسرعة والالتفاف على مؤخرة قوات المسلمين المكشوفة ، وقيادة هجوم معاكس ناجح ضد هذه القوات .

- برز في هذه المعركة أحد الدروس المهمة في الحرب وهو مواصلة الضغط على العدو ومنعه من التقاط أنفاسه أو إعادة تنظيم قواته كمقدمة أساسية لهزيمته، وهذا ما نفذه خالد على أرض الواقع ضد قوات المسلمين فقلب نصرهم إلى هزيمة .

ب- غزوة الخندق

لم يستطع القريشيون بعد معركة أحد تحقيق أي إنجاز على الصعيد الاقتصادي وإن كانوا حققوا الثأر لهزيمتهم في بدر ، فبعد هذه الغزوة استسلم القريشيون للأمر الواقع وقبلوا بفقدان تجارتهم مع سوريا كنتيجة حتمية للتهديد الذي تتعرض له هذه الطريق من قبل المسلمين .

وتأسيسا على ذلك بدأ القريشيون نشاطهم الاقتصادي باتجاه العراق واليمن والبحرين ؛ لتعويض خسارتهم من انقطاع تجارتهم مع سوريا . إلا أن ذلك أبقى قريشا تحت رعب التهديد الإسلامي ، الذي يمكن أن يقطع خطوط تجارتهم الجديدة، ويفرض عليهم حصارا اقتصاديا يتمخض عن نتائج وخيمة تعود عليهم وعلى اقتصاديات مجتمعهم ببالغ الضرر الذي لا يستطيعون تحمله .

وبناء عليه قررت قريش القيام بغزو المدينة للتخلص من هذا التهديد الذي يقض مضجعها . وفي يوم الاثنين الرابع والعشرين من شباط سنة ٦٢٧م ، الموافق (الأول من شوال عام ٥هـ) تحركت الأحزاب بجيش قوامه حوالي سبعة آلاف مقاتل من قريش والقبائل العربية المساندة لها في موقفها باتجاه المدينة .

عسكر الأحزاب إلى الغرب من أحد ، وفي هذا الوقت كان المسلمون قد أنهوا حفر الخندق حول المدينه وبدأوا دفاعهم عنها بقوة تقدر حوالي ثلاثة آلاف رجل .

بدأت قوات الأحزاب بفرض حصارها على المدينة . ومع مرور الأيام اشتدت وطأة الحصار على طرفي القتال ، وفي هذه الأثناء قرر خالد اجتياز الخندق وعبوره من إحدى النقاط الضعيفة، إلا أن قوات المسلمين قاومت هذه المحاولة ومنعته من عبور الخندق .

نتيجة للمقاومة العنيفة للمسلمين قرر خالد اللجوء إلى الخدعة لاقتحام الخندق ، فتحرك بسريته إلى الخلف كتعبير عن تخليه عن نيته في العبور ، وفعلا انطلت الخدعة على قوات المسلمين فانسحبوا من مواقعهم ، وفجأة عاد خالد بسريته وعبر الخندق قبل أن يتمكن المسلمون من الانتشار ثانية للدفاع عن الخندق .

بهذه المناورة التي اختلطت فيها الخدعة بالمفاجأة بالجرأة ، نجح خالد في احتلال رأس جسر في المنطقة التي عبرها ، ثم حاول التقدم إلى الأمام بعد أن قتل أحد المسلمين إلا أنه عاد وانسحب مع قواته بعد أن وجد بأن الموقف العام ليس في صالحه . وكان هذا الاشتباك آخر عمل عسكري رئيسي في معركة الخندق .

ومع أن غزوة الخندق لا تمثل معركة بالمفهوم العام ، إلا أن ذلك لا يمنع من الإشارة إلى محاولات خالد في هذه الغزوة والدروس المستفادة منها والتي توجز بما يلي :

- أظهر خالد في هذه المعركة أهمية الخدعة في الحرب ودور المفاجأة في تحقيق الهدف ، والمثابرة على التعرض بجرأة وإقدام .

جـ - معركة مؤتة

على أثر مقتل مبعوث النبي ﷺ الذي أرسله إلى أمير بصرى الغساني ، أعدت حملة عسكرية لتأديب قبيلة غسان إحدى القبائل العربية التي كانت تقطن سوريا والأردن . عين النبي على رأس هذه الحملة ثلاثة من القادة المسلمين هم على التوالي : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم جميعا .

ومع أن سبب الحملة المباشر كما ظهر للجميع هو تأديب قبيلة غسان ، إلا أنني أعتقد بأنها كانت تنطوي على مضامين وأهداف عسكرية أخرى ، أهمها :

⇐ إظهار قوة المسلمين للدول المحيطة بالجزيرة العربية .

⇐ دراسة ردود الأفعال العربية والأجنبية المعادية على الحركة العسكرية للقوة المسلحة الناشئة في الجزيرة العربية .

⇐ رفع معنويات المسلمين والانتقال بهم إلى مرحلة التفكير بنشر مبادىء الدعوة خارج حدود الجزيرة باستخدام كافة الوسائل المناسبة .

سارت قوات المسلمين باتجاه الأردن بمعنويات عالية جداً حتى وصلت إلى مؤتة التي تجمعت فيها قوات الروم والغساسنة ، وكان ذلك في الأسبوع الثاني من أيلول عام ٦٢٩م الموافق (الأسبوع الثالث من جمادى الأولى عام ٨هـ) وقد قدر بعض المؤرخين القوات المعادية من الروم والغساسنة بحوالي مئة الف مقاتل إلا أن هذا الرقم باعتقادي رقم مرتفع يبعد عن الواقع الصحيح ، لكن ذلك لا يمنعنا من القول إن عدد القوات المعادية كان مرتفعا .

بدأت المعركة بين الطرفين وقاتل المسلمون قتال الأبطال ، واستمروا بالقتال إلى أن فقدوا قادتهم الثلاثة ، وهنا بدأت الفوضى تدب في صفوفهم . وكما سنحت الفرصة في أُحد لخالد لإظهار عبقريته ، سنحت له الفرصة ثانية في مؤتة ، مع فارق في الموقف النفسي والمبدئي عند خالد في كلتا المعركتين ، ففي أُحد كان الرجل لا يزال على شركه ، وفي مؤتة كان الرجل مسلما وصاحب عقيدة ومبدأ .

إتفق المسلمون على خالد لتولي قيادة القوات بعد أن استشهد قادتهم ،كان موقف جيش المسلمين يتسم بالخطورة ، حيث كان من الممكن في أية لحظة أن تقع فيه الهزيمة ويلحق به العار .

بعد أن استلم خالد قيادة الجيش بدأ بإعادة تنظيم قواته لوضعها في ترتيب القتال، وبدأ باستعادة السيطرة على هذه القوات بعد أن دبت الفوضى في صفوفها ، وقدر موقفه العسكري تقديرا صحيحا فوجد أن هذا الموقف يملي عليه أحد الحلول التالية:

⇐ التحول من الهجوم إلى الدفاع في محاولة لاستنزاف قوات العدو والاستمرار في القتال ، إلا أن قوات الروم تفوقه عددا وعدة ، وقد تنتهي المعركة الدفاعية على عكس ما هو متوقع وتؤدي إلى هزيمة المسلمين .

⇐ أن ينفذ خطة انسحاب فورية وينقذ ما يستطيع إنقاذه من قوات المسلمين ، إلا أنه رأى في هذا الحل سيئات كثيرة ؛ فهو بالإضافة إلى ما سيلحقه من عار بقوات المسلمين فإنه سيعمل على انهيار الروح المعنوية لديهم ، وقد تتدخل قوات الروم بهذا الانسحاب لتحوله إلى هزيمة منكرة .

⇐ أن يقوم بمهاجمة قوات الروم للحصول على غرضين : الأول كسب المزيد من الوقت الذي يمكنه من إعادة النظر في الاحتمالات المتوفرة أمامه، والثاني : الحصول على مؤشرات جديدة عن سير المعركة بحيث يتبلور الموقف بصورة أوضح .

وقع اختيار خالد على الحل الثالث ، وبدأ المسلمون هجومهم ، واندفعوا إلى الأمام وعلى رأسهم قائدهم الجديد الذي أثار الحمية في نفوسهم وزادهم إصرارا على القتال . ونتج عن هذا الهجوم مقتل قائد الغساسنة ؛ مما تسبب في حدوث فوضى في صفوف قواته ، فانسحب الغساسنة للوراء تحت ضغط قوات المسلمين . وفي هذه اللحظة حاول خالد أن يقطع التماس مع قوات العدو ولذلك انسحب مع قواته إلى الوراء بحيث أصبح الجيشان يواجهان بعضهما البعض خارج مدى النبال.

إنتهى الهجوم الذي قرره خالد لصالح جيش المسلمين ، وبذلك أعاد الثقة إلى رجاله ورفع معنوياتهم . وعند المساء بدأ خالد عملية انسحاب منظمة بعد أن أبعد عن جيشه الهزيمة ، وألحق الخوف في نفوس أعدائه، ثم بدأ رحلة العودة إلى المدينه منقذاً جيش المسلمين من الهزيمة والعار التي كادت أن تحل به . وعندما

وصل إليها نعت المسلمون في المدينة جيشهم بالفرار ، و لأنهم فروا من أمام جيش المشركين ، إلا أن الرسول ﷺ نعتهم بالكُرّار وأطلق على خالد لقب (سيف الله).

ومع أن معركة مؤتة ليست من المعارك الرئيسية أو الهامة ، إلا أنها أعطت الفرصة لخالد ليظهر كفاءته كقائد عسكري بارع .

تشبه معركة مؤتة إلى حد بعيد معركة (دنكرك) التي جرت بين الجيشين البريطاني والألماني في الحرب العالمية الثانية ، والتشابه بين المعركتين كبير يصل إلى حد التطابق في بعض الأحيان ؛ ففي معركة دنكرك اعتبر انسحاب الجيش البريطاني هزيمة منكرة في بداية الأمر ، وهذا ما حصل بالنسبة للجيش الإسلامي بعد رجوعه إلى المدينه ثم اعتبر الانسحاب بعد ذلك نصرا مؤزرا في كلتا المعركتين.

⇐ كان يمكن للقوات الألمانية ان تسحق الجيوش البريطانية في دنكرك وتلحق بالجيش البريطاني كارثة مروعة ، أيضا كان يمكن لقوات الغساسنة والروم أن تلحق هزيمة منكرة بالجيش الإسلامي لو قامت بمطاردته في أثناء الانسحاب .

⇐ أكدت كلتا المعركتين أن الانسحاب في أي معركة لا يمثل نهاية المطاف أو الهزيمة ، بل إن الانسحاب المخطط والمنظم يعتبر إحدى صفحات الحرب الرئيسية التي تمكّن الجيوش من إعادة تنظيمها لمعاودة القتال من جديد ، أو تعزيز بعضها بعضا على الطريق لتحقيق الهدف النهائي .

أما عن أهم الدروس المستفادة فكانت أهمية المجازفة التي قام بها خالد عندما قرر أن يقاتل الروم في جولة أخرى ، وذلك لسبب بسيط جدا وهو أنه لولا هذا الاشتباك لما استطاع خالد أن يخدع الروم بانسحابه ؛ لأن المنهزم يتوقع له الانسحاب، بينما الجيش الذي مازال يقاتل بشجاعة ليس متوقعا له الانسحاب . أضف إلى ذلك أن خالداً لو قام بالانسحاب بدون قتال في ذلك اليوم لكان من

الممكن أن يحول انسحاب المسلمين إلى هزيمة . كما أنه لا يعقل أن يقوم خالد بتغيير تنظيم قواته ليوهم العدو بأن المدد قد وصله ، بل من أجل الدخول مع القوات المعادية في جولة جديدة ولذلك فاجأ خالد بن الوليد الغساسنة والروم بخطة انسحابه المنظم التي مزجها بخطط مخادعة جيدة (٤).

د- غزوة حنين

جاءت غزوة حنين بعد فتح مكة ، حيث شعر المسلمون بالخطر الكامن في الشرق نتيجة لوجود قبيلتي هوازن وثقيف اللتين كانتا تقطنان تلك المنطقة ، في الوقت الذي خشيت فيه هاتان القبيلتان أن يقوم المسلمون بعد فتح مكة بمهاجمتهما في عقر دارهما كُلاًعلى انفراد ، ولتجنب هذه الحالة قررتا مهاجمة المسلمين .

علم المسلمون بنوايا هوازن وثقيف فقرروا مواجهة الموقف . وفي السابع والعشرين من كانون الثاني عام ٦٣٠م ، الموافق (السادس من شوال عام ٨هـ) انطلق المسلمون من مكة بقوة تقدر بحوالي عشرة آلاف مقاتل لمواجهة الخطر القادم من الشرق .

كان في مقدمة جيش المسلمين مفرزة من سليم تقدر بحوالي سبعمائة مقاتل وتعمل كحرس مقدمة تحت قيادة خالد بن الوليد . وبعد وصول طلائع الجيش الإسلامي إلى مضيق حنين في الأول من شباط المصادف الحادي عشر من شوال، حاول خالد اجتياز مضيق حنين ، الذي نصبت فيه قوات المشركين كمينا للمسلمين، فوقع خالد في الكمين وتعرضت قواته لهجوم عنيف من قوات مالك بن عوف قائد قوات المشركين في حُنين ، فانهزم المسلمون وأصيب خالد في ذراعه .

لقد استطاع مالك بن عوف أن يوقع خالد بن الوليد وقواته في مصيدته التي رسمها لهم ، كما استطاع أن يفاجئهم ويأخذهم على حين غرة في الزمان والمكان غير المتوقعين . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يؤخذ فيها خالد على حين غرة

ويفاجأ فيها بنفسه ، فقد كان دائما يعرف قيمة المفاجأة وأثرها على المقاتلين ، والذعر الذي يحل عند وقوعها .

لقد تعلم من تلك المفاجأة الكثير وحفرت في ذاكرته العسكرية عميقا ، بحيث إنه لم يفاجأ بعد هذه المفاجأة في كل حروبه . هذا هو الدرس الذي تعلمه خالد ورأى أثره على جنوده بأم عينه .

هـ - حروب الردة

إن آخر عمل عسكري أُسند إلى خالد بن الوليد في عهد النبي ﷺ هو إرساله على رأس حملة إلى قبيلة بني الحارث إحدى بطون قبيلة كعب في نجران إلا أن هذه الحملة قد أنجزت مهمتها دون إراقة دماء . وبعد وفاة الرسول بدأت عملية ارتداد واسعة النطاق عن الدين . ومع أن هذه العملية بدأت بوادرها في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلا أنها لم تكن في حينه تشكل تهديدات جدية لكيان الدولة الإسلامية السياسي . ولكن خطر الارتداد عن الدين ظهر بعد وفاة النبي ﷺ حيث اجتاحت الجزيرة العربية موجة عاتية من الكفر والرجوع عن الدين بعد الإيمان . وقد ازدادت الأزمة وتفاقمت أخطارها بعد انتشار الأنباء عن حدوث عملية ارتداد واسعة النطاق شملت جميع أرجاء الجزيرة العربية وعمت جميع القبائل ، باستثناء القبائل التي كانت تقطن مكة والمدينة والطائف ، ونتيجة لذلك أصبحت السلطة السياسية في المدينة تواجه محنة حقيقية ، وبدأت رياح الفتنة تعصف بكل أركانها وتهزها بعنف شديد .

كانت الفتنة واسعة ، وكان يجب على الخليفة مواجهتها بحزم لإعادة الأمور إلى نصابها وتحقيق الاستقرار السياسي للدولة ؛ ولأن عاصفة الارتداد كانت شاملة فقد وجب على أبي بكر المواجهة الحاسمة والفورية والقتال على أكثر من جبهة في آنٍ واحد . وكان أشهر المرتدين طليحة الدجال في البزاخة ، ومالك بن نويرة في

البطاح ، ومسيلمة الكذاب في اليمامة وغيرهم على سواحل الجزيرة العربية الشرقية والجنوبية . لقد كان الموقف يتطلب استراتيجية محكمة ومناسبة لاستعادة الهيبة السياسية والدينية للدولة . وفعلا وضع الخليفة استراتيجيته الشاملة والمبنية على عناصر القوة في ذلك الوقت وكانت هذه القوة تكمن في وجود أبرع المقاتلين في صفوف المسلمين مثل سيف الله خالد بن الوليد وغيره (٥) .

قام أبو بكر بحشد قواته وتنظيمها لمواجهة الموقف ، وقسم هذه القوات إلى عدة ألوية ، وضع أقواها تحت قيادة خالد ، وأسند إليه مهمة مواجهة أقوى قوات المرتدين ، وطلب منه أن يتوجه إلى طليحة بن خويلد في البزاخة ، فإذا حقق النجاح في هذه المهمة ، عليه أن يتوجه إلى مالك بن نويرة ، في البطاح .

إنطلق خالد بقواته المؤلفة من حوالي أربعة آلاف رجل باتجاه هدفه المحدد . وفي الطريق إلى البزاخة استطاع أن يضم إلى قواته بعض المتطوعين للقتال من المسلمين . وصل خالد في حوالي منتصف أيلول عام ٦٣٢م ، الموافق (جمادى الآخرة عام ١١هـ) إلى الجزء الجنوبي من سهل بزاخة وعسكر على مسافة قصيرة من معسكر المرتدين . وبعد أن نظم قواته للمعركة ، شن هجومه على قوات طليحة، وكان هجوما شاملا أصاب جبهة المرتدين بالتصدع ، ثم زاد خالد من شدة هجومه فأخذت قوات المرتدين بالانهيار ، وعندما شعر المسلمون بذلك هاجموا عدوهم بضراوة وعنف فهزموا جموعه ودحروا أعداء الإسلام .

قام خالد بعد هزيمة قوات طليحة بعملية استثمار فوز واسعة النطاق فأرسل عددا من المفارز لمطاردة فلول المرتدين وإخضاع القبائل المجاورة كما قام بمطاردة فلول بني فزارة وبني أسد وبني سليم وغطفان . وبذلك أنهى خالد المرحلة الأولى من حربه مع المرتدين بنجاح منقطع النظير . وبعد فترة من الاستراحة أصدر خالد أوامره بالحركة إلى البطاح لمواجهة مالك بن نويرة ، زعيم قبيلة بني يربوع إحدى بطون بني تميم ، وقد سبق لمالك أن تحالف مع سجاح بنت الحارث التي ارتدت هي الأخرى عن الدين .

وصلت أنباء هزيمة طليحة ، والعقاب الذي أنزله خالد بالمرتدين إلى مالك بن نويرة ، فأصيب بالخوف والهلع وبدأت معنوياته بالانهيار ، ولذلك أخذ يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه بالتوبة وتقديم الولاء . إلا أن هذا الموقف لم ينقذه من انتقام خالد نتيجة لما ارتكبه من جرائم ضد المسلمين ، ولذلك أمر خالد بقتله عندما ألقي القبض عليه.*

بعد القضاء على مالك بن نويرة يكون خالد بن الوليد قد أنهى المهمة التي أوكلها إليه الخليفة أبو بكر . إلا أن الخليفة عاد وأسند إليه مهمة التوجه إلى مسيلمة الكذاب وتدمير قواته في اليمامة . ووضع الخليفة قوات شرحبيل بن حسنة تحت قيادته ، ووعده بتزويده بما يتجمع لديه من قوات إضافية في المدينة .

كان مسيلمة الكذاب قد وجه ضربة قوية إلى قوات عكرمة ، وبعدها بفترة وجيزة وجه ضربة أخرى إلى قوات شرحبيل ، بعد أن بادر كل منهما إلى قتاله منفردا فتألم أبو بكر لتهور عكرمة ، كما لام خالد بن الوليد شرحبيل على قتاله لمسيلمة (٦) .

بعد نجاح مسيلمة في عملياته العسكرية ضد عكرمة وشرحبيل ارتفعت معنويات قواته ، فتقدم بجيشه الذي بلغ حوالي أربعين ألفا إلى سهل عقرباء على الطريق المؤدي إلى اليمامة . وقد علم خالد من عناصر استطلاعه عن حركة مسيلمة العسكرية هذه ، فتوجه إلى المكان الذي احتشدت فيه قوات المرتدين ، وقام بتنظيم قواته العسكرية بأسلوب مختلف عن الأساليب السابقة التي كانت تعتمد على المجموعات القبلية فقام بتنظيمها ضمن سرايا وكتائب حسب مقتضيات المعركة ، ثم قام بتقسيم السرايا والكتائب إلى ميمنة وجعل عليها زيد بن الخطاب (الأخ الأكبر لعمر) ، وميسرة وجعلها بإمرة أبي حذيفة ، والقلب وجعله تحت قيادته .

---

* للمؤرخين أقوال مختلفة في الملابسات التي اكتنفت هذا الأمر ، ولا يتسع المقام لعرض هذه الأقوال وتمحيصها ، فليرجع إليها من أراد التحقّق من هذا الأمر في مظانّها .

بدأت المعركة في الأسبوع الثالث من شهر كانون الأول عام ٦٣٢م الموافق (الأول من شوال عام ١١هـ) وهاجم المسلمون بضراوة إلا أنهم لم يستطيعوا اختراق قوات مسيلمة ، مما شجعه على الانتقال إلى مرحلة الهجوم المعاكس ، فتراجع المسلمون إلى الوراء نتيجة لهجوم مسيلمة ، ثم بدأوا بمرحلة انسحاب غير منظم ، وعندها أخذ المرتدون بمطاردة المسلمين حتى أوصلوهم إلى معسكرهم .

توقف المسلمون خلف معسكرهم وهم في حالة سيئة ، وبعد تفكير عميق عرف خالد أسباب ما حدث ، وأدرك أن تشكيل القوات بالكتائب والسرايا كخليط من أهل القرى والبوادي كان خطأ فادحا أدى إلى هذه النتيجة ، ولذلك أعاد تجميع قواته وفق الترتيب القبلي ، لاعتقاده بأن الدفاع عن شرف القبيلة ما زال يأخذ حيزا واسعا في نفوس المقاتلين المسلمين . إندفع خالد مع جنوده إلى الأمام واشتبك مع المرتدين وقرر تحطيم معنوياتهم بقتل قائدهم مسيلمة . ولذلك عندما خفت حدة القتال خرج خالد أمام المسلمين ودعا إلى المبارزة فخرج إليه الكثير من المرتدين فقتلهم ، وأخذ يقترب من مسيلمة فهرب من أمامه فأدرك خالد أثر هذه الهزيمة على معنويات جنوده فطلب من قواته الهجوم ، فأخذ المرتدون بالتراجع . وفي هذه اللحظة قتل العبد (وحشي) مسيلمة ، وعندما سقط على الأرض ضربه أبو دجانة بسيفه ، فانهار جيش المرتدين وهزم بعد أن استشهد من المسلمين أكثر من ستمائة شهيد (٧).

وبهزيمة مسيلمة تحررت معظم أنحاء الجزيرة العربية من الردة بعد أن نفذ قادة الألوية المهمات التي أوكلت إليهم . وهكذا استطاع أبو بكر أن يعيد الاستقرار والهدوء إلى الدولة الإسلامية خلال أقل من سنة (٨).

أقام خالد بعد معركة اليمامة بالقرب منها بانتظار تعليمات الخليفة ، وليعطي قواته مزيدا من الراحة بعد الجهد المضني الذي بذلوه في معركتهم مع مسيلمة الكذاب .

و- فتح العراق

بعد عودة الهدوء والاستقرار إلى ربوع الدولة الإسلامية ، واطمئنان الخليفة إلى سلطته السياسية والدينية ، اتخذ قراره الخطير بالانتقال إلى مرحلة جديدة من مراحل تطوير الدولة السياسي والاقتصادي والديني ، وذلك عن طريق دفع الدعوة الإسلامية خارج حدود الجزيرة العربية . ويبدو أن الخليفة قد استفاد من تجربة الرسول ﷺ في محاولته نشر العقيدة خارج حدود الجزيرة ؛ لذلك قرر أن يستخدم جميع الوسائل المتاحة وعلى رأسها القوة العسكرية ، فكتب إلى خالد بن الوليد في اليمامة يقول له "سر إلى العراق حتى تدخلها ، وابدأ بمنطقة الابلة وقاتل أهل الفرس ومن كان في ملكهم من الأمم وليكن هدفك الحيرة " (٩).

كانت هذه الأوامر الموجهة من الخليفة إلى خالد على جانب عظيم من الأهمية ، فهي تنطوي بشكل واضح وصريح على الدخول في مواجهة مع واحدة من أقوى دول العالم في ذلك العصر ، دولة يزيد عمرها عن ألف سنة ، وتمتلك من وسائل القوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية أضعاف ما تملكه الدولة الإسلامية الناشئة . إن تحديد الخليفة للعراق كهدف استراتيجي لقوات خالد كان ينطوي ضمنيا على تحقيق الهدف الأبعد لاستراتيجية الدولة الإسلامية العظمى على الصعيد العقائدي والاقتصادي والجغرافي والعسكري . فأرض العراق هدف على هذا الطريق حيث اعتبرت هذه الأرض وحتى هذا التاريخ من أثمن ممتلكات الدولة الفارسية وأكثرها أهمية استراتيجية بالنسبة للدولة الإسلامية .

بدأ خالد من اليمامة بحرب نفسية هائلة شنها على دولة الفرس وقيادتها السياسية والعسكرية ، فكتب إلى هرمز يقول : " أما بعد فأسلم تسلم ، أو اعقد لنفسك وقومك الذمة ، وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة " (١٠) .

بهذه الرسالة بدأ خالد حربه النفسية الواسعة النطاق ضد الفرس . وهذا العمل لا يخرج إلا عن قائد عبقري يعرف كيف يدير صراعه على الصعيد النفسي والمعنوي والعسكري . بعد ذلك بدأ خالد حركته باتجاه العراق بعملية تقدم عسكرية رائعة ؛ فقد قسم جيشه إلى ثلاث فرق رئيسية وتقدم على أكثر من محور ؛ ويعود السبب في ذلك إلى رغبة خالد في سرعة الانتقال بحيث لا تستغرق حركته وقتا أطول ، كما يعود إلى الحذر من وقوع القوات في مصيدة أو كمين ؛ لأن حركته إلى العراق لن تكون مخفية تماماً عن العدو .

بعد رسالته الشهيرة إلى هرمز توقع خالد أن يقوم الفرس بحشد قواتهم والاستعداد للمواجهة في منطقة (الابلة) وسيضعون خططهم طبقا لذلك ، لأن الابلة تقع على الطريق المباشر من اليمامة إلى كاظمة .

إن هذا التصور العقلاني لما يمكن أن تكون عليه الأحداث من قبل سيف الله ، هو ما يسمى بالعلم العسكري الحديث ، قدرة القادة على توقع الأعمال المقبلة للعدو: أي القائد المتمكن عليه أن يكون قادرا من خلال تحليل عقلاني للظروف على توقع ما يمكن أن يقوم به العدو . لقد استطاع خالد بن الوليد بعقليته النيرة أن يتصور العمل المتوقع لقوات العدو ، وكان مصيبا في كل توقعاته .

لم يقم خالد بتوقع العمل الأكثر احتمالاً من قبل عدوه فقط بل عمل على وضع خطته بناء على ذلك أيضا ، وقبل أن يضع هذه الخطة قام بدراسة نقاط الضعف لدى العدو وحاول استغلالها إلى اقصى حد ممكن . لقد استنتج خالد بعقليته الفذة أن الجندي الفارسي درب على استخدام السلاح تدريبا جيدا ، وأن هذا الجندي مجهز بكل الوسائل القتالية والإدارية التي تجعله قادرا علىخوض المعركة دون شعور بأي خوف من نقص في السلاح أو الإمدادات .

كما استنتج أن الجندي الفارسي بما هو مزود به من وسائل قتالية وإدارية غير قادر على الحركة السريعة في ميدان المعركة ، في الوقت الذي أدرك فيه خالد

تميز قواته بسرعة حركتها ؛ ولذلك عمل على استغلال هذه النقطة في مناوراته العسكرية والاستفادة منها إلى اقصى حد ممكن .

وبناء عليه فرض حركات طويلة ومتعاكسة على جيش الفرس لإنهاكه كمقدمة للقيام بتوجيه الضربة القاضية له في الوقت والزمان المناسبين . اختار خالد لتنفيذ هذه الخطة التقدم من الجهة الجنوبية الغربية على واجهة عريضة يستطيع أن يناور فيها على محورين رئيسيين هما : محور كاظمة ، ومحور الجفير ، بحيث يضع القيادة الفارسية أمام مشكلة توقع المحور الرئيسي لحركة قواته التعبوية .

توجه خالد إلى الجفير ولم يتجاوزها خوفا من تدخل الفرس في حركة قواته لو تقرر الانسحاب في ظروف غير مواتية ، ثم قام بنشر بعض قواته في الأمام كقوات استطلاع قادرة على مراقبة قوات الفرس وتزويده بالمعلومات عنها أولا بأول .

علم هرمز بوجود قوات خالد بالجفير ؛ ولذلك قرر مواجهتها بسرعة ، فطلب من قواته المحتشدة في الجبهة الحركة إلى الجفير . وفعلا تحركت هذه القوات إلى هناك ولكنها لم تجد قوات المسلمين ، عندها قرر القائد الفارسي فتح قواته للمعركة وانتظار وصول جيش المسلمين إلى هناك . إلا أن قوات استطلاعه عادت وأخبرته بأن خالداً يتقدم الآن بقواته على محور كاظمة ، وفورا بدأ الجيش الفارسي حركته باتجاه كاظمة .

وبدأ خالد يلعب لعبته وينفذ خطته التي بناها مقدما ، والتي تقوم على فرض حركات طويلة على جيش الفرس لإنهاكه قبل الدخول معه في معركة حاسمة .

وصل الفرس إلى كاظمة في حالة سيئة وفتحوا قواتهم للمعركة ، فقام خالد باستغلال وضعهم النفسي والمعنوي وهاجمهم وهم على هذه الحالة ، فقتل قائدهم وألحق بجيش الفرس هزيمة ساحقة ، وهكذا نجح خالد في فرض تصوره على عدوه ونفذ الخطة التي رسمها بعناية فائقة فحقق النصر .

لم يكتف خالد بتحقيق النصر في معركة كاظمة ولكنه قرر استثمار هذا النصر ليقوده إلى نصر آخر عن طريق إدامة التماس مع قوات الفرس ومواصلة الضغط عليها ، فقام بإرسال المثنى بن حارثة لمطاردة فلول الفرس واستطلاع حركة قواتهم وتزويده بالمعلومات عنها .

بعد ذلك تحول خالد باتجاه (المذار) حيث تجمعت هناك قوات الفرس التي التحق بها فلول المهزومين من معركة كاظمة ،ووصل خالد المذار وهاجم قوات الفرس هناك وألحق بها هزيمة منكرة .

ز- معركة الولجة :

بعد الهزائم التي حلت بقواتهم قرر الفرس الدخول في مواجهة حاسمة مع قوات خالد ، ولذلك قاموا بتشكيل جيشين كبيرين : الأول بقيادة (الاندرزغز) وطلب منه أن يتوجه إلى (الولجة) ، والثاني بقيادة (بهمن بن جاذويه) وطلب منه أن يساند جيش الاندرزغز عندما يكون جاهزا .

إنطلق الفرس في مواجهتهم هذه من حقيقة أساسية مفادها أن الجيش الإسلامي لا يستطيع أن يغامر بالتوغل في أرض فارس إذا كانت هناك قوة تهدد مؤخرته وتمنعه من الاستناد إلى الصحراء أو تبعده عنها ، وبهذه الرؤية بدأوا تفكيرهم بالمواجهة مع المسلمين . تقع الولجة على الطريق ما بين الابلة والحيرة ، وبعقله النير توقع خالد أن يقوم الفرس بعملية غلق محكمة لهذه الطريق لعرقلة مسيره ، فأرسل عناصر استطلاعه التي كان معظمها من السكان المحليين الذين أصبحوا موالين له ؛ لأنهم على معرفة ودراية بطبيعة الأرض ومسالكها ، وطلب منهم أن يزودوه بكل المعلومات الممكنة عن حركة جيوش الفرس في مسرح العمليات .

تمكنت عناصر الاستطلاع من رصد حركة الجيش الفارسي الأول باتجاه الولجة فقاموا بإبلاغ خالد عن هذه الحركة ، ثم قاموا بإعلامه عن حركة الجيش الثاني

باتجاه الجنوب . بعد وصـول أخبـار جيوش الفرس إليـه ، بـدأ خـالد بعمليـة تقدير موقف بناء على الوضع المستجد ، فكان أمامه معضلتان رئيسيتان : الأولـى تتمثل بوجود جيشين كبيرين يتحركان باتجاهه معاً ، والثانيـة : تتمثل بـأن قـوات الفرس التي يتم هزيمتها في معركة ما تعود لتقاتل ثانية في معركة أخرى .

مثلت المعضلة الأولى من وجهة نظر خالد معضلة استراتيجية ، بينمـا اعتـبرت الثانيـة معضلـة تكتيكيـة . وكـان أمـام خـالد لمواجهـة المعضلـة الأولـى الاحتمـالات التالية: أن يقوم بترك قوات الفرس حتى تتجمع في مكان واحد ومـن ثـم مهاجمتهـا، إلا أن عدد الجيشين كان كبيرا مما قد يتيح لهمـا القيـام بمنـاورات حـرة ضـد قواتـه بحيث يصبح من الممكن أن يقوم أحـد الجيشـين بتثبيـت هـذه القـوات ويقـوم الجيـش الآخر بمناورة التفاف على أحد جوانبها لتطويقها وإلحاق الهزيمة بها .

أن يقوم خالد بتقسيم قواته إلى قسمين بحيث يضع القسم الثاني تحت قيادة المثنـى ابن الحارثة ويطلب منـه مواجهـةالجيش الثـاني ، بينمـا يقـوم هـو بمهاجمـة الجيـش الأول. إلا أن هذا الاحتمال قد يؤدي إلى إضعاف الجيـش الإسـلامي ، ويجعـل منـه صيدا سهلا لهذه القـوات ، كمـا أن هـذا العمـل يتعـارض مـع أحد مبـاديء الحـرب الأساسية وهو مبدأ حشد القوة .

الاحتمال الثالث هو أن يقوم خالد بكامل قواته بمواجهة الجيشين كلا على انفـراد والقضاء عليهما . إلا أن هذا الاحتمال يتطلب من خالد سرعة الحركـة والإجـراء ، كما يتطلب من قواته القدرة على تحمل القتال المتواصل مع جيشين كبيرين ، بحيث يتمكن من إنهاء مواجهته مع الجيش الأول قبل انضمام قوات الجيش الثاني إليه .

أما معضلة جنود الفرس الذين يعودون للقتال بعد كل معركة فقد قـرر خـالد أن يحل هذه القضية باللجوء إلى إبادة أكبر عدد ممكن من قـوات الفـرس فـي المعركـة وعدم السماح لهم بالانسحاب لمعاودة القتال مرة أخرى .

نظر خالد في جميع الحلول الممكنة فوجد أن الحل الثالث هو الحل الأسلم فتبنى تنفيذه ؛ ولذلك بدأ يتحرك ليفرض على العدو ظروفا غير مواتية يستغلها لتنفيذ خطته ، وأهم هذه الظروف منع قوات الفرس من القتال مجتمعة ومحاولة مواجهتها على انفراد . ومن أجل تحقيق هذه الغاية ، اعتمد خالد على مبدأين رئيسيين : الأول سرعة العمل ،والثاني استخدام المفاجأة ، والخدعة . وبناء عليه ، تحرك خالد بسرعة ووصل إلى الولجة قبل وصول الجيش الفارسي الثاني إليها ، وهكذا حقق النجاح في الخطوة الأولى ، ثم قام من أجل تحقيق المبدأ الثاني بتقسيم قواته إلى مشاة وخيالة ووضع الخيالة في قسمين خلف بعض تلال الولجة وطلب منهم عدم التدخل في المعركة إلا عند الطلب .

لقد وضع خالد بحنكته العسكرية ودهائه ، خطة تطويق محكمة لقوات الفرس ودون أن تشعر بذلك ، وشن هجومه على جيش الفرس بقوات المشاة فقط وعندما اشتد القتال ، وفي اللحظة المناسبة طلب من الخيالة القيام بالهجوم على مؤخرة الفرس ، فانقض الخيالة بقوتين منفصلتين وهاجموا مؤخرة الفرس من اليمين واليسار ، وبدأت الحلقة الفولاذية من المشاة والخيالة تطبق تدريجيا على تلك القوات إلى أن تم تدميرها نهائيا . وهكذا نجح خالد في القضاء على جيش الفرس الأول كخطوة أساسية على طريق مواجهة الجيش الثاني تطبيقا لاستراتيجية المواجهة التي تبناها .

لقد كانت مناورة الجيش الإسلامي في الولجة عبارة عن هجوم جبهوي ترافقه عملية التفاف واسعة انتهت بتطويق قوات الفرس وهزيمتها(١١) . وقد حدثت معركة الولجة في أوائل أيار عام ٦٣٣م (الأسبوع الثالث من صفر عام ١٢هـ) .

ح- معركة نهر الدم

بانتهاء الولجة يكون خالد بن الوليد قد حقق هدفه المرحلي الأول في المواجهة الشاملة مع جيوش الفرس ، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أهداف المرحلة الثانية . إلا أن انتصار خالد في الولجة قد حطم معنويات الفرس ، وجعل المواجهة القادمة أسهل بعد أن تم سحق أحد الجيشين الفارسيين الذي اهتزت لتدميره إمبراطورية الفرس بأسرها .

تجمعت فلول قوات الفرس المهزومة من الولجة في منطقة (أُليّس) على نهر الفرات وطلبت النجدة من إمبراطور الفرس ؛ فقام هذا الأخير بتوجيه جيشه الثاني الذي كان في مسرح العمليات إلى (أُليّس) لمواجهة جيش خالد هناك . وصلت هذه المعلومات إلى خالد فقرر الحركة إلى (أُليّس) بعد أن نال جيشه قسطا من الراحة استعدادا لتنفيذ المرحلة الثانية . وكان هناك سباق على الزمن بين جيش الفرس وجيش المسلمين للوصول إلى أليس ، إلا أن قوات الفرس وصلت إليها قبل قوات المسلمين بفترة وجيزة .

بعد أن وصل إلى أليس مباشرة قرر خالد الاستفادة من ميزتين رئيسيتين : الأولى : السرعة في تنفيذ الهجوم لعدم إعطاء الفرس فرصة للتنظيم والتخطيط والاستراحة من عناء المسير ، والثانية المفاجأة وذلك بشن الهجوم فور الوصول إلى ميدان المعركة لأنه من غير المتوقع أن تقوم قوة متحركة ومرهقة من عناء السفر بشن هجومها فوراً .

هاجم خالد قوات الفرس مباشرة ، وقاتلهم بضراوة حتى بدأت صفوفهم بالانهيار ومن ثم بالهزيمة ، وبدأ المسلمون بمطاردة فلولهم ، واستمرت عملية المطاردة لمدة ثلاثة أيام تمكن المسلمون خلالها من عزل مجموعات كبيرة من جنود الفرس ، فأمر خالد بضرب أعناقهم حتى تحول لون مياه النهر إلى اللون الأحمر لكثرة عدد

القتلى. وبعملية الإبادة هذه انتهت معركة نهر الدم بعد أن خسر الفرس حوالي سبعين ألف مقاتل(١٢).

إعتمد خالد في معركة نهر الدم على السرعة والمفاجأة وعنف التنفيذ في الهجوم، بينما تقيد لديه عنصر المناورة نتيجة لموقع قوات الفرس الذي استندت فيه على نهر الفرات . ولكن إذا كانت معركة الولجة قد تميزت بوقعها الشديد على الإمبراطورية الفارسية ، فقد تميزت معركة نهر الدم بعنفها وقساوتها وكثرة خسائر الفرس فيها.

ط- فتح الحيرة وتحقيق الهدف النهائي

بعد النجاح الذي حققه خالد في معركة الولجة ونهر الدم أصبحت الطريق سالكة أمامه إلى الحيرة خصوصاً بعد أن أصيبت امبراطورية الفرس بأكبر كارثة عسكرية قبل الإطاحة بها نهائيا في معركة القادسية .

بعد معركة نهر الدم قرر خالد التقدم باتجاه الحيرة ، وكان ذلك في منتصف أيار عام ٦٣٣م الموافق (مطلع ربيع الأول عام ١٢هـ) ، وفي الطريق إلى الحيرة استسلمت الكثير من المواقع دون قتال ، وأخذ المسلمون منها غنائم كثيرة تعادل جميع الغنائم التي استولوا عليها في معاركهم السابقة ، وكان من بين هذه الغنائم بعض السفن .

قرر خالد بن الوليد استخدام السفن استخداما عسكريا ، وربما تكون هذه هي المرة الأولى التي يستخدم فيها خالد السفن لأغراض عسكرية ، ولأنه لا يوجد في جيش المسلمين من يستطيع قيادة السفن فقد طلب من بعض السكان المحليين القيام بهذه المهمة .

بعد أن أنجز مهمته في شمال الجزيرة ، انطلق خالد في رحلة العودة إلى الحيرة، وبعد وصوله بقليل ظهرت تحركات عسكرية للفرس في منطقة (الحصيد) و (المصيخ) فأرسل خالد القعقاع على رأس قوة لمواجهة الفرس في الحصيد . وتولى بنفسه مهمة التعامل مع حشود الفرس في المصيخ بعد أن أخذ هذا الحشد بعدا خطيرا .

وللتعامل مع هذا الهدف خطط خالد لمواجهة المصيخ بمناورة عسكرية تتسم بالصعوبة وتتطلب السيطرة والتوقيت الدقيق والقدرة على الاتصال ، وهذه المناورة تتلخص بشن هجوم من ثلاث شعب في آنٍ واحد على أن يتم توقيتها ليلاً لتحقيق المفاجأة الكاملة لقوات العدو .

وفي الأسبوع الأول من تشرين الثاني عام ٦٣٣م الموافق (الأسبوع الرابع من شعبان عام ١٢ هـ) شن هجومه الليلي على ثلاثة محاور وحقق مفاجأة كاملة على قوات الفرس التي لم تتوقع هجوم المسلمين ولم تعلم عنه إلا بعد أن أصبحت صيداً سهلاً أمام قوات خالد ، فهزمت وتفرق شملها . كرر خالد هذا النوع من المناورات في هجومه على منطقة الثني والرميلة واستطاع في أقل من شهر أن يسحق قوات الإمبراطورية الفارسية في أربع معارك رئيسية منفصلة . بعد هذه السلسلة من المعارك المتواصلة في العراق يمكننا تحديد أهم الدروس العسكرية التي برزت في هذه المعارك على النحو التالي :-

- ◊ كان لعنصر السرعة أثر حاسم على نتائج معارك خالد ، خصوصا في معركة الولجة ونهر الدم .
- ◊ قابلية الحركة : ساهمت هذه الميزة بصورة إيجابية لصالح قوات المسلمين ، بينما كانت حركة قوات الفرس مقيدة نوعا ما . إن قابلية الحركة أعطت خالداً القدرة على المناورة بصورة عالية ، كما ساهمت في إعطاء خطط خالد المرونة المطلوبة لمواجهة ما يستجد من مواقف على مسرح الأحداث .

◊ الحرب النفسية : إستخدم خالد الحرب النفسية بأشكالها المختلفة لتحقيق أهدافه العسكرية ، فبدأ هذا الجانب من الحرب برسالته إلى هرمز ، ثم بالعنف الذي استخدمه في معركة نهر الدم ، ثم في دومة الجندل عندما قتل قائد العرب النصارى ومن أسرهم أمام الجند المدافعين عن الحصن ، وجميع هذه الأعمال تمثل أشكالا مختلفة للحرب النفسية التي تبناها خالد في حروبه.

◊ دور القيادة : في معارك العراق بدأ ظهور واضح لعبقرية خالد العسكرية تجسدت من خلال استخدامه للأشكال المتعددة من المناورات مثل الهجوم الجبهوي الذي تصاحبه عملية تطويق ، والهجمات الليلية ،والهجمات المتعددة الشعب والمحاور حتى أصبح خالد يناور بجيشه كلاعب شطرنج . كما ظهرت عبقريته التنظيمية في استخدام التنظيم المناسب في الوقت المناسب والزمان المناسبين . فأثناء التقدم من دومة الجندل إلى الحيرة استخدم أسلوب التقدم العصري ، فقسم قواته إلى حرس مقدمة ، وقوة رئيسية ، وحرس مؤخرة ، وهذا هو التنظيم المستخدم في تقدم القوات في الوقت الراهن .

◊ لقد أكدت حروب العراق أن هذا القائد البارع ليس لديه حلول وسط أو اعتدال، كما أكدت أنه رجل يميل إلى العنف ، وهذه الصفة ليست منقصة بالقائد العسكري بل هي ضرورة لازمة لقائد يواجه قوات إمبراطورية كبيرة تفوقه عددا وعدة . كل هذه الصفات القيادية جعلت من وجود خالد على رأس القوات الإسلامية وجودا حاسما في تحديد نتائج الحرب .

ي- مناقشة معارك العراق

عندما وجه أبو بكر رسالته إلى خالد بن الوليد يطلب فيها منه أن يتوجه إلى الحيرة كان قد كتب رساله مماثلة إلى القائد عياض بن غنم طلب منه فيها التوجه

إلى الحيرة أيضا وقال له : " سر حتى تأتي المصيخ فابدأ بها ثم ادخل العراق حتى تلتقي خالد بن الوليد " وأكمل أبو بكر رسالته إلى القائدين قائلا: " وأذنا لمن شاء بالرجوع ولا تستفتحا بمتكاره ، ثم استبقا إلى الحيرة فأيكما سبق إليها فهو أمير صاحبه ، وإذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما حصون فارس ، وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما ردءا (عونا) لصاحبه بالحيرة وليقتحم الآخر عدو الله عزهم المدائن " (١٣).

من الرسالة السابقة يتضح أن أبا بكر قد اتخذ قرار المواجهة الشاملة مع الإمبراطورية الفارسية حتى إسقاط المدائن ، على أن يكون ذلك على مرحلتين : يتم في الأولى احتلال الحيرة ، ثم القيام بمهاجمة عاصمة الإمبراطورية في المرحلة الثانية .

إلا أن الخليفة قد أوقف العمليات على جبهة العراق وطلب من خالد بعد أن أنهى المرحلة الأولى باحتلال الحيرة أن يتوجه إلى الشام . وبذلك لم تحقق معارك العراق الهدف النهائي منها ، بل اكتفى المسلمون بتحقيق هدفهم الأولي.

ولا يعرف أحد على وجه التحديد ما هي الأسباب التي حدت بالخليفة إلى تغيير قراراته و أولوياته بالمواجهة والانتقال من مواجهة الفرس إلى مواجهة الروم . إلا أننا نعتقد أن هناك سببا أو أكثر من الأسباب التالية هي التي أدت إلى تغيير القرار:

١ - إن تحقيق المرحلة الأولى على جبهة العراق قد حول الموقف لصالح المسلمين على الجبهة ، وأصبحت الامبراطورية الفارسية غير قادرة على التدخل في العمليات الإسلامية ، على جبهة بلاد الشام فيما لو عمل المسلمون على هذه الجبهة ، بينما الاستمرار على جبهة العراق يبقي قوات الإمبراطورية الرومانية قادرة على التدخل في عمليات الجيش الإسلامي على هذه الجبهة ، ولذلك قرر الخليفة المبادرة إلى المواجهة مع الإمبراطورية الرومانية .

٢ - إن احتلال الجيش الإسلامي للمنطقة الواقعة بين النهرين كان بمثابة خرق واسع يمنع الاتصال بين الإمبراطورية الفارسية والرومانية أو أي تعاون مستقبلي بينهما ، كما يؤمن جناح القوات الإسلامية الشرقي أثناء حركتها على جبهة بلاد الشام ، وهذا ما كان يسعى إليه الخليفة أبو بكر على ما يعتقد.

٣ - رغبة أبي بكر في الاستفادة من خالد بن الوليد القائد الفذ ، وقواته التي أثبتت أنها من خيرة القوات الإسلامية خبرة وتدريباً في مواجهة الإمبراطورية الرومانية التي باتت جيوشها تشكل تهديداً خطيراً للجيوش الإسلامية في مسرح عمليات بلاد الشام .

هذه الأسباب هي التي جعلت الخليفة يتخذ قراره بتحويل المواجهة من جبهة العراق إلى جبهة بلاد الشام ، بعد أن حققت القوات الإسلامية النتائج الرئيسية التالية:

- تحرير حوض الفرات وزيادة الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية .
- خلق الجندي المسلم المدرب ذي الخبرة الواسعة في قتال الجيوش المنظمة، بعد أن كان قد اعتاد الغزو الذي يعتبر شكلاً من أشكال دوريات الإغارة ، كما عملت هذه الحروب على صقل القيادة العسكرية الإسلامية وأكسبتهاالخبرة التي تؤهلها لخوض المعارك وتخطيط الحروب مع أكثر الدول تقدما من الناحية العسكرية في ذلك العصر .
- حققت حروب خالد في العراق نقلة نوعية في موقف الدولة الإسلامية بين دول ذلك الزمان ، كما أدت إلى رفع معنويات السكان وزادت من شعورهم بالقدرة على تحقيق أهدافهم .
- نبهت الفرس والروم إلى الخطر المحدق بالإمبراطوريتين من قبل القوة الناشئة في الصحراء العربية .

- ساهمت في تحسين الوضع الاقتصادي للدولة الإسلامية مما ساعد على تطوير موقعها السياسي والعسكري وأعطاها القدرة على تشكيل الجيوش الكبيرة وتجهيزها استعداداً للفتوحات القادمة .
- تحقيق هدف الدولة الإسلامية الأسمى وهو نشر العقيدة بين أكبر قطاع ممكن من الشعوب خارج الجزيرة العربية .
- أضعفت حروب خالد في العراق من الموقف العسكري الدولي للإمبراطورية الفارسية .
- زوال حكم الإقطاع في الأراضي التي تم تحريرها . (١٤)

وأخيراً يصف عبد الجبار السامرائي في كتابه الموسوم "معارك خالد بن الوليد ضد الفرس" أهمية فتح الحيرة بقوله : "إن السيطرة على هذا الموقع الاستراتيجي تعتبر سيطرة على قلب العراق وهي أقرب منطقة مهمة إلى المدائن عاصمة الإمبراطورية الفارسية التي كانت تدرك القيمة الاستراتيجية للحيرة ، لأن المسيطر على الحيرة يؤمّن سيطرته على المنطقة الكائنة غرب الفرات بأجمعها ، وهي عدا عن هذا كانت مهمة للقوات العربية في قتالها ضد الروم في بلاد الشام " (١٥).

هذه هي أهم النتائج التي تمخضت عنها باكورة حروب القائد العظيم خالد بن الوليد الذي أطلق عليه ﷺ لقب سيف الله المسلول . لقد حقق هذا القائد المهمة التي أسندت إليه من قبل الخليفة بصورة لم يسبق لها مثيل في الجرأة والإقدام .

٣ - مبادئ الحرب عند خالد

عرّف فون كلاوزفيتز الحرب فقال : "الحرب هي مجرد استمرار للسياسة بوسائل أخرى عنيفة ، وهي من أعمال العنف ، المقصود منها إجبار الخصم على العمل حسب إرادتنا " . وتعرف كلية الحرب الصينية الحرب : بأنها "عمل من أعمال النزاع المنظم بين مجموعات سياسية "دول" لإجبار الخصم على القيام بالعمل حسب إرادة الدولة السياسية" (١٦).

أما تعريف الحرب كما أراه فهي : "عبارة عن عملية استخدام منظم للعنف يقصد منها تحطيم إرادة الخصم وتحديد قدرته على المناورة السياسية بما يسمح بفرض إرادة المنتصر قسراً " .

والحرب من خلال هذه التعاريف تمثل عملية تغيير في واقعٍ ما مرفوض أو غير مقبول من أحد طرفي النزاع بحيث يدفع به هذا الرفض إلى محاولة تغيير هذا الواقع بما يتناسب ومصالحه الاستراتيجية عن طريق استخدام القوة . وفي الغالب فإن الطرف المبادر إلى استخدام القوة يرتكز في توجيهاته هذه على عملية تقدير واسعة النطاق لحجم المشكلة ، وموازين القوى والنتائج التي يمكن تحقيقها . وفي الكثير من الحروب فإنه من الممكن للطرف المنتصر أن يقوم بحشد إضافي لأهداف أخرى إضافة إلى الأهداف الرئيسية التي شنت الحرب من أجلها ، وهو ما يمكن أن نسميه أهدافاً متاحة ، سمحت بتحقيقها عملية استخدام القوة وبالتالي فإن النتائج الكلية تصبح معتمدة اعتماداً رئيسياً على منطق القوة الذي فرض نفسه أخيراً على ساحة الصراع. وفي هذه الحالة يعتمد حجم الأهداف المتحققة اعتمادا أساسياً على مستوى التغيير الذي طرأ على القوة المنهزمة وحجم الأضرار التي لحقت بها ومستوى التراجع الذي أصاب إمكانيات مقاومتها .

ولأهمية الحرب وما يترتب عليها من نتائج فقد أولتها الدول قاطبة وخبراء الاستراتيجية والحرب أهمية استثنائية ، ووضعت لها المبادىء والأسس والمنطلقات، وظهر في هذا الموضوع اتجاهات كثيرة واجتهادات أكثر . وأصبحت معظم الدول وخصوصاً القوية منها تمتلك مبادىء للحرب تلتقي في جزء منها مع مبادىء الدول الأخرى وتختلف في جزئها الآخر مع تلك المبادىء ، وقد تطورت هذه المبادىء وستظل تتطور اعتماداً على مايلي :

١ - تطور طبيعي ناتج عن التطور الحاصل على الفكر العسكري .

٢ - تطور يتناسب وتطور الأسلحة البرية والبحرية والجوية التقليدية وغير التقليدية .

٣ - الدروس التي تظهرها المعارك والتي تستدعي إعادة النظر في بعض المبادىء والعمل على تعديلها وما يتناسب مع حقائق الدروس الجديدة .

وقد بحث الكثير من المفكرين العسكريين في هذه المبادىء ، وكان أهم من بحث فيها هندرسون وفوش وكلاوزفتيز وليدل هارت ومونتغمري وغيرهم من عباقرة الحرب والاستراتيجية . وظهر اختلاف واضح بين المفكرين والقيادات العسكرية السابقة حول هذه المبادىء ، ويعود السبب في ذلك إلى انتساب كل منهم إلى مدرسة متميزة ، مثل المدرسة العسكرية الألمانية والبريطانية والفرنسية وغيرها ، وقد توصل معظم هؤلاء إلى مبادئهم المميزة نتيجة لتسخير قدراتهم العسكرية وتجاربهم في الحروب التي خاضوها .

إن ظهور مبادىء الحرب في القرن الحاضر أو الذي سبق لا يعني بالضرورة أن القيادات التاريخية أمثال خالد بن الوليد وهنيبال و الاسكندر الكبير لم يكن لها اهتمام بمثل هذه المبادىء . والملاحظ من خلال دراسة معارك القيادات القديمة وحروبها ، أن هذه القيادات قد اعتمدت على مبادىء مماثلة إن لم تكن متطابقة مع

مبادىء الحرب في عصرنا الحاضر مع أخذ طبيعة الحرب وأدواتها في ذلك الزمن بعين الاعتبار .

وإذا كانت القيادات القديمة قد اهتمت بمثل هذه المبادىء ، فإنه من المؤكد بأن خالد بن الوليد كان على رأس تلك القيادات ، لما كان يتمتع به من مواهب عسكرية جعلته من ألمع القيادات العسكرية الاستراتيجية .

تؤكد الحروب التي خاض خالد غمارها ، على أن هذا القائد قد طبق في معاركه المختلفة معظم مبادىء الحرب المعروفة في وقتنا هذا ، ومن غير المستبعد أن تكون القيادات المعاصرة قد تعلمت ونقلت عن حروبه الكثير من هذه المبادىء .

إلا أن خالداً قد تميز عن غيره من القيادات الأخرى وخصوصاً المعاصرة منها، انه لم يتعلم مبادئه الحربية في المدارس العسكرية أو كليات الحرب ، كما أنه لم يطلع على تاريخ المعارك والحروب ، بل نشأ في جو عربي صحراوي تميز سكانه بالبداوة وصفاء الذهن ، ولذلك استنبط خالد بعض هذه المبادىء بعبقريته الفذة من جهة ، وتعلم بعضها الآخر من الأحداث التي كانت قائمة في ذلك الزمن في الصحراء العربية من جهة أخرى . وقد تم صقل جميع هذه المعارف بعد إسلامه ، ومشاركته العملية للنبي ﷺ في حملاته المختلفة .

ومن خلال قراءتنا التحليلية لمعارك خالد بن الوليد فإننا سنحاول التعرف على أهم مبادىء الحرب التي تبناها أو عمل بها ، ومن ثم سنقوم بمقارنتها مع تلك المبادىء التي طبقها أو قال بها العسكريون المعاصرون الكبار . وسوف نستعرض ذلك بعد عملية تعريف شاملة بأهم مبادىء الحرب التي تبنتها القيادات المعاصرة ، ومن ثم ننتقل إلى مقارنة مبادىء خالد مع مبادىء هذه القيادات .

أ - مبادئ الحرب عند خالد

كما سبق أن بينا فإن المبادىء الأساسية للحرب قديمة قدم الحروب نفسها ، وقد تطورت على مر العصور واشتقت أصولها من كلا النجاح والفشل في الحروب المختلفة ، كما أنها طبقت جميعها أو معظمها بنسب مختلفة باختلاف المدارس العسكرية للأمم واختلاف القيادات المعنية بالحرب . ومع التطور التقني والعلمي الكبير الذي شهدته وسائل الحرب البرية والبحرية والجوية ، لم تلغ هذه المبادىء أو يتغير جوهرها بل ربما أضيف إليها وتم تعديلها أو دمجها فقط ، والشيء الوحيد الذي أصابه التغيير هو وسائل وأساليب تطبيق هذه المبادىء . إن التطور الذي أصاب العلوم المختلفة مع مرور الزمن والتغيرات التي طرأت على قوانينها وبديهياتها ومبادئها الأساسية قد أصاب أيضا علم الحرب ، الذي اهتم به الإنسان حتى قبل اهتمامه بالعلوم نفسها لحاجته الفطرية إلى ذلك .

ومن المؤكد أن القيادات العسكرية على اختلافها معنية بهذه المبادىء كما أنها معنية بالاطلاع على التاريخ العسكري وسير مشاهير القادة ومعاركهم ، وذلك نظراً للدروس التي يمكن تعلمها والعبر التي يمكن استنباطها والمعارف الإضافية التي تضاف إلى معارفهم من خلال اطلاعهم على النجاح والفشل الذي صادف بعض هؤلاء القادة في معاركهم . وقد أشار نابليون إلى أهمية المعارف السابقة حيث قدم نصيحته للعسكريين حين قال : "إقرأ وأعِد قراءة الحملات السابقة" (١٧) وذلك للدلالة على أهمية قراءة التاريخ العسكري ومعاركه المختلفة ودور القيادات في النجاح والفشل .

إن دراسة مبادىء الحرب وفهمها من الضرورات الأساسية لفهم دراسة التاريخ العسكري وتحليله ، حيث تمكن هذه المبادىء المطلعين عليها من استيعاب تسلسل الأحداث التي قادت إلى النصر أو الهزيمة في أي معركة من المعارك ؛ لأن هذه

المباديء تعمل بانتظام في أي حرب ، إن أي تحليل لأي عملية عسكرية سيكشف عن المباديء الحربية التي استخدمت أو أهملت في التطبيق ، كما يمكن من خلال الفهم الحقيقي لمباديء الحرب أن نوصف سبب النجاح أو الفشل للقيادات المشاركة في المعارك ، علما بأنه لاتوجد عملية عسكرية واحدة يتم فيها التطبيق الكامل والصحيح لجميع هذه المباديء .

إن أي قائد عسكري ناجح لابد وأن يكون قادراً على تطبيق مباديء الحرب أو بعضٍ منها على أقل تقدير ، وذلك وفق ما تقتضيه المواقف الحربية الراهنة ، أو أن يكون قادراً على وضع أولويات التطبيق للمباديء المختلفة وفقا لما تقتضيه طبيعة الحرب . بمعنى أن يعرف أهم المباديء التي يجب التركيز عليها وفق ما يمليه عليه الموقف في مسرح العمليات ؛ لأن القائد يجب أن يكون على دراية أكيدة بما هو مقدم عليه ، علما بأنه ليس ضروريا للقائد أن يقوم بالتركيز على جميع المباديء، فالموقف قد يحتم عليه عدم التقيد بمبدأ ما من أجل تطبيق مبدأ آخر قد يخدم غرضه في النهاية بصورة أفضل .

اما اهم مباديء الحرب بصورة مختصرة فهي كما يلي :

١ – القصد :

إن هذا المبدأ يتطلب معرفة الهدف بشكل واضح من قبل القوات المسلحة ، وهذه المعرفة ضرورية لكل مستويات القيادة والتشكيلات . كما يجب التأكيد على أنه إذا كانت هناك أهداف فرعية تستوجب التحقيق أن يساهم تحقيقها بصورة أو بأخرى في تحقيق هدف الحرب المستخلص من الاستراتيجية القومية للدولة ، كما يقع على عاتق القيادات المختلفة فهم وتحديد كل هدف تحديدا دقيقاً حتى تتمكن هذه القيادات من تحضير نفسها لتقديم ما قد يطلب منها بصورة صحيحة .

٢ - الحشد :

يتعلق هذا المبدأ بالقوة المطلوبة لتحقيق الهدف ، وانطلاقا من هذا المبدأ فإن على القيادة المعنية بإدارة الحرب أن تكون قادرة على حشد القوات الكافية في الزمان والمكان المناسبين .

ويتطلب هذا المبدأ التفوق على العدو سواء من حيث الكم أو النوع على صعيد الأفراد والمعدات ، كما يستوجب الاستخدام الأمثل لهذه القوات .

٣ - التعرض :

إن استخدام مبدأ التعرض يمكّن القائد المعنيّ من فرض إرادته على العدو ، وبالتالي فرض أسلوب خوض المعركة عليه . ويحتاج تطبيق هذا المبدأ من القائد إلى التحلي بالروح العدائية ، ومرونة التفكير ، مع القدرة على إنجاز القرارات السريعة المناسبة والمعقولة .

ويعتبر هذا المبدأ على درجة كبيرة من الأهمية إذا ما أريد تحقيق النتائج الحاسمة من الحرب والمحافظة على حرية عمل القوات ، كما أن هذا المبدأ يمكّن القائد من استثمار نقاط الضعف لدى عدوه ، ويتسبب في رفع معنويات الجند ، ويولد لديهم التفكير الخلاق .

٤ - الاقتصاد في الجهد :

يرتبط هذا المبدأ ارتباطاً وثيقاً بمبدأ الحشد ، وتطبيق هذين المبدأين يتطلب من القيادات المختلفة تقديراً صحيحاً لما يكفي من القوة لتحقيق الهدف ، مما يعني استخدام ما يكفي من القوة لتحقيق المهمة دون إحداث أي هدر غير مبرر في هذه القوة . وهذا يعني أيضا ، استعمال القوة الكافية لتنفيذ المهمة وليس استعمال أقل ما يمكن من القوة . وبصورة عامة يمثل هذا المبدأ الاستخدام المتوازن للقوى والتصرف الحكيم بجميع الموارد للحصول على الحشد المؤثر .

إن هذا المبدأ لايرتبط فقط في قوة العمل الرئيسية ، بل يتعدى ذلك ليطبق على قوة الاحتياط التي قد تشارك في لحظة من اللحظات القوات الرئيسية لمساعدتها على إنجاز مهمتها ، أو مواجهة أي طاريء قد يعيق عملها .

وفي إطار الاستراتيجية العظمى للدولة فإن هذا المبدأ يعني استخدام ذلك الجزء من القوة الوطنية المتوفرة بما يتناسب والمكاسب المتوقع الحصول عليها من خلال تحقيق الهدف السياسي للحرب .

٥ - المفاجأة :

تعني المفاجأة قدرة القيادة على مختلف مستوياتها على ضرب العدو المقابل في المكان والزمان غير المتوقعين ، مما يتسبب في اختلال توازن العدو وتحطيم إرادته على القتال . والمفاجأة عادة ما تكون على مستويات ، فقد تكون استراتيجية شاملة أو تعبوية تكتيكية محدودة .

إن تحقيق المفاجأة ليس بالأمر اليسير ، خصوصاً في الظروف الراهنة ، ولذلك فإن تحقيق هذا المبدأ يحتاج إلى السرية ، وسرعة الحركة عند العمل ، والاستخدام الجيد للأرض ، وابتكار الأساليب التعبوية والمناورات الميدانية .

إضافة إلى هذه المباديء ، فهناك بعض المباديء الأخرى مثل الإدارة والمعنويات والتعاون والمرونة والأمن ، وتطبيق كل هذه المباديء بناء على اعتبارات المدارس العسكرية المختلفة . ولكن ما تم التعرض إليه من مباديء بصورة موجزة يمثل ما تم الاتفاق عليه من غالبية القيادات والمدارس العسكرية المختلفة .

إن هذا الموجز عن مباديء الحرب قد يعطي القاريء فكرة بسيطة تساعد على فهم وتحليل المباديء الحربية التي طبقها خالد بن الوليد والتي سوف نقوم بالتعرض إليها في الفقرة التالية .

ب - المبادىء التي وضعها خالد بن الوليد

١ - إختيار الهدف أو القصد وإدامته

من المعروف أن الهدف النهائي لأي قائد في المعركة هو تحطيم إرادة العدو على القتال ودحره ، ومن ثم العمل على تدميره لتحقيق الهدف أو إنجاز المهمة . ومن استعراضنا لمعارك خالد بن الوليد ، نلاحظ أنه كان يختار هدفه بعناية بعد تفكير شامل وفحص دقيق للظروف ، وقد كان يعمل قصارى جهده لبلوغه وعدم التحول عنه قبل الحصول عليه . ولذلك كان يوجه كل قدراته المادية والمعنوية لخدمة ذلك ؛ فعندما اختار عبور الصحراء والمجازفة بقواته ، كان هدفه الوصول بأقصى سرعة لنجدة المسلمين في بلاد الشام . وعندما هاجم أجنادين كان يسعى لتحطيم قوات الروم ومنعها من القيام بتطويق القوات الإسلامية أو عزلها . وفي كلتا الحالتين ، أصر خالد على بلوغ الهدف على الرغم من كل المصاعب والمشاق التي واجهته . وفي معركة أحُد رفض الهزيمة وأصر على هزيمة المسلمين ، وفي حروبه في العراق كان هدفه الحيرة فتحقق له ذلك بأسرع مما هو متوقع .

٢ - الحشد

إذا كان مبدأ حشد القوة يعني جمع أكبر قوة ممكنة لتحقيق الهدف ، ويقتضي التفوق العددي على قوات العدو ، فإن خالد بن الوليد حارب معظم معاركه عدوا يفوقه عدداً وعدة ، ومع ذلك فإنه كان يحشد القوة المتوفرة لديه في كل معركة معتمداً على نوعية جنوده لردم الهوة بين أعداد جنوده وجنود عدوه .

وقد اعتمد خالد في كل معاركه على حشد القوات المتوفرة ، ففي معركة اليرموك على سبيل المثال ، حشد جميع القوات الإسلامية لمواجهة الروم ، وفي

معركة أجنادين قام بحشد قوات قادرة على مواجهة جيش الروم عندما وجد بأن قوات عمرو بن العاص غير كافية للقيام بهذه المهمة . وفي معركة اليمامة ضم إلى قواته قوات شرحبيل بن حسنة ، وفي حروبه في العراق ضم إليه قوات المثنى بن حارثه الشيباني .

لقد اعتمد خالد في كل المعارك التي خاضها على نوعية رجاله ، وقدرته على المناورة ، ففي معارك العراق حاول الفرس وضع قوات خالد بين فكي كماشة بعد أن حشدوا أعدادا هائلة من المقاتلين ، وللتغلب على مشكلات التفوق العددي الكاسح لدى الفرس قام بمناورته الفذة التي قضى من خلالها على الجيشين كلاً على انفراد، وحطم فكي الكماشة قبل أن تتمكن من الإطباق على قواته .

٣ - التعرض

يعتبر هذا المبدأ من أهم المباديء لأي قائد يسعى للحصول على زمام المبادرة من عدوه المقابل ، كما يعطي القيادة التي تتمسك به حرية العمل في ميدان المعركة، وغالباً ما يكون الهدف المباشر من التعرض هو تحطيم قوات العدو والقضاء عليها.

وبناء عليه فإنه إذا استعرضنا المعارك المختلفة التي خاضها خالد بن الوليد نجد بأن سيف الله قد تمسك بمبدأ التعرض في جميع هذه المعارك على الإطلاق ، ليس هذا فحسب ، بل لعل أبرز ما يميز عمليات خالد بأنها جميعا كانت عمليات تعرضية، ولم نقرأ لخالد عن أي عملية اكتفى فيها بدخول معركة دفاعية محضة ، حيث كان تفكيره الاستراتيجي وعبقريته العسكرية تسمحان له بهذا العمل الحاسم ، ولذلك فإنه لم يفكر على الإطلاق باللجوء إلى مفهوم الحرب الدفاعية طيلة حياته.(١٨)

لقد مزج خالد مبدأ التعرض بالعنف ، مما جعل من هذا المبدأ أقرب إلى تحقيق الهدف وأجدى في أضعاف قدرة العدو في المدى البعيد والقريب . وقد طبق خالد

مبدأ التعرض العنيف في أكثر من معركة إلا أن أشدها وضوحاً كان في معركة النهر .

إن تطبيق خالد لمبدأ التعرض جعله يلتقي مع الكثير من القيادات العسكرية القديمة والمعاصرة ، إلا أن خالداً قد تميز عنهم بتطبيق مبدأ التعرض العنيف الذي يفقد العدو توازنه ويحطم معنوياته ويدفع به إلى الانهيار .

٤ – المفاجأة

يعتبر مبدأ المفاجأة من المباديء التي اعتمدها خالد بن الوليد في عملياته العسكرية ، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن انتصارات خالد في معاركه التي خاضها عائد إلى تمسكه بهذا المبدأ . وفي الواقع وكما سبق وأن ذكرنا فإن هذا العنصر يستوجب بعض المتطلبات لتحقيقه ؛ ولذلك فإن خالداً قد عمل على التمسك بكل العناصر التي تساهم في تحقيقه مثل اعتماد السرية وسرعة الحركة ، واستخدام الأرض والمناورة .

ففي معركة أُحد باغت خالد بن الوليد المسلمين وحول نصرهم إلى هزيمة ، وفي عبوره صحراء بلاد الشام باغت قوات الإمبراطورية الرومانية ، وفي الولجة باغت قوات الاندرزغز ، وهناك كثير من المواقف التي أكدت أن خالد بن الوليد هو رجل المفاجآت حقا .

لقد مزج خالد بن الوليد عنصر المفاجأة بالجرأة والمخاطرة المحسوبة ؛ مما مكنه من تحقيق النصر في جميع عملياته العسكرية التي خاضها قبل الإسلام وبعده.

٥ – المرونة

تُعرف المرونة على أنها تعبير عن القدرة على التصرف بهدوء عند حدوث أي تغيير في المواقف أو الخطة الموضوعة ، كما أنها تعبير واضح عن القدرة العقلية

وسرعة اتخاذ القرار من قبل القيادة لمواجهة أي طارىء وقد عرف هذا المبدأ قبل الحرب العالمية الثانية بمبدأ قابلية الحركة (١٩).

والمتتبع لأعمال خالد العسكرية لا بد له وأن يلاحظ بأن جميع خططه العسكرية قد اتسمت بمستوى عال من المرونة التي تناسب مختلف المواقف .

ولا شك بأن ذلك عائد في معظمه إلى عقلية خالد وأفقه الواسع ولتحقيق هذا المبدأ فقد اعتمد خالد على العناصر الرئيسية التالية :

أ ـ المحافظة على قابلية حركة عالية لقواته .

ب ـ القدرة على المناورة وتعدد أشكالها .

ج ـ تجميع القوات بصورة تمكنه من مواجهة المواقف المختلفة أو الطارئة .

د ـ إستخدام أساليب جديدة في القتال .

هـ ـ المحافظة على السرية والكتمان لجميع الإجراءات العسكرية التي كان يقوم بها .

ونتيجة لهذه الأسباب نجح خالد بن الوليد بمفاجأة أعدائه في معظم معاركه واستطاع أن يقوم بمواجهة الكثير من المواقف المستجدة التي ظهرت في الكثير من المعارك التي خاضها . ففي معركة اليرموك كان خالد على رأس قوة متحركة في الاحتياط يوجهها إلى أي موقع يواجه بعض الصعوبات أو المشاكل، لتقديم الدعم والإسناد وتعديل الأوضاع المستجدة .

كما طبق خالد هذا المبدأ بمفهومه المعاصر والشامل بحيث كان يراقب المعركة ويتحرك في الزمان المناسب إلى المكان المناسب ، بعد أن يكون قد عمل تقدير موقف عسكري سريع واستنتج ما يستوجب عليه أن يفعله . وبذلك يكون خالد قد استخدم قابلية قواته على الحركة ومرونته العقلية لتحقيق هذا المبدأ (٢٠).

٦- التعاون

يعتبر التعاون من مبادىء الحرب التي يجب أن يؤخذ بالحسبان ؛ وذلك لأهمية التنسيق بين مختلف صنوف القوات المسلحة البرية والبحرية والجوية من جهة ، وبين تشكيلات الصنف الواحد من جهة أخرى ويتطلب تحقيق هذا المبدأ وجود قيادة موحدة لمختلف الصنوف والتشكيلات ؛ بحيث تحقق التعاون الفعال بين مختلف الفروع . وقد عمل خالد بهذا المبدأ على نطاق واسع ، فقد أمّن -على سبيل المثال- التعاون بين قواته وقوات المثنى بن الحارثة في مسرح عمليات العراق ، وأمّن التعاون بين قواته ، وجيوش المسلمين في بلاد الشام . وفي معركة اليرموك استطاع تأمين التعاون بين القوات الاحتياطية والقوات الرئيسية المشاركة في المعركة ، كما أنه أمّن التعاون بين التشكيلات المختلفة للقطعات المقاتلة .

٧- المعنويات

للمعنويات أثر واضح على نتائج الحروب ، وبالقدر الذي تكون فيه معنويات المقاتلين عالية بالقدر الذي يكون لديهم التصميم الأكيد على القتال وتحمل أعباء المعركة . ويعتبر النصر هو العنصر الأساسي في رفع معنويات الجنود ، كما أن الثقة بالقيادة لها دورها المميز في تحقيق ذلك ، وتعتبر المعنويات سلاحا فعالا في يد القائد ، عليه أن يستغلها عند جنوده ويعمل على تنميتها باستمرار .

وإذا كان للثقة بالقائد دورها في التأثير على معنويات الجند فبالتأكيد أن وجود خالد على رأس كل حملة كان يعطي الزخم الهائل لمعنويات المقاتلين ، فقد كان مضرب المثل لجنوده ، وكان مكانه في الأمام دائما ، يقود جنده من نصر إلى نصر .

هذه هي أهم المبادىء التي طبقها سيف الله في معاركه ، وإن كان قد طبق مبادىء أخرى غيرها ، إلا أن هذه المبادىء هي أهم وأبرز ما طبقه خالد في حروبه.

أردنا أن نبينها بالشواهد والأدلة للتأكيد على أن هذا القائد الفذ كان قد سبق غيره من القيادات في تطبيقها .

إن إجراء مقارنة بين مبادىء الحرب عند خالد وعند غيره من القيادات المعاصرة سيقودنا حتماً إلى الحكم بأن سيف الله كان يتفوق عليهم جميعا .

مباديء الحرب المقترحة من مختلف المفكرين العسكريين

	خالد بن الوليد ٦٣٦	كلوازفيتز ١٨٣٠	هندرسون ١٨٩٩	فورتش ١٩٠٣	كولين ١٩١٢	موورايس ١٩٢٩	ليدل هارت ١٩٢٩	مونتغمري ١٩٤٥	ماكلين ١٩٤٨
الادارة								×	×
القوة الجوية								×	×
الحشد	×	×	×		×	×		×	
التعاون	×					×		×	
الاقتصاد في القوة						×	×		
استثمار الفوز				×			×		
المرونة	×						×		×
حرية العمل				×					
قابلية الحركة	×	×			×	×		×	
المعنويات	×	×							
التعرض	×	×			×	×		×	×
المطاردة	×	×	×						
الأمن		×	×	×	×	×			×
القصد	×	×		×	×	×	×	×	×
المفاجأة	×	×		×	×	×	×	×	×

٤- إستراتيجية خالد

عندما نتحدث عن القائد العسكري خالد بن الوليد ، فإننا لا نتحدث عن قائد من طراز القيادات العسكرية المألوفة . وللحقيقة فإننا عندما نتحدث عن خالد فإننا نتحدث عن ظاهرة عسكرية فريدة ، ظاهرة بكل ما في الكلمة من معنى .

جرأته في الحرب أسطورة ، مبارزاً محترفاً ومهاجما عنيفاً، فالمعركة بالنسبة له لم تكن مناورة ميدانية بارعة تحقق النصر على العدو ، بل كانت عملا عنيفا يجب أن ينتهي بتدمير قوات العدو وإبادتها إبادة كاملة .

هو أول من أنزل هزيمة بقوات المسلمين في أُحد ، وهو أول قائد مسلم يجتاز حدود الجزيرة العربية ليفتح البلاد ويخضع أقوى الإمبراطوريات ، حتى أصبحت معاركه مرجعا للقيادات العسكرية في فن المناورة والقيادة . خاض منذ غزوة أُحد وحتى عزله واحدا وأربعين معركة –عدا عن الغارات والاشتباكات الصغيرة – ولم يقهر في أي معركة ، ولذلك استحق لقب القائد الذي لا يقهر .

فإذا كان خالد رجل حرب بهذه الصورة ، فإن من حقنا أن نسأل : لماذا اندفع خالد إلى المعارك بهذا الإقدام وكأنما خلق لها أو خلقت له ؟ إن خالداً لم يحترف الحرب ليجمع من ورائها مالا ، فهو وريث أغنى أغنياء عصره ، ولا ليحوز مجدا فهو من عشيرة بني مخزوم صاحبة المجد والشرف الرفيع بين القبائل ، ولا ليظهر شجاعته أو بطولته ، فهما لا تحتاجان إلى إثبات أو دليل ، ولا ليوسع ملكاً فملكه معروف للجميع .

وإذا كانت الأعمال تقاس بنتائجها ، فإن خوض خالد لغمار الحرب قد عكس غاياته الإنسانية العليا التي كان في مقدمتها تحرير الإنسان ، وإعادة الإنسانية الضائعة لأهلها امتثالا لقوله تعالى : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله

﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾[٢١] وبناء عليه فإن الحروب التي دخلها خالد وخاض غمارها لم تكن إلا لهدف إنساني محض وهذا ما أدخله التاريخ من أوسع أبوابه . [٢٢]

لقد تميز هذا القائد ، بأنه لم يهزم في أي معركة خاضها ، وهذا تميز نادر بين القيادات التي عرفها التاريخ ، مما يؤكد أن هذا القائد العبقري كانت له استراتيجيته المميزة التي انبثقت عن فكر عسكري خلاق .

إن المتتبع لحروب خالد ، لابد له أن يلمس بعض الثوابت في أفعال هذا القائد وأفكاره ، فدائماً كان يسعى إلى تحطيم قوة العدو وإبادتها إبادة كاملة من خلال عملية الإخلال بتوازنه المادي والمعنوي ، مستخدما في ذلك مناورات ميدانية متعددة الأشكال تهدف إلى تحقيق النصر أو الوصول إلى المكان الذي يمكنه من انتزاع النصر حتماً.

لقد اعتمد خالد في تحقيق ذلك على المبادىء التالية :

١- سرعة الحركة :

بنى خالد استراتيجيته على سرعة الحركة في الأماكن غير المتوقعة ، وكان يعتقد بأن سرعة الحركة التي ترافقها السرية الكاملة تمثل أحد مفاتيح النجاح الهامة في استراتيجيته العسكرية . فقد أدرك أن هذه الميزة تحقق له نجاح المناورات والمفاجأة وضرب العدو في الزمان والمكان المناسبين مما يحقق له مبدأ الإخلال بتوازن العدو ؛ فمثلاً اعتمد على سرعة الحركة عندما تقدم من اليمامة إلى العراق، وعندما تحرك عبر الصحراء إلى بلاد الشام وفي حروب العراق منع جيوش الفرس من التجمع وهزمها منفردة . ولم يكن خالد يسعى من وراء ذلك إلى تحقيق سرعة بالتنفيذ فقط ، بل يهدف أساسا إلى عدم تمكين العدو من التقاط أنفاسه أو إعادة تنظيم قواته .

٢- المناورة المتعددة الأشكال :

لقد كان خالد يبتدع فنون الحرب بعبقريته ، في الوقت الذي يجمعها استراتيجيو العصر الحاضر من قراءاتهم للتاريخ ودراسة مبادىء الحرب وفنونها في الكليات العسكرية . لذلك لم يعتمد خالد على أسلوب واحد في المناورة ، للوصول إلى الهدف ، بل ابتدع أساليب متعددة لتحقيق ذلك ، فقد نفذ مناورة تطويق بارعة ضد جيش الاندرزغر ، اشتملت على هجوم جبهوي رافقته عملية التفاف واسعة النطاق، كما طبق مناورة الاختراق في معارك الأنبار . وفي معركة المصيخ طبق خالد مناورة يصعب على الجيوش المعاصرة القيام بها، فقام بعملية هجوم ليليٌ من ثلاثة محاور، وأطبق على قوات العدو من ثلاث جهات . وهذه المناورة عادة ما تمنى بالفشل نتيجة لصعوبة السيطرة على القطعات ، ثم طبق خالد مثل هذه المناورة في منطقتي (الثني) و(الرميل) ، كما أبدع في استنباط التنظيم المناسب للقتال ؛ ففي معركة اليرموك يقول الشيخ محمد الخضري : (فخرج رضي الله عنه في تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك) (٢٣) .

٣- عنف التنفيذ :

لقد تبنى خالد بن الوليد أسلوب العنف في تنفيذ مناوراته القتالية وعملياته العسكرية ، وبذلك قرن سرعة الحركة بعنف التنفيذ . وقد ساعده هذا المزج على تحقيق بعض الميزات في أرض المعركة . فعندما تكون القدرة على المناورة مقيدة تكون لسرعة التنفيذ الممزوج بالعنف دورها في تحقيق الهدف. كما أن عنف التنفيذ قد مكنه من تحقيق ظروف قتالية أفضل لقواته ؛ ففي عمليات العراق وجد الفرس عندما يهزمون في المعركة ، يعودون للقتال في معركة لاحقة ، ومع الأخذ بعين الاعتبار حجم قوات خالد ، فقد وجد أن العنف لا بد من الأخذ به كفلسفة تمليها الضرورات العسكرية . وقد ظهرت ميزة العنف عند خالد في أكثر من معركة ، بلغت أوجها في معركة نهر الدم مع قوات الإمبراطورية الفارسية . أضف إلى

ماسبق ، أن عنف التنفيذ كان يشكل أحد أعمدة الحرب النفسية التي كان يشنها خالد ضد قوات أعدائه ، ولذلك فإن استخدام العنف قد أكسبه ميزة عسكرية مضافة ، حتى أصبحنا نلاحظ أن اسم خالد بن الوليد كان كافيا لإلقاء الرعب في قلوب الأعداء .

٤ - نوعية المقاتل :

كان خالد يولي نوعية المقاتلين أهمية خاصة في استراتيجيته ، فنادراً ما دخل المعركة وهو يتفوق على عدوه في عدد المقاتلين ، ولذلك كان يعتبر هذا العنصر مادة القتال الأساسية الذي يرتكز عليه في استراتيجيته العسكرية ؛ ولذلك رأيناه دائما يحاول الاعتماد على خيرة جنود المسلمين وعلى الخصوص من صحابة النبيﷺ ، سواء كان ذلك في مسرح عمليات العراق أو بلاد الشام . فعلى سبيل المثال ، عندما جاءته أوامر الخليفة بالحركة من العراق إلى بلاد الشام حاول أن يبقي الصحابة مع قواته الذاهبة إلى هناك ، ولكن المثنى رفض إلا أن تكون مناصفة . وفي معركة اليرموك عندما فاجأ جيش الروم قوات المسلمين طلب منه أبوعبيدة مواجهة الروم على عجل ، فاختار خالد لهذه المهمة صحابة رسول الله ﷺ لمشاركته في تنفيذها .

وهكذا فإن خالداً كان يرى أن أي استراتيجية عسكرية ناجحة يجب أن تكون مادتها الأساسية الإنسان أولا ؛ لأن بناء الإنسان المادي والمعنوي هو مادة الحرب والاستراتيجية في أي فلسفة عسكرية ، ولذلك استثمر خالد النوعية القتالية للمقاتل المسلم إلى أقصى مدى ممكن ، ونجح في ذلك نجاحا ملحوظا .

هذه هي أهم المرتكزات التي بنى عليها خالد بن الوليد استراتيجيته العسكرية ، وإن ادعى بعض المؤرخين أنه ارتكز في استراتيجيته على الاستناد إلى الصحراء أو قريبا منها ، بحيث تكون الطرق المؤدية إليها مفتوحة حالة اضطراره للتراجع . إن هذا المرتكز كما توضحه المعارك قد كان صحيحا في بعض الأحيان ، ولكن

خالد بن الوليد قاتل في الحيرة بعيدا عن الصحراء ، وقاتل في حمص بعيدا عنها ، وقاتل في شمال سوريا بعيدا عنها ، واعتمد في كل عملياته على استراتيجية واضحة ومحددة ، ولم تكن الصحراء تنتقل معه من مكان إلى آخر .

ومما ساعد خالداً على تطبيق استراتيجيته قدرته على تكييف هذه الاستراتيجية وفق ما تقتضيه المواقف التي كان يواجهها ، فقد كان يعمل بتخطيط دقيق في إطار من التوازن المحكم بين الهدف والإمكانيات المتوفرة مع المحافظة على زخم الهجوم، ومحاولة تطوير مناورة الهجوم إلى مناورة غير مباشرة .

كما سعى خالد في أثناء تطبيقه لاستراتيجيته إلى الاعتماد على عزل مسرح العمليات قدر المستطاع عن المحيط الخارجي ، وذلك لتأمين حرية المناورة وعدم تمكين العدو من تعزيز قواته، وعدم إعطائه القدرة على الاتصال بقاعدته الرئيسية، بحيث يستطيع عزله وإضعافه على الطريق إلى إلحاق الهزيمة النهائية به.

هذه هي استراتيجية خالد بن الوليد ومرتكزاتها التي بنيت عليها ، والتي اعتمدها خالد في حروبه ونجح فيها أيما نجاح ، وهذه هي استراتيجية أعنف وأنجح مقاتلي الجزيرة العربية .

٥- الإدارة عند خالد بن الوليد

أ- موجز عن الإدارة في الإسلام :

تعرف الإدارة في الوقت الحاضر على أنها علم وفن ، تهدف إلى إخضاع كافة الجهود للبحث العلمي والتجارب للوصول إلى قواعد يغلب عليها صفة الثبات .

وهي تمثل مجهودات جماعية مشتركة تستهدف تحقيق هدف معين ؛ ولأنها كذلك فقد اعتبرت دوما جزءا من الحضارة العلمية التي ازدهرت على هذا الكوكب

والحضارة الإسلامية واحدة منها . لم تكن العقيدة الإسلامية في يوم من الأيام عقيدة نظرية أو شبكة من العلاقات الروحانية بين الإنسان وخالقه . كما لم تأت هذه العقيدة لتغطي جانبا معينا من جوانب الحياة الإنسانية ، بل جاءت شاملة لكل الجوانب ومنطوية على النظرية والتطبيق والقول والعمل ، والتوازن في جميع مجالات الحياة الإنسانية . ولأنها شاملة لكل هذه الجوانب ، فقد غطت جميع المساحات وتطرقت إلى جميع الأمور الحياتية بالقول الصريح أحيانا أو في التلميح أحيانا أخرى ؛ ولذلك لا عجب أن نرى العقيدة الإسلامية تضع المبادىء والنظريات التي تغطي الجانب الإداري للدولة . لقد تميز الجهاز الإداري في العصر الإسلامي بأنه كان على درجة كبيرة من التطور والإتقان، ونظرة متفحصة إلى الواقع الإداري في الدولة الإسلامية تعطينا فكرة واضحة وكاملة عن إدارة هذه الدولة . فقد كانت الإدارة في الدولة الإسلامية كواجبات ووظائف قيد التطبيق ، ابتداء من عهد الرسول ﷺ، مرورا بعهد الخلفاء الراشدين ثم بالعصر الأموي ، ووصولا إلى أوجها في العصر العباسي . فقد اتبع الرسول ﷺ في إدارته مبدأ المشاركة والشورى في الإدارة . ولا أعتقد بأن الأحداث التي تؤكد على ذلك بخافية على أحد ، سواء في غزواته مثل غزوة بدر والخندق ، أو في إرساله للبعثات الإسلامية إلى أطراف الجزيرة لتعليم الناس مباديء دينهم ، أو في امتثاله للأوامر الإلهيه الصادرة إليه، والتي حثت على مبدأ الشورى قولا وعملا . إضافة إلى ذلك فقد عرف عن إدارة الدولة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ مبدأ تقسيم العمل، والتخصيص ، واعتماد الكفاءة كأساس للتعيين في وظائف الدولة العامة .

ثم تطورت وتعقدت الإدارة في الدولة الإسلامية ، فبرز نظام مراقبة العمال (الولاة) وظهر نظام الدواوين مثل ديوان الجند ، وديوان الخراج وديوان الرسائل في عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب .

وفي العهد الأموي جرى توسيع وزيادة عدد الدواوين واقتضى حسن الإدارة للدولة الإسلامية ظهور مبدأ التفويض في السلطة ، حيث فوض الخلفاء سلطات إدارية كبيرة للولاة لتصريف الشؤون الإدارية في ولاياتهم .

أما النظرة الحديثة المعاصرة للوظيفة العادية باعتبارها أمانة ومسؤولية وليست ملكا شخصيا لشاغلها ، فهي من المبادىء التي أقرها الإسلام منذ قيام الدعوة الإسلامية ، حيث كانت الجدارة هي المعيار الأساسي الذي بموجبه يتم تعيين الموظفين العموميين .

أما فيما يخص العمال وأجور العمل ، فقد نصت الأحاديث النبوية الشريفة على ضرورة أن تكون أجور العاملين ومرتباتهم جيدة وتراعى فيها الظروف الاجتماعية والاقتصادية المختلفة . كما عرف الحكم في الدولة الإسلامية المبادىء الأساسية للإدارة المتعارف عليها في عصرنا ، وعمل على تطبيقها في إدارة الدولة الإسلامية وأهم هذه المبادىء :

١- التدرج الرئاسي .

٢- توازن السلطة والمسؤولية .

٣- مبدأ الشورى .

٤- مبدأ تفويض السلطة .

مما سبق يمكن القول : بأنه وإن كان ثمة اختلاف بين الإدارة في الإسلام والإدارة الحديثة المعاصرة ، فإنه اختلاف في الأهداف بالمقام الأول ، وهو أيضا اختلاف في الحجم بين مجتمعين في المقام الثاني ، واختلاف من حيث القدرات من جانب الدول القديمة والحديثة بالمقام الثالث ،واختلاف في الإمكانات التقنية العلمية والإعلامية التي ساعدت على بلورة وتطوير الفكر الإداري بالمقام الرابع ، ولم يكن اختلافا حول مبادىء العملية الإدارية . لقد طمست معالم الإدارة الإسلامية ، نتيجة

لعدم استمرارية البحث والتطوير في هذه الإدارة ، ساعد على ذلك إقفال باب الاجتهاد منذ القرن الخامس للهجرة ، وعدم إعمال الفكر من جانب أبناء الدول الإسلامية في تراث أمتهم القديم ، وبعدهم عن الشريعة الإسلامية علما وتطبيقا .

ب- إدارة خالد

يعتبر خالد بن الوليد من القادة العسكريين الأفذاذ الذين دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه ، ولكن ذلك لا يمنع المتتبع لسيرته من تلمس جوانب الإبداع الإداري أيضاً في قيادته ، فهو في أيام الحرب القائد العسكري الفذ ، وفي أيام السلم الرجل الإداري المبدع الذي يتعاطى مع الأمور باجتهاد الفطن وذكاء العربي .

ومع أن القيادة العسكرية كما يعرف ذلك العسكريون تنطوي على قيادة القوات وإدارتها في آن معا ، إلا أن الإدارة تمارس من قبل العسكريين والمدنيين في أيام السلم . والجميع يعرف أن الرجل الإداري ليس بالضرورة أن يكون قائداًعسكريا ، بينما كل قيادة عسكرية بالضرورة أن تكون قيادة عسكرية وإدارية في آن معا ، حيث لا يمكن أن يكتب النجاح لأي خطة عسكرية إذا لم يرافقها خطة إدارية قادرة على خدمتها ، وتلبية جميع متطلباتها خلال مراحل تطبيقها المختلفة . ولا عجب أن الكثير من القيادات العسكرية تولي الخطط الإدارية في السلم والحرب عناية خاصة، نتيجة لدورها الحاسم في المعركة .

ولذلك نجد نابليون يقول بأن الجيوش تزحف على بطونها ، بمعنى أن أي مقاتل لن يستطيع خوض المعركة ، وأي آلية لن تكون قادرة على الحركة في المعركة ، وأي سلاح لن يستطيع أن يقوم بدوره دون توفر العناصر الإدارية اللازمة .

أشرنا إلى أن أي خطة عسكرية وأي حرب لن يكتب لها النجاح إذا لم تسند بخطة إدارية قادرة على خدمتها ؛ ولأن خالد بن الوليد قد خاض الكثير من المعارك

وانتصر فيها جميعا ، فهو بالضرورة كان يمتلك من المواهب الإدارية ما يوازي عبقريته العسكرية .

نحن نعلم أن سيف الله لم يتلقَّ علومه في الأكاديميات العسكرية ولا في كليات الحرب ، ولم يدرس تاريخ المعارك العسكرية ، كل ما تعلمه من نشأته في الصحراء العربية هو الفروسية وأساليب القتال واستخدام الأسلحة ، ومع ذلك أصبح من ألمع القادة العسكريين وبالضرورة الإداريين في العالم .

والإدارة كما سبق أن ذكرنا هي علم وفن يتعلمها الإنسان فيكتسب من معارفها، ويجتهد ويطور في مجالاتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فكيف تعلّم خالد بن الوليد الإدارة ؟ وكيف كان ينظر إلى الشؤون الإدارية ؟

في رأيي إن خالداً قد تعلم فن الإدارة من مصادر إدارية متعددة ، وجميعها لعبت دورا رئيسيا في هذه المعرفة ،التي احتوت على الكثير من الجوانب النظرية والعملية لعلم الإدارة المعاصر ، ونستطيع أن نحدد أربعة مصادر رئيسية استقى منها خالد معارفه الإدارية هي :

١- نشأته في بيت يحمل المسؤوليات الإدارية :

فكما سبق أن أشرنا فإن البيت الذي نشأ فيه خالد هو بيت للزعامة والقيادة ، وأن والده الوليد بن المغيرة المخزومي كان سيد بني مخزوم . ومما لا شك فيه أن قيادة العشيرة بحاجة إلى الرجل المحنك الفطن حتى يستطيع إدارة شؤونها ، ويضع الحلول لجميع المشاكل التي تواجهها . ومما لا شك فيه أن خالد بن الوليد الذي نشأ في هذا البيت قد استفاد من المعارف الإدارية التي كان والده يتمتع بها في إدارة العشيرة . يضاف إلى ذلك أن الوليد بن المغيرة كان من أكبر التجار في عصره، والتجارة وما يتبعها من معاملات ومبادلات اقتصادية وحركتها ما بين الجزيرة العربية وبلاد الشام أو اليمن أو غيرها من البلدان ، هي بحاجة ماسة إلى الإدارة السليمة .

وإذا عرفنا أن خالد بن الوليد كان يرافق القوافل التجارية التي تذهب إلى تلك البلاد ، فإنه بلا أدنى شك يكون قد شارك والده عمليا في إدارة العملية التجارية والإشراف عليها ؛ ولهذا يمكننا القول إن نشأة خالد كانت المصدر الأول الذي تعلم منه مبادىء الإدارة .

٢- العقيدة الإسلامية :

مثلت العقيدة الإسلامية ولا تزال المصدر الأساسي للإدارة في الدولة الإسلامية، فهي تنطوي على كل المضامين الإدارية القادرة على خدمة أهداف الدولة الإسلامية ومؤسساتها وتنظيماتها الإدارية . ولذلك فإن خالداً بعد إسلامه لا بد له وأن يكون قد تعلم كل الجوانب النظرية للمبادىء الإدارية التي جاءت بها العقيدة الإسلامية ؛ وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار العقيدة الإسلامية هي المصدر النظري الأساسي الذي تعلم منه خالد مبادىء إدارته .

٣- قربه من الرسول ﷺ :

نحن نعلم بأن سيف الله كان بعد إسلامه قريباً من الرسول ﷺ الذي كان المصدر الرئيسي الثاني للإدارة الإسلامية ؛ ولذلك فإن سيف الله قد استفاد من قربه هذا في الجانبين النظري والعملي لعلم الإدارة . فالرسول ﷺ من خلال أعماله واجتهاداته التي كان يضع من خلالها الحلول المناسبة للمشكلات التي كانت تواجه الدولة الإسلامية ، كان يمثل الجوانب التطبيقية للعملية الإدارية ، لذلك كان الرسول ﷺ أحد المصادر الرئيسية العملية والنظرية التي استقى منها خالد فن الإدارة .

٤- الاجتهاد الشخصي :

بعد أن يكون خالد بن الوليد قد تلقى مباديء العلوم الإدارية من المصادر الثلاثة أعلاه ؛ فإنه بالتأكيد يكون قد حاز على معظم المباديء النظرية والعملية التي يحتاج إليها في إدارته لشؤون الحرب والسلم ، إلا أن خالداً قد اجتهد في الكثير من المشكلات الإدارية التي واجهته عند فتوحه للأقاليم ، أو عند جبايته للجزية وتوزيع الغنائم ، أو خلال مفاوضاته المختلفة ، أو في إدارة الجند . ولا شك بأن خالداً قد نجح إلى حدود بعيدة في هذا المجال كما سنلاحظ فيما بعد .

لقد توفرت لخالد بن الوليد جميع هذه المصادر التي كانت تمثل المصادر الأساسية التي اعتمد عليها في إدارته ، فجعلت منه إداريا فذا كما كان قائدا عسكريا فذا . اجتهد خالد حيثما تطلبت المشاكل ذلك ، ونسج من مخيلته المواقف الإدارية السليمة لكل المعضلات ؛ فنجح كقائد على الصعيدين العسكري والإداري .

لقد عرف خالد بن الوليد أنه حتى يكون قائدا ناجحا على الصعيد العسكري والسياسي أو العسكري والإداري ، لا بد له من قبول الآخرين وولائهم له ، لأنه بذلك يستطيع أن يكسب المعارك الفاصلة في ميدان القتال وفي ميدان السلم . لأن القائد إذا لم يستطع أن يحقق قبول الآخرين وولاءهم له فإنه لن يستطيع النجاح في هذه الميادين .

وقد نجح خالد بن الوليد في تحقيق ذلك نجاحا خرافيا ، حتى إن هذا النجاح قد قضى على مستقبله العسكري ، فكلنا يعلم أن عمر بن الخطاب قد عزل خالداً خوفا من أن يفتن الناس به لكثرة انتصاراته في المعارك التي خاضها ، وشدة ولاء جنده وثقتهم المطلقة به .

يذكر ميكافيلي في كتابه (الأمير) الكثير من المباديء المتعلقة بأصول القيادة السياسية ، ولكن تطبيقها يمتد بلا شك إلى القيادة العسكرية والإدارية وهي مباديء ما زالت تحظى بقبول الكثير من المفكرين الإداريين المعاصرين ، ومن أهم هذه المباديء : (٢٤) .

١- ضرورة وأهمية اعتماد القائد على قبول المرؤوسين به فإذا انعدم القبول انعدمت القيادة .

٢- ضرورة اهتمام القائد بتماسك المجموعة والحصول على ولائهم له ؛ إذ يجب على القائد أن يوفر للتابعين المزايا والمكافآت المناسبة التي تمكنه من ذلك .

٣- يجب أن يكون القائد دائم الحذر ، والتنبه إذا ما أراد الصمود والاستمرار ؛ إذ يجب عليه أن يكون مهيأ للرد على أي طاريء يهدد نظام حكمه أو قيادته .

هذه المباديء التي ذكرها ميكافيلي إذا ما قورنت بما طبقه خالد بن الوليد على الصعيدين العملي والنظري نجد أنها متواضعة جداً ، فقد سبق خالد ميكافيلي بمئات السنين ، وطبق ما هو أكثر من هذه المباديء . فإذا تميز سيف الله بشيء فإن أكثر ما تميز به هو قدرته الفائقة على كسب ثقة جنوده الذين يعملون تحت قيادته ، وما وصل إليه خالد في هذا المجال لا يستطيع أي قائد أن يصل إليه سواء من قادة الماضي أو الحاضر . وكانت أهم الأعمال التي جعلته يكسب هذه الثقة المطلقة من جنوده هي : النجاح الذي حققه أولاً ووجوده في مقدمة جنوده يضرب لهم المثل الأعلى في القيادة ثانيا ؛ وشجاعته الفائقة ثالثا ؛ كل هذه المواصفات جعلت منه موضع اعتزازوتقدير عند جنوده .

فهو من طراز القيادات التي حققت ورسخت المبدأ القائل بأن القائد العظيم هو الذي يكون على رأس جنوده وفي مقدمتهم ليقول لهم اتبعوني ، ولا يقول لهم تحركوا إلى الأمام . وهكذا كان القائد القدوة الذي لا يمكن له إلا أن يكون المثل الأعلى لجنوده .

وبالإضافة إلى أنه كان قائداًمميزا فقد كان مفاوضا بارعا ، ولم يدخل في مفاوضات قط من واقع التردد أو الضعف ، بل كان دائما يفرض شروطه التي تعتمد على مواقفه القوية ؛ ففي قتال المرتدين وبعد أن حطم جيش مسيلمة الكذاب ، كان جيشه في حالة إعياء وإجهاد ، وكان خالد يدرك الحالة التي عليها الجند ، وما لحق بهم من إرهاق وتعب ، وأن أكثر ما هم بحاجة إليه هو الراحة لفترة من الزمن قبل متابعة القتال .

ومع ذلك فإنه عندما فاوض مجاعة بن مرارة على استسلام قومه من بني حنيفة لجأ خالد إلى التهديد بمهاجمتهم إذا لم يرضخوا لشروطه ، وقال لمجاعة : "سأمنَحك ثلاثة أيام ، فإذا لم تفتح أبواب الحصن وفق الشروط الأخيرة ، فإنني سأهجم وعندئذ لن تكون هناك تنازلات من أي نوع " (٢٥).

وفعلاً تمّ الصلح بناء على الشروط التي وضعها خالد .

لقد كان تفكيره رزينا ، ومنطقيا في كل الظروف ، ففي جميع فتوحاته ظل يحكم باسم الخليفة القائد السياسي والديني للدولة الإسلامية ، حتى في أحلك الظروف عندما تم عزله وهو في أوج انتصاراته ، ظل الرجل الذي يضرب المثل الأعلى على ولائه وإخلاصه لقيادته السياسية .

ولو لم يكن سيف الله الرجل الحكيم المؤمن بعقيدته لكان لقضية عزله أثر رهيب في مجريات تاريخ الدولة الإسلامية ، وخصوصا أن هذا العزل قد جاء والجيش الإسلامي يتهيأ لخوض المعركة الفاصلة في تاريخ هذه الدولة .

لقد حكم خالد خلال جميع فتوحاته باسم القيادة السياسية ، وأدار جميع شؤون السكان وعلاقاتهم السياسية والاقتصادية وما يتماشى مع روح العقيدة .

عمل كل ذلك ولم يكن بقربه أحد من السياسيين أو الإداريين الذين يمكن اللجوء إليهم عند الحاجة ، لذلك اعتمد اعتمادا أساسيا على معرفته الإدارية واجتهاداته

الشخصية ، فكانت اجتهاداته سليمة وآراؤه سديدة فأدارها وما تقتضيه مصلحة الدولة الإسلامية .

لقد كان خالد ينظم إدارة الأراضي التي يخضعها جنبا إلى جنب مع الفتوحات العسكرية ، وكان يقوم بتعيين الموظفين والحكام الإداريين على جميع المناطق التي فتحها لمراقبة عملية دفع الجزية ونشر العقيدة بين السكان المحليين . وكان يوزع الغنائم حسب مقتضيات الشريعة ، فيرسل مخصصات الدولة إلى العاصمة ، ويقوم بتقسيم ما تبقى على الجند .

كما تميز خالد بأنه كان من بين القيادات التي عرفت قيمة الاتصال المباشر بالشعوب ، ولذلك عندما كان يحاول الاتصال بقيادات الدولة الفارسية كان في الوقت نفسه يحاول الاتصال بالقاعدة الشعبية في هذه الدولة . ويعتبر هذا الأسلوب من الأساليب الجديدة في الاتصال حيث كان يعرف القيمة الحقيقية لمخاطبة الحكام ومخاطبة الشعوب ، وذلك في مسعى منه لوضع الحقائق أمام أكبر قطاع من الشعب ليبين لهم وجهة النظر الإسلامية فيما يحدث ، وبنفس الوقت لإعطاء الصورة الحقيقية والواضحة عن الشعب المسلم وعقيدته الجديدة . هذا أسلوب من أحدث الأساليب التي تستخدمها الدول المعاصرة في الوقت الراهن ، في محاولاتها لتقديم الصورة الجيدة عن أهدافها ومراميها لدى أعدائها . ولكن خالداً بلغ من الرقي الإداري ما جعله يسبق الكثير من الدول والقيادات المعاصرة . وفي هذا الصدد ، فإن خالدا عندما أرسل كتابه لملك الفرس أرسل كتابا ثانيا وجهه إلى عامة الشعب ، ومن خلال الاطلاع على نصوص الكتابين سنرى أن خالداً كان يملك القدرة والمعرفة المتقدمة في مخاطبة جميع المستويات الخاصة والعامة ، وتقديم نفسه وشعبه إلى أعدائه بصورة نادرة .

لقد جاء في كتابه الأول الذي أرسله إلى البلاط الفارسي ما يلي :" بسم الله الرحمن الرحيم ، من خالد بن الوليد ، إلى ملوك الفرس ، أما بعد : الحمد لله الذي حل نظامكم وأوهن كيدكم وفرق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرا لكم ،

فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة " .

أما كتابه الثاني الذي وجهه للشعب في الإمبراطورية الفارسية فقد كان مماثلاً تقريبا لكتابه الموجه إلى الملوك ، إلا أنه أضاف إليه وعداً بأن يقوم المسلمون بحمايتهم لقاء دفعهم الجزية .

وقد حُمِل الكتابان إلى عاصمة الإمبراطورية من قبل سكان الحيرة العرب (٢٦).

إن رسالة خالد إلى الفرس تبين لنا كيف أصبح سيف الله بمثابة الحاكم الإداري العام للأقاليم التي تم فتحها ؛ ولذلك خاطب الفرس باسمه شخصيا . كما تبين الرسالة حنكة الرجل الإداري الذي حاول الوصول إلى عدة أهداف في آنٍ معا دون اللجوء إلى القوة . ونستطيع أن نوجز أهم الأهداف التي سعى إليها خالد من وراء رسالته بما يلي :

١. إعطاء فكرة واضحة عن أهداف القوات الإسلامية القادمة إلى أرض فارس، وأنها جاءت لتنشر العقيدة الإسلامية بين الشعوب دون إكراه أو إجبار ، فمن لا يرغب الدخول في الدين الجديد فما عليه إلا أن يدفع الجزية؛ وهو بذلك يحقن دمه ويحظى بحماية القوة الإسلامية .
٢. حاول خالد أن يبين لشعوب فارس أن جيشه قوي إلى الدرجة التي يستطيع من خلالها تقديم الحماية لمن يشاء منهم ، وهذا الأسلوب من أساليب خالد التي أصبحت معروفة في حروبه النفسية .
٣. حاول خالد الإيقاع بين القيادة الفارسية والقطاعات العريضة من شعوبها ، خصوصا بعد الهزائم المتكررة التي لحقت بجيوشها .

٤. إن هذه الأهداف وهذا الأسلوب الذي اتبعه خالد لتحقيقها يدل على أن الرجل فائق الإدراك لكل المعضلات التي يمكن أن تواجهه أو تلك التي يسعى إلى مواجهتها .

أما عن معاملته مع السكان المحليين ، فإنه أثناء حكمه الإداري في الحيرة ، كان عهده الذي منحهم إياه نموذجا من نماذج الحكم الإسلامي . فعلى قدر سطوته على أعدائه في الحروب ، كان رفيقا بالمظلومين من أتباع تلك المنطقة ، فقد شاهد سكان هذه المناطق ولأول مرة في تاريخهم ، حاكما يحافظ عليهم وعلى شؤونهم وينصفهم من مستغليهم ، ويسمع شكاية ضعيفهم ويحكم بين الجميع بالعدل والمساواة لا فرق بين ضعيف وقوي ، ولا سادة وعبيد ، الكل أمام القانون سواء . وقد بلغ من رفق الحكم الإسلامي برعاياه من سكان تلك المنطقة ، المسلمين وغير المسلمين ، أنه تكفل بالعبد إذا تحرر ، وبالغني إذا افتقر وبالعائل إذا انقطع عائلوه ، وقد كتب خالد في هذا الصدد ما يلي :"إني دعوتهم إلى الله وإلى رسوله فأبوا أن يجيبوا ، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب ، فقالوا لا حاجة لنا بحربك ، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب في إعطاء الجزية .... أيما شيخ ضعيف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام ، فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم . وأيما عبد من عبيدهم أسلم أُقيم في أسواق المسلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليه ، في غير وكس ولا تعجيل ودفع ثمنه إلى صاحبه " (٢٧) .

هذه هي إدارة الإسلام ، وها هم قادتُها الذين أنجبتهم مدرسة الإسلام ، يملأون الأرض عدلا ومساواة ، ويقيمون الحق بين الناس لا فرق بين ضعيف وغني ولا بين سادة وعبيد ، الكل أمام القانون سواء .

ليس هذا فحسب بل أدرك سيف الله أهمية الشورى في إدارة شؤون الناس في الحرب وفي السلم ، وأدرك أهمية الاطلاع على الرأي الآخر في قيادته وإدارته .

ولذلك عرف عنه أنه كان يستشير غيره فيما هو مقدم عليه ، وبعد أن يستمع إلى جميع الآراء كان يتخذ قراره دون تردد ، وفي هذا الصدد عمل خالد أول هيئة استشارية تعمل تحت قيادته لتقديم نصحها في بعض القضايا .

كان هذا التشكيل الذي ابتكره خالد يمثل ما يسمى اليوم بالجيوش الحديثة "بهيئات الأركان العامة" ، فقد جمع خالد رجال هذه الهيئة من أولئك الذين يتصفون بفصاحة الرأي والذكاء والحنكة واختارهم من جميع المناطق التي حارب فيها وهي : الجزيرة العربية ، والعراق ، وسوريا ، وفلسطين ، وأسند خالد لهذه المجموعة الواجبات التي كان يعتقد أنه بحاجة إليهم فيها ، وكان أهم أعمالها :

١ – إطلاعه على أحدث المعلومات عن وضع العدو وتطوير الموقف العام .

٢ – محاولة الاتصال بمن يثقون من السكان المحليين لتنظيمهم كعملاء .

٣ – إستجواب أسرى الحرب .

٤ – جمع المعلومات الاستخبارية عن قوات العدو حيث كانت عملية جمع المعلومات عن قوات العدو من الأمور التي كان يوليها سيف الله اهتماماً خاصاً .

أضف إلى ذلك أن خالد بن الوليد عندما استلم أمر التوجه من العراق إلى بلاد الشام ، استشار من يثق في رأيهم حول أفضل الطرق التي يمكن أن يسلكها وقد طرح رافع بن عميرة رأيه في ذلك فسار خالد بناء عليه .

كما أكدت الأحداث أن خالداً كان يمتلك بعد نظر إداري واسع، وقدرة غير معهودة على مواجهة ما يستجد من الظروف ، ووضع الحلول المناسبة لكل معضلة من المعاضل . والمثل الواضح على ذلك أنه عندما أبلغ من قبل الخليفة بالتوجه إلى

مساندة جيوش المسلمين في بلاد الشام ، سار خالد من العراق ومعه تسعة آلاف رجل . ولكنه قبل المسير عمل تقدير موقف إداري لقواته وبناء عليه طلب عدم مرافقة النساء والأطفال للجيش أثناء اجتيازه للصحراء ، لأن إمدادته الإدارية لاتكفي للجيش وما يتبعه من نساء وأطفال ووسائل نقل . كما أن هؤلاء لن يكونوا قادرين على تحمل المشاق في أثناء عبور الصحراء ولذلك طلب عدم مرافقتهم للمقاتلين ، والبقاء إلى حين مجيء الوقت المناسب لنقلهم إلى بلاد الشام . وعندما قرر خالد بن الوليد عبور الصحراء بجيشه ، كانت أكثر المشاكل التي واجهته هي المشكلات الإدارية فالطريق التي سوف يسلكها خالية من أي عنصر من عناصر التزويد الرئيسية وخصوصاً الطعام والمياه .

وقد أدرك سيف الله أن جيشه مقبل على عملية مرهقة وشاقة ، وسيكون بحاجة إلى عنصرين أساسيين لمساعدته في عملية العبور هذه ، وهذان العنصران هما المعنويات المرتفعة ، والتزود بالطعام والشراب الذي يمكنه من قطع المسافة بسلام. وفعلا قام خالد بكل ما يلزم لرفع معنويات جنده ، وعمل على تزويدهم بحاجاتهم الإدارية ما أمكن ، وبعد ذلك انطلق بقواته لتنفيذ أكبر مأثرة عسكرية عرفها التاريخ.

الهوامش

١ – أكرم ، مرجع سابق ، ص ٢١ .

٢ – العقاد ، مرجع سابق ، ص ٧٦٨ .

٣ – العقاد ، مرجع سابق ، ص ٧٩٧ .

٤ – صالح ، مرجع سابق ، ص ٢١ .

٥ – أكرم ، مرجع سابق ، ص ١٦٦ .

٦ – صالح ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .

٧ – إبن الأثير ، الكامل في التاريخ ، تحقيق أبي الفداء عبدا لله القاضي ، الجزء الثاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص ٢٢٣ .

٨ – صالح ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

٩ – أكرم ، مرجع سابق ، ص ٢٣٧ .

١٠ – المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

١١ – صالح ، مرجع سابق ، ص ٤٩ .

١٢ – الجبوري ، مرجع سابق ، ص ٨٥ .

١٣ – صالح ، مرجع سابق ، ص ٤١ .

١٤ – عبدالجبار السامرائي ، معارك خالد بن الوليد ضد الفرس ، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ١٦٣–١٦٤ .

١٥ – المرجع السابق .

١٦ – بصبوص ، مرجع سابق ، ص ٦٧ .

١٧ - كعوش ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

١٨ - بصبوص ، مرجع سابق ، ٩٢ .

١٩ - صالح ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ .

٢٠ - الجبوري ، مرجع سابق ، ٢٣ .

٢١ - سورة الأنفال ، الآية ٣٩ .

٢٢ - بكر موسى ، خالد بن الوليد المثل الأعلى للقيادة الظافرة ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٩٧ .

٢٣ - الشيخ محمد الخضري ، إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ، مطبعة الاستقامة ، الطبعة التاسعة ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٥٩ .

٢٤ - زويلف ، مهدي حسن ، والقريوتي ، محمد قاسم ، مباديء الادارة ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، الطبعة الأولى ، عمان ، ١٩٨٤ ، ص ١١ .

٢٥ - أكرم ، مرجع سابق ، ص ٢٢٠ .

٢٦ - المرجع السابق ، ص ٣٠١ .

٢٧ - العقاد ، مرجع سابق ، ص ٨٦٥-٨٦٦ .

الفصـــل الثالث :

الموقف قبل معركة الحسم

١ – المسير التاريخي .

٢ – الموقف العام لقوات الطرفين .

٣ – معركة أجنادين .

٤ – مسرح عمليات اليرموك .

١- المسير التاريخي :

عندما وجه الخليفة أبو بكر رسالته إلى خالد بعد أن انتهى من حروب الردة ، يطلب منه فيها التوجه إلى العراق واحتلال الحيرة ، كان قد كتب رسالة مماثلة إلى القائد المسلم عياض بن غنم ، يطلب منه فيها التوجه إلى العراق واحتلال الحيرة ، وقال له في هذه الرسالة : " سر حتى تأتي المصيخ فابدأ بها ، ثم ادخل العراق حتى تلتقي خالد بن الوليد " . وأكمل أبو بكر رسالته قائلا "وأذنا لمن شاء بالرجوع ولا تستفتحا بمتكاره ، ثم استبقا إلى الحيرة فأيكما سبق إليها فهو أمير على صاحبه ، وإذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما حصون فارس ، وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم ، فيكون أحدكما ردءاً "عوناً" لصاحبه بالحيرة وليقتحم الآخر عدو الله عزهم المدائن" . (١)

يتضح من الرسالة التي وجهها الخليفة إلى قادة جيوشه ، أنه قد اتخذ قراراً بالمواجهة الشاملة مع الامبراطورية الفارسية إحدى أعظم امبراطوريتين في ذلك العصر ، وأن هذا القرار الخطير الذي اتخذه أبو بكر قد جاء بعد قراره الجريء بمواجهة المرتدين والقضاء عليهم : بمعنى أن هذا القرار قد جاء بعد أن استعاد أبو بكر الأمن والاستقرار إلى ربوع الدولة الإسلامية .

ومن الرسالة يتضح أن خليفة المسلمين قد حدد لقادته العسكريين المهمة القادمة

والخطوط العريضة للخطة التي تضمن الإطباق على الحيرة من اتجاهين ، هما الاتجاه الجنوبي وتسير فيه قوات خالد بن الوليد ، والاتجاه الشمالي وتسير فيه قوات عياض بن غنم ، وبعد تحقيق هذه المرحلة طلب منهم الانتقال للمرحلة الثانية وتحقيق الهدف النهائي باحتلال المدائن عاصمة الامبراطورية الفارسية . ويكون ذلك بتوجه أحد الجيشين إليها ، وبقاء الجيش الآخر في الحيرة لحماية مؤخرة الجيش الأول من أي عملية تطويق أو التفاف ، ومن أجل تقديم الدعم والمساندة للجيش المتجه إلى المدائن إذا تطلب الموقف ذلك .

وبعد أن أنجز خالد بن الوليد المرحلة الأولى وتعثرت قوات عياض بن غنم على المحور الشمالي ، استجدت ظروف أخرى دفعت القيادة السياسية للدولة الإسلامية إلى اتخاذ قرارها بإيقاف العمليات العسكرية على مسرح عمليات العراق والاكتفاء بإنجاز المرحلة الأولى والتحول من مواجهة الفرس إلى مواجهة الروم في بلاد الشام . ولا يعرف على وجه التحديد السبب الذي جعل الخليفة يغير من توجهاته العسكرية ، ولكن على ما يعتقد أن هذا القرار قد جاء لسبب أو أكثر من الأسباب التالية :

١ - تزايد خطر جيوش الامبراطورية الرومانية على القوات الإسلامية التي أرسلها الخليفة إلى بلاد الشام ، والحرج الذي أصبح يعاني منه موقف هذه الجيوش(٢) .

٢ - إن تحقيق المرحلة الأولى على جبهة العراق قد تسبب بما يلي :

أ - تحول الموقف العام لصالح القوات الإسلامية .

ب - أصبحت جيوش الفرس غير قادرة على التدخل بعمليات المسلمين على جبهة بلاد الشام ، نتيجة للضربات القاسية والمتلاحقة التي وجهها لها خالد بن الوليد واستطاع من خلالها تأمين الجناح الشرقي للقوات الإسلامية .

٣ - فشل قوات عياض بن غنم من الوصول إلى أهدافها النهائية وتوقفها في دومة الجندل بعد أن اصطدمت بمقاومة عنيفة .

٤ - عدم رغبة الخليفة بدخول المواجهة مع الفرس والروم في آن واحد : بمعنى عدم رغبته في القتال على جبهتين . وعلى ما يعتقد فإن الخليفة لم يكن يرغب في سحب جيوشه من بلاد الشام خوفا على معنويات هذه الجيوش . وقد أدرك الخليفة بأن الروم قد أصبحوا بعد الهزائم التي لحقت بالفرس يشكلون الخطر الفعلي على الدولة الإسلامية وجيوشها ، وإلا كان بإمكانه أن يلحق هذه الجيوش بقوات خالد على جبهة العراق لتقوم بالمساعدة على احتلال المدائن . إلا أن هذه الخطوة ما كانت لتمنع قوات الروم من تهديد القوات الإسلامية ، ولذلك طلب من خالد التوجه إلى بلاد الشام .

لقد كان بإمكان الخليفة أن يسند الجيوش في بلاد الشام بقوات إضافية ويبقي خالداً في العراق ، إلا أن الخليفة بنظرته الثاقبة أراد أن يستفيد من عبقرية خالد القيادية ومن الجيش الذي ألحق الهزائم بالامبراطورية الفارسية ، بعد أن أصبح من خيرة جيوش الدولة الإسلامية خبرة وتدريباً .

ونتيجة لهذا القرار وجه أبو بكر الرسالة التالية إلى خالد بن الوليد يقول فيها :

"بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله ، عتيق بن أبي قحافة ، إلى خالد بن الوليد ، السلام عليكم ، أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، وأصلي على نبيه ﷺ. سر حتى تصل جموع المسلمين في بلاد الشام ، فهم في حالة كبيرة من القلق ، وإنني أعينك قائداً على جيوش المسلمين وآمرك أن تقاتل الروم ، وأنت القائد على أبي عبيدة ومن معه ، واذهب بسرعة أبي سليمان ، وأتمم عملك بمعونة الله جل شأنه ، واقسم جيشك إلى قسمين ودع النصف مع المثنى الذي سيخلفك في العراق . فإذا فتح الله عليكم الشام فارجع إلى عملك بالعراق ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ولا تتباطأ بعمل فإن الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء " [٢] .

هذا هو أمر العمليات الجديد الذي تلقاه سيف الله من قيادته السياسية والدينية في عاصمة الدولة الإسلامية . ومن سياق الرسالة يتضح بأن الخليفة قد حدد له مهمته الجديدة ، وهي مواجهة قوات الامبراطورية الرومانية وفتح بلاد الشام ، بعد أن يتولى قيادة القوات الإسلامية جميعها في مسرح العمليات . ومن سياق الرسالة يتضح أن الخليفة يطلب من قائده الميداني سرعة اتخاذ الإجراءات الموزونة في العمليات العسكرية ، وقد طلب منه بعد إنجاز المهمة أن يعود إلى العراق .

عندما استلم خالد رسالة الخليفة تأثر قليلاً ، واعتقد للوهلة الأولى أن عمر بن الخطاب أشار على الخليفة بذلك حتى يمنعه من إحراز شرف هزيمة الدولة الفارسية وإسقاط عاصمتها ، إلا أنه بعد أن أتم قراءة الرسالة أدرك الحقيقة .

كانت المعضلة الأولى التي واجهت خالد بن الوليد هي سرعة الانتقال بقواته من العراق إلى مسرح عمليات بلاد الشام . أما المعضلة الثانية فكانت تكمن في بعد المسافة وعدم معرفته لموقع القوات الإسلامية على الجبهة الجديدة بشكل دقيق ؛ ولذلك بدأ خالد بدراسة أفضل الطرق المؤدية إلى بلاد الشام وأقصرها مسافة ؛ وذلك لتحقيق السرعة ، والوصول في الوقت المناسب امتثالا لأوامر الخليفة الذي طلب منه ذلك .

كان خالد يعرف طريقين توصلانه إلى تلك المنطقة ، الأولى : هي الطريق الجنوبية التي تمر عبر دومة الجندل و التي تستخدمها القوافل التجارية المتجهة إلى بلاد الشام ، وربما ترجع معرفة خالد بن الوليد بهذه الطريق إلى زمن الجاهلية عندما كان يرافق بعض القوافل التجارية التي يرسلها والده . ولأن هذه الطريق كانت تسلكها القوافل ، فبالتأكيد أنها كانت طريقا سهلة ، ومأهولة ، وتتوفر فيها المياه ، ولا يوجد إمكانية لدى العدو للتدخل في حركة القوات التي تسير عليها . إلا أن سيئات هذه الطريق أنها طويلة وأن تنقل القوات عليها يستغرق وقتاً كثيراً ، وهذا يتعارض مع أوامر الخليفة التي أصدرها إلى خالد وطلب إليه سرعة المسير لإنقاذ موقف الجيوش الإسلامية في بلاد الشام . ونتيجة لهذه الاعتبارات قرر خالد

عدم التنقل بقواته على هذه الطريق .

أما الطريق الثانية المؤدية إلى بلاد الشام فتقع في المنطقة الشمالية وتمتدّ على نهر الفرات ، وكانت هذه الطريق ملائمة من حيث سهولة التنقل عليها ، ولاتعيق حركة القوات المتنقلة ، وتتوفر على جانبيها المياه التي قد تحتاج إليها هذه القوات أثناء سيرها .

إلا أن سيئات هذه الطريق أنها تؤدي إلى بلاد الشام من الجهة الشمالية الشرقية وهي منطقة مأهولة بالسكان ويوجد فيها بعض الحاميات الرومانية التي قد تضطره إلى القتال مما يتسبب في تأخر وصوله من جهة ، وفقدانه لعنصر المفاجأة والأمن من جهة أخرى .

أضف إلى ذلك أن هذه الطريق لاتؤدي مباشرة إلى مواقع القوات الإسلامية الموجودة في المنطقة الجنوبية من مسرح العمليات ؛ ولذلك استبعد خالد التنقل على هذه الطريق أيضاً . وبعد تفكير عميق قرر التشاور مع قادته، ورجاله الذين يملكون الخبرة والمعرفة ، وطرح عليهم سؤالا محددا ، هو كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين ؟ والمتمعن بسؤال خالد يجد بأنه يبحث عن طريق لا يصطدم فيها بقوات الروم من ناحية ، وتمكنه من تقديم الغوث والنجدة لقوات المسلمين بأسرع وقت ممكن من ناحية أخرى . وهذا ما يشير إلى الموقف الذي كانت القوات الإسلامية تعاني منه على مسرح عمليات بلاد الشام .

إن رغبة خالد بعدم المواجهة مع الروم لم تكن ناتجة عن عدم قدرته على مواجهة هذه القوات بمقدار ما هي ناتجة عن خوفه من فقدان عنصر الزمن والسرعة نتيجة المواجهة ، كما أنه سيفقد عنصر المفاجأة والأمن لقواته المتنقلة على الطريق .

أشار بعض القادة المجتمعين عند خالد بن الوليد بإحدى الطرق التي يمكن له أن

يسلكها مع قواته ولكنهم حذروه من خطورتها ، ومن العواقب التي تنتظر الجيش الإسلامي إذا سلكها ، إلا أن خالداً كان مصمما على ايجاد الطريق المناسبة التي تبلغه إلى هدفه .

ولذلك عندما طرحت عليه طريق الحيرة –عين التمر – قراقر –سوى–تدمر– بصرى– وافق على اجتيازها بالرغم من كل المخاطر التي تحيط بها ، والتي قد تسبب إشكالات كثيرة للقوات المتنقلة عليها .

تبدأ هذه الطريق من الجهة الغربية من العراق وتتوافر في جزء منها المياه ، فقراقر مشهورة بواحاتها وكثرة مياهها. إلا أن هذه الطريق تمر من خلال منطقة جرداء خالية من أي أثر للحياة خصوصا في الجزء الواقع منها بين قراقر وسوى، حيث يبلغ طول هذه المسافة حوالي مائة وعشرين ميلا، وتمثل هذه المسافة أخطر ما في الطريق؛ لأنها طويلة وتخلو من المياه ، وتحتاج إلى حوالي خمسة أيام لاجتيازها .

إن هذه المسافة الطويلة التي كان على جيش خالد أن يقطعها كانت خالية من أي عنصر من عناصر التزويد وعلى وجه الخصوص المياه التي تكثر الحاجة إليها أثناء المسير في الصحراء ، خصوصا في ظل الظروف المناخية الحارة . كانت المشكلة الرئيسية الثانية في هذا المسير تكمن في كيفية المحافظه على اتجاه حركة القوات دون استخدام أي وسيلة من وسائل المحافظة على الاتجاه . وتزداد هذه المشكلة سوءاً إذا عرفنا أن الطريق الخطر يخلو من أية معالم أرضية قد يسترشد بها أثناء مسيره ؛ ولذلك كان لا بد من الاعتماد على الوسائل البدائية التي كانت معروفة في ذلك الزمن مثل خبرة بعض الرجال ، واستخدام النجم ليلاً حيث اشتهر العرب في الماضي بمعرفتهم الجيدة في حركة النجوم واتجاهاتها ومواقعها .

بدأ خالد مسيره الخطر من الحيرة في أوائل حزيران عام ٦٣٤م، الموافق (أوائل ربيع الثاني عام ١٣هجري) ، وسار من الحيرة ومعه تسعة آلاف رجل

عبر عين التمر والمصيخ إلى قراقر ، حيث قام بالتزود بالمياه وطلب مـن جنده أن يتزودوا بها بشتى السبل والوسائل لتساعدهم في مسيرتهم . وبدأت عملية الاستعداد لعبور المنطقة من قراقر إلى سُوى . وهنا لا بد لنا من الإشارة إلى الخرافة التي تقول إن خالد بن الوليد وخلال استعداده لعبور المنطقة من قراقر إلى سوى ، وللتغلب على مشكلة نقص المياه أثناء المسير فإنـه قام بملءبطون الجمال بعد أن عطّشها لمساعدته في التغلب على هذه المشكلة . والغريب أن هناك الكثير من الناس ما زالوا يصدقون هذه الخرافة علما أنها لا تصمد أمام المنطق العلمي ، ولذلك لن أعيرها أي اهتمام في هذا السياق ، إذ كيف لحيوان أن يجمع الماء في بطنه دون أن يقوم جسمه باستغلاله وتصريفه .

بعد أن أنهى خالد استعداداته للمسير ، انطلق بقواته بعزم القائد الواثق من نفسه، وطلب من رافع بن عميرة أن يكون الدليل المرشد للقوات أثناء حركتها . ومرت الأيام الثلاثة الأولى من المسيرة بيسر وسهولة . إلا أن المياه التي كان مقررا لها أن تكفي لمدة خمسة أيام قد نفدت في اليوم الثالث من المسيرة نتيجة لحرارة الصحراء الشديدة ، خصوصا في شهر حزيران ، ولذلك كان على قوات خالد أن تكمل مسيرها لمدة يومين آخرين بدون مياه .

إستمرت المسيرة وبدأت وطأة العطش تشتد على الرجال حتى توقفوا عن الحديث فيما بينهم من شدة العطش . وفي مثل هذه الظروف عادة ما تصاب الجيوش بانهيار معنوياتها ، وينتابها حالات من القلق النفسي على مصيرها . إلا أن قوات خالد ظلت صامدة صابرة نتيجة لإيمانها الشديد بالله وبعقيدتها وقيادة سيف الله المسلول ، مما أكسبها قدرة خرافية على الاحتمال . ومع ذلك فقد كانت أرتال القوات غير منظمة أثناء المسير بحيث تأخر قسم منها في مسيره عن الجسم الرئيسي نتيجة الإعياء الذي بدأ يأخذ منها مأخذه .

وفي صبيحة اليوم الخامس بدأت المرحلة الأخيرة من هذا المسير ، والتي سيصل في نهايتها الجيش إلى المياه . حيث ذكر المؤرخون أنه كان يوجد بالقرب

من سوى عين للماء، ولم يكن أحد في قوات خالد يعرف مكانها إلا رافع بن عميرة الذي أصيب اثناء المسير بألم في عينه حتى أصبح غير قادر على الرؤية بها .

وبعد الوصول إلى سوى ، طلب رافع من الرجال البحث عن عين الماء بعد أن وصفها لهم ، فبحثوا عنها إلى أن تم العثور عليها ، فتزود الجميع بالماء بعد أن أوشكوا على الهلاك . وهكذا انتهت المجازفة الخطرة بنجاح منقطع النظير .

إن هذه المغامرة التي قام بها خالد بن الوليد لم تكن مسبوقة في التاريخ ، ولا يعتقد بأنها ستحدث في المستقبل مرة ثانية . لقد قطع خالد بقواته مسافة مائة وعشرين ميلا أي حوالي مئتي كيلو متر في خمسة أيام . وهذا المعدل يعتبر معدلا عاليا جدا بكل المقاييس ، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن القوات المتحركة هي قوات مقاتلة أولا ، وأنها كانت من المشاة ثانيا ، وتستخدم الخيول والإبل المحملة بالمواد الإدارية والأسلحة ثالثا .

وفي اعتقادي أن خالداً قد نجح في مسيره هذا نتيجة لأربعة عوامل رئيسية.هي:

١ - سرعة المسير حيث كان الجيش يقطع مسافة اليومين في يوم واحد .

٢ - التدابير الإدارية السليمة قبل البدء بالمسير .

٣ - إيمان القوات الشديد بالله وبعقيدتها وقيادتها العسكرية الفذة .

٤ - الحالة المعنوية التي كان يتمتع بها الجند ؛ فقد جاء هذا المسير بعد الانتصارات التي تحققت في العراق ضد الامبراطورية الفارسية .

بعد هذا التوضيح لا بد من الإشارة إلى أن المؤرخين قد اختلفوا حول الطريق الذي سلكه خالد في عبوره من العراق إلى بلاد الشام . إلا أن الواقدي قد ذكر أن خالداً قد تحرك من سماوة إلى أراك واجتاز منطقة صحراوية (٣) .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن خالداً قد سلك إحدى الطرق الأربع التالية : (٤)

١ – طريق الحيرة – دومة الجندل –الأزرق – بصرى .

٢ – طريق الحيرة – دير الزور – تدمر – بصرى .

٣ – طريق الحيرة – عين التمر – قراقر – سوى –أراك – تدمر – بصرى .

٤ – طريق الحيرة – عين التمر – قراقر – أبي الشامات – بصرى .

هذه هي الطرق التي أجمع المؤرخون على أن القوات الإسلامية قد سلكت إحداها في مسيرها من العراق إلى بلاد الشام ، وقد رجح غالبيتهم أن هذه القوات قد سلكت الطريق رقم (ثلاثة).

لقد استحوذت الحركة العسكرية التي قام بها خالد من العراق إلى بلاد الشام على اهتمام الباحثين ، وعلى وجه الخصوص العسكريين منهم . فقد سبق لهؤلاء أن اطلعوا على التاريخ العسكري ، وقرأوا عن فتوحات الإسكندر الكبير وهنيبال الذي عبر جبال الألب واجتاح بلاد الرومان قبل ثلاثة قرون من الميلاد .

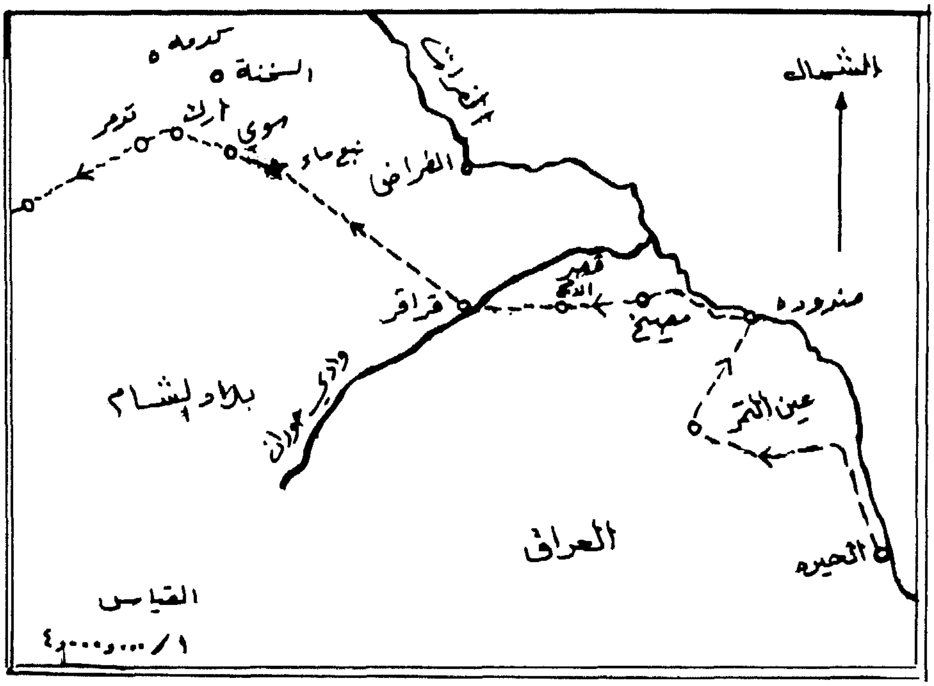
كما قرأوا عن هولاكو الذي خرج من بلاد التتر في جنوب شرق آسيا ، واجتاح منطقة الشرق الأوسط ودمر بغداد واستولى على بلاد الشام . إلا أنهم توقفوا طويلا أمام هذه الحركة العسكرية الرائعة لخالد .

صحيح أنه في الحرب العالمية الثانية قد قامت بعض الجيوش بحركات عسكرية طويلة ، إلا أن حركة خالد العسكرية ظلت تتصدر هذه الحركات جميعها ؛ فهي تمثل أول تطبيق عملي لاستراتيجية الاقتراب غير المباشر الذي يعتقد ليدل هارت أنه صاحبها في العصر الحديث . والواقع أن هذه الحركة لم تحقق النصر بحد ذاتها، ولكنها وضعت المسلمين في الموقف الذي يستطيعون من خلاله انتزاع النصر حتما من قوات الامبراطورية الرومانية .

ولا يعرف على وجه التحديد عدد القوات التي سار بها خالد من العراق إلى بلاد الشام ، فمنهم من قال إنه سار في ثمانمائة مقاتل ، وقيل في ستمائة ، وقيل في

خمسمائة ، وقيل في تسعة آلاف ، ويعتقد بأن الرقم الأخير هو الأقرب إلى المنطق[٥].

خريطة المسير



٢- الموقف العام قبل المعركة

أ- قوات الروم

بينما كان خالد يهزم قوات الامبراطورية الفارسية في معارك عنيفة ومتلاحقة على أرض الرافدين ، شرعت الجيوش الإسلامية بالتدفق على بلاد الشام لإنقاذها من الشرك وبسط نفوذ الدولة الإسلامية عليها . وقد تشكلت هذه الجيوش على النحو التالي :

١- الجيش الأول بقيادة أبي عبيدة وتوجه إلى حمص .

٢- الجيش الثاني بقيادة يزيد بن أبي سفيان وتوجه إلى دمشق .

٣- الجيش الثالث بقيادة شرحبيل بن حسنة وتوجه إلى الأردن .

٤ - الجيش الرابع بقيادة عمرو بن العاص وتوجه إلى فلسطين .

وقد وصلت إلى هرقل الذي كان في حينها بالقدس، أخبار هذه الجيوش والنجاحات التي أصابتها أثناء تقدمها في أرض الامبراطورية الرومانية ، فغادر على وجه السرعة من فلسطين إلى مقر قيادته في أنطاكية عن طريق دمشق- حمص.

بعد أن سمع هرقل عن تقدم القوات الإسلامية عبر حدود امبراطوريته فإن أول مشكلة واجهته كانت غموض مهمة جيوش الفتح الإسلامية التي بدأت تقتحم حدود امبراطوريته . وهذا ما جعله غير متأكد من قصد المسلمين في البداية ، إلا أن ما كان ثابتا لديه ، أن مهمة هذه الجيوش لن تكون كمهمة الجيش الإسلامي في مؤتة فهي مكونة من أكثر من جيش ، وتتحرك على أكثر من محور ، وتستهدف كما يتضح من حركتها أكثر من جهة . ولذلك أخذت حركة هذه الجيوش تثير القلق في

نفسه ، وبدأ يتوجس خيفة مما ستنتهي إليه مهمتها ، خصوصا بعد أن سمع عن انتصارات خالد بن الوليد التي حققها في مواجهاته مع جيوش الفرس . ونتيجة لذلك بدأ هرقل يتوقع بأنه سيواجه مواقف صعبة في القادم من الأيام مع هذه الجيوش . ولا بد له من العمل بحيث تكون استعداداته على المستوى الذي يمكنه من مواجهة الموقف المستجد على مسرح العمليات الجنوبي .

وبناء عليه قرر هرقل مغادرة فلسطين إلى أنطاكية ، فالاعتبارات العسكرية المستجدة والضرورات الاستراتيجية بدأت تفرض نفسها على مسرح العمليات ؛ وبناء عليه فإن حركة هرقل من فلسطين إلى أنطاكية كانت حركة منطقية وسليمة من وجهة نظر عسكرية ولم تكن هروباً من مواجهة المسلمين كما حاول بعض المؤرخين وصفها . فقد أكدت هذه الحركة الأفق الواسع لهرقل ، وقدرته على تقييم الموقف تقييماً سليما ؛ حيث حققت له هذه الحركة ظروفا أنسب لمواجهة المستجدات ، وجعلته قادرا على تحقيق الأغراض الرئيسية التالية :

١- إن وقوع أنطاكية على حدود بلاد الشام الشمالية ، يجعل منها موقعا متوسطا مناسبا لتوجيه العمليات العسكرية وإدارتها في المنطقه الجنوبية ، ويمكنه من حشد القوات الكافية ، ووضع الخطط المناسبة لها [٦].

٢- قرب أنطاكية من العاصمة السياسية للامبراطورية الرومانية (القسطنطينية) يمكن هرقل من القيام بكافة النشاطات السياسية والعسكرية والإدارية التي يتطلبها الموقف الراهن .

٣- قرب أنطاكية من أوروبا يجعله قريبا من احتياطه الاستراتيجي الذي يمكن أن يتلقاه عند الضرورة ؛ بصفة أوروبا أحد عناصر الدعم والإسناد الرئيسي لقواته .

٤- قرب أنطاكية من حدود الحجاز والشام ، واتخاذها مركزا عسكريا ، يقصر من خطوط إمداد القوات العاملة على المسرح الجنوبي ، ويمكن هرقل من

تقديم الدعم والإسناد لها بأسرع وقت ممكن .

هذه الاعتبارات التي حققها هرقل بانتقاله من فلسطين إلى أنطاكية جعلت من حركته هذه من وجهة نظر استراتيجية ، حركة صحيحة في كل الاعتبارات العسكرية والسياسية والإدارية ، ولذلك وصفناها بأنها كانت حركة موفقة ، تدل على بعد النظر ومنطقية التفكير .

بعد عودته إلى أنطاكية بدأ هرقل بدراسة الموقف المستجد من جميع جوانبه ، وبدأ تفكيره يعمل على ربط الأحداث السابقة بالأحداث اللاحقة ، وذلك في محاولة منطقية تهدف إلى التعرف على قصد الجيوش الإسلامية . ومن خلال ذلك يربط بين أهداف الرسالة التي سبق له وأن تلقاها من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، والذي دعاه فيها إلى الإسلام ، وحركة الجيوش الإسلامية داخل حدود امبراطوريته الجنوبية في هذا الوقت .

كما أخذ هرقل يربط بين عمل القوات الإسلامية على مسرح عمليات العراق وما حققته هذه القوات من نجاح ، وبين عمل هذه القوات على مسرح عمليات بلاد الشام . ففي المسرح الأول تمكنت القوات الإسلامية من فتح بلاد ما بين النهرين وإلحاقها سياسيا وإداريا وجغرافيا بالدولة الإسلامية ، ولا شك بأن هرقل قد وصل إلى هذه النتيجة وهي أن القوات الإسلامية تسعى إلى فتح بلاد الشام وإلحاقها بالدولة الإسلامية .

هذا الربط المنطقي للأحداث مكّن هرقل من التعرف على قصد الجيوش الإسلامية أو التنبؤ به ، وهذا ما أكد بأن طبيعة مواجهته القادمة مع هذه الجيوش التي اخترقت حدود امبراطوريته ستكون مواجهة شاملة يتحدد من خلالها اعتبارات قد تفضي إلى إحداث تغيرات جغرافية وسياسية هامة لكلتا الدولتين .

وانطلاقاً من هذا التقدير الذي خرج به هرقل ، و خطورة النتائج التي تترتب عليه فقد تأكد له بأنه مقبل على مواجهة شاملة لن يقتصر تأثيرها على النتائج

العسكرية في مسرح العمليات ، بل ستتعدى ذلك لتصل إلى مستقبل الامبراطورية الرومانية وربما القارة الأوروبية برمتها . وتأسيسا عليه قرر الدخول في حرب حاسمة وشاملة مع القوات الإسلامية . وهذا ما جعله يقوم بحشد آلة حربية هائلة في أنطاكية وفلسطين للقضاء على هذه الجيوش منفردة إن أمكن ، أو القيام بعملية تطويق واسعة النطاق إن قامت بالتجمع في موقع واحد .

بعد ذلك بدأ هرقل يفكر في الأسلوب الأمثل لمواجهة القوات الإسلامية ، وبدأ بدراسة نقاط ضعف هذه القوات . ومن خبرته الطويلة ومعرفته بطبيعة الإنسان العربي الذي تغلب عليه البداوة والطابع الصحراوي ، اعتقد هرقل أن أفضل الأساليب لقهر هذه الجيوش وتحطيمها هو العمل على عزلها عن الصحراء التي تعتمد عليها لحماية نفسها عند الحاجة ، وذلك عن طريق محاولة توريطها بالتقدم باتجاه الشمال إلى أنطاكية كونها بعيدة إلى الأمام عن الصحراء . فإذا تورطت هذه الجيوش في التوغل داخل أراضي الامبراطورية الرومانية ؛ فإن خطوط مواصلاتها تصبح طويلة مما يسهل قطعها ، وتبتعد عن الصحراء ملاذها الأمين وتصبح في الموقع الأمثل للقيام بعملية عزلها عن مركزها وتطويقها ، وبذلك يستطيع هرقل أن يجرد هذه القوات من بعض عناصر قوتها .

لقد سعى هرقل من خلال تصوراته لطبيعة المواجهة إلى محاولة القيام بمواجهات منفردة مع الجيوش الإسلامية وذلك لسهولة القضاء عليها . إلا أنه فشل في هذه المحاولة فشلا ذريعا كما سنلاحظ عند دراستنا لموقف قوات المسلمين على الرغم من أن جيشه الموجود في فلسطين قد تمكن من تثبيت قوات عمرو بن العاص ومنعها من الحركة أو الانسحاب للمواقع التي تم اختيارها لحشد القوات الإسلامية .

بعد أن أدرك هرقل أن القوات الإسلامية قد أحجمت عن التوغل في بلاد الشام وأنها عرفت ما يرمي إليه في تخطيطه ، وبعد أن تأكد من فشله في استدراجها إلى المواقع التي رسمها لها ، قام بتطبيق الشق الثاني من تصوره ،وهو القيام بحشد

قوات كبيرة في موقعين رئيسيين : الأول في فلسطين وحشد له جيشا قوامه سبعون ألف مقاتل مهمته الأولية منع الجيش الإسلامي الموجود على أرضها من الانسحاب ثم مهاجمته وتدميره ، وفي المرحلة الثانية تكون مهمة هذا الجيش القيام بعملية تطويق للقوات الإسلامية من الخلف وعزلها عن الصحراء . بعد أن يكون الجيش الثاني في دمشق قد بدأ الضغط عليها والاشتباك معها ، وهكذا قرر هرقل الوصول إلى نفس النتائج التي كان يسعى للوصول إليها بأسلوب جديد . وفعلا قام هرقل بعملية انفتاح لقواته في مسرح العمليات على شكل فكي كماشة : الأول في فلسطين والثاني في دمشق . واستطاع تثبيت قوات عمرو بن العاص بجيشه الأول في فلسطين في الوقت الذي بدأ فيه جيشه الثاني المتجه جنوبا القيام بعملية ضغط على القوات الإسلامية في دمشق ، مما أجبرها على التراجع .

لقد تمركزت قوات الامبراطورية الرومانية في المواقع الرئيسية التالية : (٧)

١- أنطاكية : هي عاصمة بلاد الشام في العهد الروماني .

٢- قنسرين : تقع بين حماة وحلب .

٣- حمص : ويمتد نفوذها العسكري حتى تدمر وصحراء الشام .

٤- عمان : وهي قاعدة البلقاء في الأردن .

٥- أجنادين : قاعدة الروم العسكرية في جنوب فلسطين .

٦- قيسارية : شمال فلسطين .

وكان مقر القيادة الرومانية في أنطاكية عاصمة بلاد الشام في ذلك العهد .

وتأسيسا على ذلك ، نستطيع أن نجمل خطة المواجهة التي وضعها هرقل على النحو التالي :

١- تتراجع الجيوش الرومانية أمام الجيوش الإسلامية وتتخلى عن منطقة الحدود بين الشام والحجاز .

٢- تتجمع وحدات الجيش الأول في فلسطين بقيادة سرجون .

٣- تتجمع وحدات الجيش الثاني في أنطاكية بقيادة ابن هرقل .

٤- تتحرك هذه الجيوش وتهاجم الجيوش الإسلامية الاربعة كُلاًّعلى انفراد ليسهل تدميرها .

وبناء على هذه الخطة فإن جيوش الروم بدأت حركتها على النحو التالي : (٨)

١- توجه تاذروق في جيش تعداده سبعون وقيل تسعون ألف مقاتل للقضاء على جيش عمرو بن العاص .

٢- توجه بن توذر إلى دمشق للقضاء على قوات يزيد بن أبي سفيان .

٣- توجه القبقار في جيش تعداده ستون ألفا إلى حمص لتدمير قوات أبي عبيدة .

٤- توجه جيش بقيادة الدراقص نحو شرحبيل بن حسنة في الأردن لتدمير قواته.

من الخطة أعلاه يتضح أن هرقل قد حاول استغلال الميزة التي تتمتع بها الامبراطورية وهي القدرة على تجهيز عدة جيوش كبيرة في آنٍ معاً . كما يتبين من الخطة أيضاً أن قوات هرقل قد تقدمت على جبهة عريضة ومحاور قتال مختلفة وكان الهدف من وراء ذلك على ما يبدو هو مواجهة الجيوش الإسلامية كل على انفراد ، ومحاولة تشتيت جهدها . كما أن هذا الشكل من التقدم يساعد القيادة الرومانية في التمويه على المواقع التي ستتحرك إليها أو تحشد فيها قواتها . أضف إلى ذلك أن التقدم على جبهة واسعة ومحاور متعددة ، يعطي القيادة العليا مزيدا من المرونة لمواجهة المواقف المستجدة أو الطارئة بحيث يجعلها قادرة على توجيه أي قوة من القوات المتحركة لمساندة أي قوة أخرى ، أو معالجة أي مشكلة عسكرية دون إرباك . كما أن التقدم على محاور متعددة كان موجها في الأساس

إلى تحقيق التدخل بانسحاب القوات الإسلامية إن أمكن ، وتحويل عملية انسحابها إلى هزيمة، أو تثبيت كل جيش في موقعه في محاولة للقضاء عليه بصورة منفردة.

لقد استغل هرقل بالإضافة إلى ميزة التفوق العددي في قواته ميزة أخرى ليست أقل منها شأنا ،وهي استغلال البيئة الجغرافية والسكانية لصالحه ، فالقوات الرومانية ستقاتل على أرضها ، وهذه الأرض مألوفة لها وتجيد المناورة عليها ، والبيئة السكانية ليست معادية ، بل على العكس من ذلك . فهي بيئة موالية وقادرة على تقديم الدعم والإسناد لهذه القوات إن احتاجت إلى مثل ذلك ، ولهذا تكون البيئة الجغرافية والسكانية قد ساعدت القوات الرومانية على تبني خيار التعرض بأوسع معانيه .

عندما بدأت القوات الرومانية عملية تقدمها على المحاور المحددة لها ، أخذت القوات الإسلامية بالمقابل بتنفيذ عملية انسحاب ناجحة دون أن تتمكن القوات المعادية من التدخل في انسحابها ، وبدأت هذه القوات بالتجمع في المنطقة الجنوبية من دمشق .

ونتيجة لنجاح القوات الإسلامية في انسحابها أحدث هرقل بعض التعديلات على خططه المرسومة . فبعد أن فشل في تحقيق التماس مع قوات المسلمين المنسحبة ، عاد وتبنى فكرة القيام بعملية حشد وتجميع قواته في منطقة واحدة استعداداً لمواجهة القوات الإسلامية .

من ذلك يتضح أن جميع خطط هرقل ومحاولاته بفرض معركة شاملة على المسلمين قبل أن يقوموا بإعادة تنظيم قواتهم في دمشق قد باءت بالفشل . ويعزا السبب في هذا الفشل إلى عدم تكامل حشد قواته المتحركة باتجاه دمشق نتيجة لبطء حركتها أثناء عملية التقدم .

من وجهة نظر عسكرية ، كان أمام هرقل عدة فرص مهمة لم يستغلها بصورة جيدة ؛ فقد كان أمامه إمكانية عدم السماح للمسلمين بالتحشد وفرض القتال عليهم

بصورة منفردة ، كما كان أمامه فرصة مواصلة الضغط على المسلمين والتدخل في عملية انسحابهم وتحويلها إلى هزيمة . كما كان بإمكانه عدم تثبيت قواته في فلسطين والقيام بعملية التفاف على حدود امبراطوريته الجنوبية مجبراً قوات عمرو ابن العاص على الانسحاب أو تدميرها ،كما كان بإمكان جيش فلسطين القيام بعملية تطويق للقوات الإسلامية المنسحبة .

كل هذه الفرص كانت متاحة أمام هرقل ، إلا أن الأخطاء التي وقع فيها منعته من استغلال هذه الفرص بصورة جيدة ؛ فقد كانت حركة قواته إلى الأمام حركة بطيئة مما جعلها غير قادرة على تنفيذ عملية ضغط متواصلة على الجيوش الإسلامية لمنع انسحابها أو حشدها . إن هذه الحقيقة تبين أن هرقل كان من القادة الذين لا يجيدون لعبة الحرب التي تقتضي من القائد العمل على وضع القيادات المواجهة أمام مجموعة من المعضلات الصعبة ، والظروف غير المناسبة التي تربك موقفها ، وتقيد من قدرتها على المناورة أو إعادة التنظيم . وهذا يتطلب من القيادات المختلفة أن تكون على دراية جيدة بجوانب الضعف والقوة لدى العدو ومحاولة استغلالها الاستغلال الأمثل لتطوير الموقف وإلحاق الهزيمة به .

كما ارتكب هرقل العديد من الأخطاء في طلبه من قادة جيوشه التجمع في مناطق ضيقة ومحدودة ، حرمت قواته من حرية المناورة التي كانت تتمتع بها ، وأفقدتها القدرة على القيام بعمليات الاختراق والالتفاف والتطويق ؛ مما حول طبيعة عملياتها من عمليات قتالية متحركة إلى عمليات تتصف بالثبات أو الجمود .

كان يمكن لهرقل أن يقوم بحشد جيوشه في أكثر من موقع لمواجهة جيوش المسلمين ، بحيث يقوم أحد هذه الجيوش بعملية اشتباك بينما يقوم الجيش الآخر بعملية تطويق ، وبذلك يكون قد عوض مهمة جيش أجنادين الذي تمت إبادته . فقد كان قادرا من وجهة نظر عسكرية على القيام بهذه المناورة بكل سهولة ، خصوصا أن قواته التي حشدها في اليرموك تعادل ستة أضعاف القوات الإسلامية ، إلا أنه لم

يفعل ذلك ووضع قواته في موضع يسهل على المسلمين تطويقها فيه .

لقد اختلفت التقديرات حول عدد أفراد الجيش الروماني فقد ذكر ابن كثير أن عدد أفراد الجيش الروماني قد بلغ في معركة اليرموك مائة وعشرين ألف مقاتل(٩).

بينما ذكر الطبري أن عدد أفراد القوات قد بلغ حوالي مائتين وأربعين ألف مقاتل، أما الأزدي فيقول : " أخبرنا الحسين بن زياد عن أبي إسماعيل محمد بن عبد الله قال : خرج إلينا ماهان يوم اليرموك في ذي قباب فخرج إلينا في عشرين صفا وهم نحو من أربعمائة ألف " .

أما عن عناصر الجيش الروماني في اليرموك، فقد ورد على لسان المؤرخين أن الجيش كان مؤلفا من الروم والأرمن والعرب(١٠) . وقد كان العرب والأرمن يشكلون قلب القوات الرومانية بقيادة "جبلة بن الأيهم" و "جرجير" . أما العناصر الرومانية فقد جرى تنظيمها في صفوف الميمنة بقيادة قناطر ، وعلى الميسرة بقيادة "ديرجان". أما فرسان الروم فقد كانت على الأجنحة ، ولم يتوفر لهذا الجيش أي احتياط .

كان لظهور خالد بن الوليد على مسرح عمليات بلاد الشام وقع مذهل على هرقل، حيث اعتبر هذه الحركة حركة عسكرية مفاجئة ستؤدي إلى عواقب وخيمة، لأنه سبق لهرقل أن سمع عن عبقرية خالد العسكرية في العراق . كما أنه على معرفة أكيدة به منذ خلص جيش المسلمين من معركة مؤتة ، وقام بعملية الانسحاب الشهيرة . لقد أكدت حركة خالد العسكرية لهرقل الأمور التالية :

١- إن انسحاب الجيوش الإسلامية أمام تقدم قواته ما هو إلا انسحاب عسكري مدبر، هدفه تحسين ظروف المعركة القادمة ، وإلا لو كانت هناك أي نية في الانسحاب النهائي لما كان قدوم خالد بن الوليد ضروريا .

٢- إن المسلمين يخططون لخوض معركة شاملة مع قوات الامبراطورية لتحقيق أهدافهم العسكرية والسياسية .

٣- إن المسلمين يسعون إلى إسقاط دمشق ، وإن أي نجاح لهم سيؤدي إلى سقوط الكثير من المدن المحيطة بدمشق .

إضافة إلى ذلك فقد أدرك هرقل ، أن جميع خططه التي رسمها وتقديرات الموقف التي وضعها قد ذهبت في مهب الريح ؛ ولذلك أخذ يقوم بتقدير موقف جديد بناء على جميع المستجدات التي طرأت على أرض المعركة ، وخصوصا بعد أن وصل خالد بقواته إلى مسرح العمليات ، مما أعطى مهمة القوات الإسلامية بعدا مضافا ، ورفع من معنوياتها ، وأكد إصرارها على المواجهة . وهذا ما زاد من قلقه وخوفه من أن ينزل به خالد ما أنزله بجيوش الفرس ، فيدمر قواته ويفتح مساحات واسعة من امبراطوريته .

ب- موقف القوات الإسلامية :

أصابت الجيوش الإسلامية الأربعة التي توجهت إلى بلاد الشام بعض النجاح ، فتقدم بعضها إلى دمشق ، وبعضها توجه إلى حمص ، وتوغل بعضها في فلسطين. وكما سبق أن بينا فقد قام هرقل بالاستعداد لمواجهة هذه القوات، وحشد الجيوش الهائلة لحسم هذا الموقف لصالحه . وأمام هذه التطورات السريعة تكاتب القادة المسلمون للجيوش الأربعة وتشاوروا فيما بينهم ، فأشار عليهم عمرو بن العاص بضرورة التراجع إلى الجنوب على أن يتم هذا التراجع قبل أن يلتقي الجيشان الرومانيان ويشتبكا بهم وهم متباعدون متفرقون ، فإذا تجمعت الجيوش العربية لا تغلب من قلة ، ويحاربون وظهورهم محمية بالصحراء التي تحجم الجيوش الرومانية عند حدودها ولا تجسر على عبورها .

وعندما استقر الرأي على هذه الخطة كتب أبو عبيدة إلى الخليفة يخبره بتفاصيل الموقف ، ويأخذ رأيه فيما تم الاتفاق عليه بين القادة ، فوافق الخليفة على الخطة بعد أن كتب إلى خالد وطلب منه التوجه إلى بلاد الشام . بعد أن وصل خالد إلى

بلاد الشام ، قام بدراسة متأنية للموقف ، وقرر القيام بتوحيد القيادة الإسلامية كأول عمل هام على طريق المواجهة مع الروم .

ثم بدأ بعملية تقدير موقف لقوات الطرفين للتوصل إلى حل منطقي لمعضلات المواجهة القادمة ، وبناء عليه وجد أمامه الخيارات المتعددة التالية :

١- **الخيار الأول** : مكاتبة الخليفة والطلب منه العمل على تعزيز قوات عمرو بن العاص في فلسطين بقوات إضافية تسمح له بمواجهة قوات الروم هنالك .

فإذا تم ذلك ، فإنه سيقوم بمواجهة شاملة مع فكي الكماشة الرومانية في فلسطين ودمشق في آنٍ واحد ، ولكن هذا الخيار كان بحاجة إلى الوقت الكافي لتنفيذه . وقد لا يكون لدى الخليفة من القوات المستعدة للتوجه إلى فلسطين والوصول إليها في الوقت المناسب بل قد لا تكون هذه القوات متوفرة أصلا .

٢- **الخيار الثاني** : أن يقوم خالد بن الوليد ومعه أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة بمواجهة الجيش الروماني الزاحف إليهم من حمص ، بينما يقوم عمرو بن العاص منفردا بمواجهة الجيش الروماني في فلسطين ، إلا انه استبعد هذا الخيار للأسباب التالية :

أ- قد لا تستطيع قوات عمرو بن العاص مواجهة الجيش الروماني نتيجة لتفوقه العددي الساحق ، حيث بلغ تعداد الجيش الروماني حوالي سبعين ألف مقاتل، بينما لا تتجاوز قوات عمرو بن العاص سبعة آلاف مقاتل .

ب- إن أي نجاح تحققه القوات الرومانية على قوات عمرو ، سيؤدي إلى إلحاق الضرر بقوات المسلمين في دمشق حيث يصبح بمقدور الجيش الروماني في فلسطين القيام بعملية تطويق للقوات الإسلامية بعد أن يكون قد تخلص من قوات عمرو ، مما يتيح لهذا الجيش عزل هذه القوات عن الصحراء وقطع خطوط إمداداتها .

٣- **الخيار الثالث** : أن يبقى في بصرى ويطلب من عمرو بن العاص الانسحاب

من فلسطين والالتحاق بالقوات الإسلامية في دمشق ، ومن ثم القيام بخوض معركة فاصلة مع جيوش الروم في اليرموك . إلا أن الخيار يبقي جيش الروم في فلسطين على درجة عالية من حرية المناورة والحركة ، وهذا ما يهدد الجناح الأيسر للقوات الإسلامية ومؤخرتها في آن معاً ، مما يمكن قوات الروم من العمل على تطويق القوات الإسلامية وعزلها عن الصحراء وقطع خطوط مواصلاتها عن قاعدتها الرئيسية في المدينة المنورة . وبعد ذلك ربما ينفذ (وردان) قائد الجيش الروماني ما وعد به هرقل من استمراره في التقدم باتجاه المدينة المنورة ومكة ليقوم بهدم الكعبة والقضاء على الدولة الإسلامية (١١). وكان من الممكن لهذا الجيش أن يقوم بهذه العملية نتيجة لعدم توفر الجيوش الإسلامية الاحتياطية من جهة ، وحالة عدم الاستقرار التي كانت تعاني منها الدولة الإسلامية من جهة أخرى . كما أنه خشي من تدخل قوات الروم بانسحاب قوات عمرو وتدميرها .

٤- **الخيار الرابع** : أن يقوم بتعزيز قوات عمرو بن العاص بأحد الجيوش الثلاثة الموجودة في دمشق لمواجهة قوات الروم في فلسطين ، بينما يقوم هو ومن معه من العراق إضافة إلى جيشين من الجيوش الأربعة في دمشق بتثبيت الجيش الروماني الثاني ، إلا أنه استبعد هذا الخيار للأسباب التالية :

أ- إحتمالية عدم قدرة الجيشين على مواجهة قوات الروم في فلسطين وتعريضهما للخطر .

ب- إعطاء القيادة الرومانية الفرصة لمواجهة القوات الإسلامية بصورة مجزأة .

٥- **الخيار الخامس** : أن يقوم بتوجيه ضربة عسكرية مفاجئة ، بجميع القوات الإسلامية لتحطيم فك الكماشة الرومانية في فلسطين ، يعود بعدها لمواجهة جيوش الروم في دمشق . وهذا الخيار كان يتطلب من خالد أن يتحرك بسرعة إلى ميدان فلسطين وإنجاز المهمة قبل أن يتمكن الجيش الروماني الثاني من التدخل في المعركة ، وقد خبر خالد هذا النوع من المواجهات وطبقه عمليا في أرض الرافدين

ونجح فيه نجاحا بارعا .

وبحنكة القائد المجرب الخبير ، وقع اختيار خالد بن الوليد علىالخيار الخامس ، وفوراً بدأ استعداده للتنفيذ وحسم الموقف ، فكتب إلى عمرو بن العاص يطلب منه البقاء في فلسطين ويخبره بأنه في الطريق إليه .

وكان ظهور خالد بقواته في أجنادين مفاجأة من المفاجآت العسكرية الحاسمة ، فقد كان وقعها على القيادات الرومانية وقع الصاعقة ، بعد أن أخلت بموازين المواجهة وحطمت آمال هذه القيادات التي كانت تعتقد بأنها مقبلة على مواجهة سهلة مع قوات عمرو التي لا يزيد تعدادها عن سبعة الآف مقاتل .

لقد انقلب الوضع العسكري وتبدل الموقف كليا فحال وصول خالد انقض بقوته على الجيش الروماني وسحقه في معركة أجنادين ، مما تسبب في رفع الروح المعنوية بين صفوف المسلمين بعد أن تخلصوا من الخطر الذي كان يهددهم بالتطويق والعزل . وقد روع هذا الانتصار الامبراطورية الرومانية بكاملها .

وبهذا الانتصار الذي حققه المسلمون في أجنادين يكون خالد قد خطا الخطوة الأولى على الطريق الصحيح لدخول معركة فاصلة مع قوات الامبراطورية الرومانية التي تفوقه عددا وعدة .

بعد معركة أجنادين بأسبوع ، تقدم خالد بقواته نحو دمشق ، وقد وضع المسلمون بعض عناصرهم في الأمام لتقوم بعمليات الاستطلاع والمراقبة لقوات الروم المتقدمة ولذلك اصطدم جيش الروم أثناء تقدمه إلى المنطقة بهذه القوات .

بعد وصول الروم إلى اليرموك قام قائدهم " ماهان" بإنشاء معسكر امتد على طول ثمانية عشر ميلا وبناء على رواية الواقدي ، فقد كان معسكر الروم يقع قرب الجولان وهي المنطقة الممتدة بين وادي الرقاد وبحيرة طبريا . وبناء على ذلك اقترح خالد أن يعسكر جيش المسلمين بحيث تكون مؤخرة الجيش باتجاه أزرع وجناحه مستندا على اليرموك .

لقد فتح قائد الروم جيشه للقتال بخط حرب طوله اثنا عشر ميلا ، حيث ابتدأ من اليرموك إلى جنوب تل الجابية ، وقسم جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب ، كما قام بتوزيع الخيالة على جيوشه بالتساوي بحيث كانت المشاة في الأمام والخيالة بالخلف ووضع قوات جبلة بن الأيهم في الأمام . وقد بلغ عدد صفوف القوات الرومانية ثلاثين صفا ، مما أكسبها عمقا كبيرا وجعل من عملية اختراقها عملية صعبة .

وبناء على دراسة خالد لموقف قوات الروم وتنظيمها قام بالإجراءات التالية :

١- **تنظيم القوات** : قام خالد بتنظيم قواته بما يتلاءم مع الموقف الراهن ، وطبيعة المنازلة مع قوات العدو ، فقسم جيشه إلى كراديس ، جعل في كل كردوس ألف مقاتل، وبلغ عدد الكراديس حوالي أربعين كردوسا ، ووضع على رأس كل كردوس قائدا من قادته المشهورين . ثم قام بتنظيم الكراديس في ثلاث مجموعات رئيسية كل مجموعة مؤلفة من (١٠-٢٠) كردوسا ، ورتب وضعها على النحو التالي: (١٢)

أ- المجموعة الأولى بقيادة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل ين حسنة على الجناح الأيمن .

ب- المجموعة الثانية بقيادة أبي عبيدة في القلب .

ج- المجموعة الثالثة بقيادة يزيد بن أبي سفيان على الجناح الأيسر .

د- المجموعة الرابعة وهي قسم من القوات وضعت في الاحتياط تحت تصرف خالد بن الوليد ، وكانت من الخيالة التي تملك القدرة على الحركة عند الحاجة.

٢- **الاستطلاع** : قام خالد بعمليات استطلاع واسعة النطاق لمواقع قوات العدو ، ودرس نقاط القوة والضعف ، ثم قام بتوزيع الواجبات على القادة .

٣- **قام خالد بعد ذلك بعمليات رفع لمعنويات قواته وإثارة نخوتهم** ، وطلب من

النساء أن يقمن بتشجيع الرجال على القتال ومنعهم من الفرار من المعركة ، وطلب منهن ضرب كل من يهرب من ساحة المعركة بالحجارة وأعمدة الخيام . بعد أن استعدت جيوش الفريقين للمعركة الفاصلة بدأت هناك مفاوضات سياسية بين الطرفين ، هدفت للوصول إلى الحلول السلمية ، وبعد فترة من المفاوضات التي اختتمها خالد بن الوليد بمفاوضاته مع قائد جيوش الروم (ماهان) ، عاد وأخبر أبا عبيدة وباقي قادة الجيش أن الحرب قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى وأنه لا مفر منها ، وعليهم منذ هذه اللحظة الاستعداد للمعركة واتخاذ التدابير الكفيلة بتحسين ظروف المواجهة .

بمقارنة قوات الطرفين يتبين أن قوات الروم تتفوق في عددها وعدتها على القوات الإسلامية ، وهي في تشكيلها كانت تمثل عمقا هائلاً ليس من السهولة اختراقه . بينما كانت القوات الإسلامية تتكون من ثلاثة صفوف فقط ولذلك فإنها كانت تشكل عمقا رقيقا يسهل اختراقه .

وقد وضع خالد قسما من الخيالة تحت إمرة قائدي الميمنة والميسرة لاستخدامها كاحتياط لإعادة الوضع إلى ماكان عليه إذا نجحت القوات الرومانية في زعزعتهم عن مواضعهم . أما ما بقي من الاحتياط فقد وضعه خالد تحت إمرته ليكون جاهزا للعمل كاحتياط متحرك لجميع القوات ،ووضع ضرار بن الأزور كقائد لهذه القوات في الوقت الذي يكون فيه خالد مشغولا بالمعركة ، حيث عرف عن ضرار شجاعته وإقدامه بين الأعداء والأصدقاء على حد سواء . ونتيجة لذلك أسند إليه خالد بن الوليد الكثير من المهام التي تنطوي على المخاطر وتحتاج إلى الجرأة والإقدام .

وقد كان موقف الجيشين بالنسبة لمواقع القوات متشابهاً إلى حد ما : فالجناح الجنوبي لكلا الجيشين محمي بمانع طبيعي بارتكازه على نهر اليرموك بحيث يصعب الالتفاف عليه . وبعد تنظيم القوات بدأ خالد بن الوليد وأبو عبيدة وغيرهما من القادة بالطواف على تشكيلات الجيش الإسلامي ، يرفعون من معنويات المقاتلين ويحضونهم على القتال والصبر عند اللقاء ويذكرونهم بثواب الشهداء

والعار الذي يلحق بالضعفاء والجبناء [١٣].

قضى المسلمون الليل في الصلاة وتلاوة القرآن الكريم ، وكان معظمهم يقرأ سورة الأنفال استعداداً لخوضْ المعركة التي كانوا يدركون أهميتها وخطورة نتائجها على مستقبل عقيدتهم . هذا هو الموقف الذي كان عشية معركة اليرموك ، إحدى أعظم المعارك التي شهدها التاريخ .

٣ - معركة أجنادين

كانت بصرى أول مدينة هامة تم الاستيلاء عليها من قبل المسلمين في سورية، ولم تكد بصرى تستسلم حتى عاد رجال الاستطلاع الذين أرسلهم شرحبيل بن حسنة إلى منطقة أجنادين ، ومعهم معلومات تشير إلى تحشدات الروم الجارية في تلك المنطقة ، فأدرك خالد بن الوليد أن عليه أن لا يضيع الوقت المتوفر لديه .

في هذه الأثناء كان يزيد بن أبي سفيان لا يزال مع قواته جنوب منطقة اليرموك، وعمرو بن العاص في وادي عربة ، فكتب خالد إلى جميع القادة يطلب منهم التحرك للحشد في منطقة أجنادين ، حيث سيتم في تلك المنطقة خوض أول المعارك الكبيرة مع قوات الروم .

وفي الأسبوع الثالث من تموز عام (٦٣٤ م) سار جيش المسلمين من بصرى باتجاه أجنادين التي وصلها قبل وصول قوات عمرو بن العاص .

بلغ عدد جيوش المسلمين المحتشدة في أجنادين حوالي اثنين وثلاثين ألف رجل وهو أكبر جيش إسلامي احتشد حتى الآن لخوض معركة . وبعد أن استغرق حشد هذه القوات مدة أسبوع ، أقام المسلمون معسكرهم على بعد حوالي ميل من معسكر الروم .

لقد كان قرار خالد بن الوليد بالحركة إلى أجنادين قراراً صائباً ، فمع وجود

جيش كبير للروم في أجنادين ، كان من الممكن لهذا الجيش أن يقوم بمناورة يستطيع من خلالها تثبيت قوات المسلمين في المناطق التي احتلتها . لذلك كان من الضروري التخلص من هذا التهديد الذي بات يشكل خطراً كبيراً على قوات المسلمين ، خصوصاً أن تعداد هذا الجيش قد بلغ حوالي سبعين ألف مقاتل .

وكجزء من الاستعدادات للمعركة بدأ خالد بإجراء تحضيراته العسكرية فقام بإرسال فرق استطلاع للحصول على المعلومات عن قوات الروم ، وأخذ ينظم قواته للمعركة القادمة ، ويقوم بجولات تفقدية على هذه القوات في مواقعها يحثها على القتال والصبر عند لقاء الاعداء . فقد كانت شخصية خالد والثقة بالنفس التي يتمتع بها ذات أثر كبير في رفع معنويات جنوده ... وقد استغرقت التحضيرات للمعركة بضعة أيام من قبل الطرفين .

وفي صباح الثلاثين من تموز عام (٦٣٤ م) (الثامن والعشرين من جمادى الأولى عام ١٣ هـ) ، وبعد أن انتهى المقاتلون من صلاة الصبح أمر خالد قواته بالحركة إلى مواقع المعركة ، فتحرك المسلمون إلى الأمام وفتحوا قواتهم بتشكيل المعركة على مسافة تبلغ حوالي خمسة أميال . وقد فتح خالد قواته على هذه المسافة الطويلة حتى يمنع حدوث أي التفاف من قبل قوات الروم على جوانب قواته.

أسند خالد قيادة الجناح الأيمن لعبد الرحمن بن أبي بكر ، وقيادة الجناح الأيسر لسعيد بن عمير ، ووضع القلب تحت إمرة معاذ بن جبل . أما حرس الجناح الأيسر فكان بإمرة شرحبيل بن حسنة ، ووضع حرس الجناح الأيمن تحت قيادة غير معروفة للمؤرخين ، ووضع خلف القلب قوة تقدر بأربعة آلاف مقاتل تحت قيادة يزيد بن أبي سفيان كاحتياط للقوات . وأخذ خالد مكانه في قلب الجيش حيث احتفظ معه بعدد من القادة المسلمين بالقرب منه لاستخدامهم عند الحاجة كقادة مجموعات خاصة لتنفيذ أي مهام تطرأ في ميدان المعركة . وكان من بينهم عمرو بن العاص

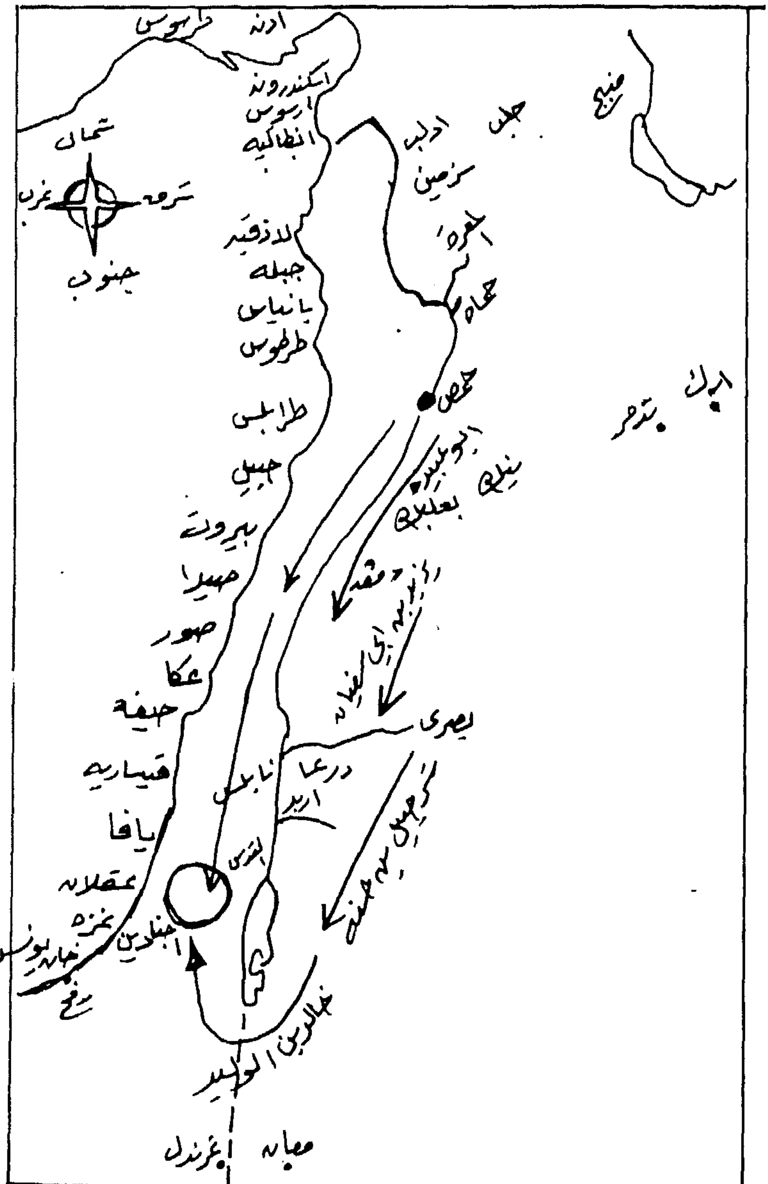
وضرار بن الأزور وغيرهم .

سارت المرحلة الأولى في غير صالح المسلمين ، إذ قتل وجرح عدد كبير منهم. إلا أن خالداً طلب من قواته أن تشن هجومها لتعديل الموقف ففعلت ذلك واستمر القتال طيلة اليوم إلى الغروب حيث كانت خسائر الروم كبيرة جداً .

إستمرت المعركة في اليوم الثاني على أشدها حتى بلغ الإنهاك والتعب مبلغه في قوات الطرفين . وفي هذه اللحظة قام خالد بزج قواته الاحتياطية في المعركة ، فاستطاع المسلمون اختراق صفوف قوات الروم ، وتمكنوا من قتل القبقلار قائد القوات الرومانية ، وبموته ضعفت مقاومة الروم ؛ ثم انهارت تماماً ، وهرب الروم من ميدان المعركة ، وأرسل خالد في هذه اللحظة خيالته لمطاردة فلول الروم في كل الاتجاهات .

لقد تمزق شمل القوات الرومانية وحقق المسلمون نصراً مؤزراً عليهم بعد أن خاضوا معهم معركة عنيفة مهدت الطريق أمام القوات الإسلامية لفتح بلاد الشام . وكان هرقل في حمص عندما بلغه نبأ هزيمة قواته في أجنادين ، فشعر بمدى الكارثة التي حلت به وأدرك بأن القوات الإسلامية لن تكتفي بما حققته حتى الآن ، فبدأ استعداداته لمعركة الحسم في اليرموك .

خريطة معركة أجنادين



٤ - تحليل مسرح العمليات

يمثل مسرح العمليات العسكرية أحد العناصر الهامة التي تشغل بال القيادات العسكرية المعنية وذلك لما له من آثار حاسمة على الكثير من عمل القوات المتحاربة .

فهو من ناحية يشكل أحد القيود الرئيسية على شكل وطبيعة مناورة القطعات المتحاربة ، وهو من ناحية أخرى ينعكس بآثار حاسمة على تنظيم هذه القوات ونوع القطعات المناسبة للعمل عليه ، كما أنه يؤثر على سرعة عمل القطعات العسكرية ومستوى الدعم والإسناد الذي تقدمه . كل هذه القيود شكلت ولا تزال معضلة عسكرية للقيادات الميدانية وفرضت عليها التعامل معها بصورة واضحة عند التخطيط وفي مراحل التنفيذ .

وتعتبر أهمية مسرح العمليات في معارك الزمن الماضي ، أقل منها في عمليات الوقت الراهن ، إلا أن ذلك لاينفي هذه الأهمية .

ففي معارك الماضي كانت أنواع الأسلحة المستخدمة وتشكيل القوات هي التي تقلل من أهمية طبيعة مسرح العمليات ، حيث كانت هذه القوات تتشكل من المشاة والخيالة . وهذه القوات قادرة على القتال في مختلف الأراضي ، سواء كانت هذه الأراضي جبلية أم مستوية ، سهلية أو وعرة ، صحراوية أم عادية . فهذه القوات بتسليحها وأدوات قتالها المستخدمة كانت قادرة على التعامل مع طبيعة الأراضي المختلفة التي نادراً ما كانت تحدّ من قدرتها على الحركة أو المناورة . بينما نلاحظ في الحروب الحديثة أن مسرح العمليات أشد أثراً على عمل صنوف القوات المتحاربة ؛ ويعود السبب في ذلك إلى طبيعة الأسلحة المستخدمة ، فالآن نلاحظ استخداماً واسعاً للآليات المدرعة والمدولبة التي تحتاج إلى أراض مناسبة ؛ لأن درجة ميلان الأرض تحد من حركة هذه القوات ، كما أن طبيعة التربة تحدث نفس

الأثر . وإذا كانت الأرض تحتوي على الأودية ، فإن مناورة القطعات تصبح مقيدة إلى درجة شديدة جداً .

ولذلك ظل عنصر المشاة في الحاضر كما في الماضي يتمتع بمرونة عالية في عملياته العسكرية .

ومن المنطقي القول إن بعض صنوف الأسلحة الحديثة قد قلصت إلى حد كبير من أثر المعيقات الموجودة في مسرح العمليات ؛ فهناك الطائرات والصواريخ والسفن ، إلا أن العسكريين يعرفون أن جميع هذه القوات لاتستطيع احتلال الأرض والسيطرة عليها ، ويظل جندي المشاة المسند بصنوف الأسلحة الأخرى هو القادر على القيام بذلك .

مما سبق يتبين الدور الحاسم الذي يلعبه مسرح العمليات على حركة القوات المتحاربة ومرونتها وقدرتها على المناورة وتنظيمها . وتأسيسا عليه فإن دراسة مسرح العمليات من ناحية جغرافية تعتبر على جانب عظيم من الأهمية . ولذلك فإن دراسة طبيعة الأرض وما تحتويه من المرتفعات ، والأودية والأنهار التي تجري فيها، وطرق الاقتراب ومحاور عمل القوات ، والجبال المهمة والمسيطرة، ودرجة الانحدار في الأراضي غير المستوية ، وتحليلها تحليلاً سليماً يقع على سلم الأولويات الرئيسية والضرورية للقادة العسكريين في الوقت الراهن ، لأنه بدون القيام بهذا العمل تصبح طبيعة عمل القطعات عشوائية ، وتكون نتيجة المعركة بالتأكيد سلبية ، وسيفاجأ القائد الميداني بالكثير من المعضلات التي تحتاج إلى قرارات سريعة قد لا يسعفه التفكير في الوصول إليها في اللحظات المناسبة والحاسمة . إن أفضل القادة العسكريين هم أولئك الذين يبنون خططهم على تصور واضح لطبيعة الأرض وما يفرضه الوضع الجغرافي لمسرح العمليات ، ثم يقومون بعد ذلك بتنظيم قواتهم ورسم مناوراتهم وما يتلاءم مع ذلك الوضع بحيث يرفعون من احتمالات نجاحهم في تحقيق الهدف .

فإذا كانت جميع المعارك تتطلب دراسة وافية لمسرح العمليات فإن هذه الدراسة تكون بالضرورة أكثر أهمية لمعركة حاسمة مثل معركة اليرموك ، التي كان يتوقف عليها الكثير من الاعتبارات العسكرية والسياسية والاقتصادية والجغرافية والمعنوية للقوى المشاركة فيها .

وبداية لابد من التأكيد بأن القيادة العسكرية الناجحة هي التي تستطيع أن تفرض مكان وزمان المعركة على العدو ؛ ولذلك فإن كلتا القيادتين كانتا تسعيان إلى فرض مكان المعركة على القيادة الأخرى في محاولة منها لتحسين فرص النجاح أمام قواتها . وبناء عليه سعى الطرفان لاستدراج كل منهما الآخر إلى الموقع الأكثر ملاءمة له وأقل ملاءمة لعدوه .

فمسرح عمليات بلاد الشام بالنسبة للطرفين المتحاربين من ناحية جغرافية ينطوي على معالم طبيعية كانت تشكل نقاط قوة لطرف ونقاط ضعف للطرف الآخر. فهذه الرقعة الجغرافية كانت تستند من جهتها الغربية على البحر الأبيض المتوسط الذي كان بمثابة بحيرة تسيطر عليها السفن والبواخر الرومانية ، في الوقت الذي لم يكن فيه العرب قادرين على التعامل معه . ولذلك شكل البحر بالنسبة للامبراطورية الرومانية وقواتها المسلحة نقطة قوة في مواجهتها مع جيش المسلمين أما الجهة الجنوبية من بلاد الشام فقد كانت تستند على الصحراء التي كانت بمثابة أرض خالية من أي أثر للحياة في الكثير من مساحاتها ، كما أنها كانت بمثابة البحر إذا أخذت من ناحية المسالك الأرضية والمعالم الطبيعية ، وتشكل خطراً كبيراً على أي جيش يحاول عبورها لقلة مياهها وصعوبة السيطرة على اتجاهات السير فيها ، حتى كانت تهدد من يعبرها بإمكانية أن يضل عن مساره أو هدفه . وكما هو معروف فإن العرب عاشوا في الصحراء وخبروا مسالكها واستعانوا عليها بما لديهم من معرفة متوارثة وحيوانات قادرة على التعامل مع ظروفها الجوية والمناخية ، ولذلك كانت الصحراء بمثابة نقطة قوة للعرب في مواجهتهم مع قوات الامبراطورية الرومانية ، التي كانت لا تجرؤ على عبورها .

ونتيجة لمعرفة العرب الواسعة بالصحراء وأسرارها أكثر من غيرهم فقد كانوا يعتبرونها حصنهم المنيع الذي يستندون إليه عند الحاجة ، فإمكاناتهم للتعامل معها والقتال على أرضها تفوق أي إمكانية لدى غيرهم ، كما أنهم روضوا أنفسهم على التعايش مع ظروفها المناخية شديدة الحرارة نهاراً والبرودة ليلاً .

ولذلك كانوا يعتبرون الصحراء ملاذهم عند الحاجة ، ومعقلهم إذا دعتهم ظروف القتال للتراجع أو الانسحاب ، أو كانوا على وشك الدخول في معركة غير مأمونة العواقب .

لم تكن الحركة قاصرة على العرب في مجالهم الحيوي ، بل كان الرومان قادرين على الحركة في مجالهم أيضاً ، ولذلك كان كلا الطرفين يمتلك ميزة تميزه عن الطرف الآخر وتمنحه أفضلية المناورة والقتال . ولم يحاول أي منهما قبل معركة اليرموك التدخل في مجال الطرف الآخر .

ولذلك ظلت معرفة كل منهما بالمجال الحيوي للطرف الآخر ضئيلة ، وربما يعود ذلك إلى عدم شعور كل طرف بأهمية الميزة النسبية للطرف الآخر قبل هذه المعركة .

مع بداية التفكير بالمواجهة الحاسمة بدأ كل طرف يحاول أن ينزع من الطرف الآخر بعض عناصر قوته ، وحاول كلا الطرفين أن يحسن من عناصر قوته ، ومع بداية العمليات العسكرية حاول كل منهم تبنّي الوضع القتالي المناسب له ، وكان تمسك كل طرف بميزته النسبية تمليه عليه ضرورات العمليات القتالية ، فقد كانت الصحراء الملاذ الأفضل للقوات الإسلامية بينما حاول الروم الاستناد إلى البحر .

لقد حاول الطرفان أن يبعد كل منهما الآخر عن موطن قوته ، فالروم حاولوا جر المسلمين واستدراجهم إلى عمق الأراضي الرومانية لإبعادهم عن الصحراء وقد عمل هرقل جاهداً لتجريد المسلمين من هذه القوة وجرهم إلى المعركة على

أرض لا يعرفونها لتحقيق ما يلي :

- تجريد المسلمين من القدرة على الانسحاب المباشر عبر الصحراء إذا دعت الضرورة .
- إطالة خطوط الإمداد العسكرية والإدارية وذلك بإبعادهم عن عاصمتهم .
- إستدراجهم إلى مناطق تنقصهم الخبرة العملية للقتال على أرضها .
- إستدراجهم إلى العمق الذي يؤخر انسحابهم ويسهل عمليات التطويق والالتفاف عليهم .
- مقاتلة المسلمين في عمق بيئة جغرافية وسكانية معادية .
- فرض حركة طويلة إلى الأمام تتسبب في إرهاق القوات الإسلامية وخفض معنوياتها ونقص إمداداتها الإدارية واللوجستية ، إضافة إلى استنزافها بالكمائن أثناء تقدمها إلى الأمام .

وبناء على ذلك قرر هرقل في البداية حشد قواته لمواجهة المسلمين في أنطاكية. وقد كان اختياره لأنطاكية يحقق بعض العناصر الإيجابية والامتيازات العسكرية المتعددة التي سبق أن ذكرنا أهميتها في مواقع مختلفة من هذا الفصل .

ونتيجة لهذه الاعتبارات التي تقلص من مفردات قوة الجيش الإسلامي وتزيد من عناصر قوة الجيش الامبراطوري كانت أنطاكية موقعا مناسباً من وجهة نظر هرقل لخوض المعركة الحاسمة مع قوات المسلمين ، ولذلك أمر قواته بالانسحاب إليها تاركة بلاد الشام تحت رحمة المسلمين .

لقد كان المسلمون قادرين على الانسحاب والتراجع إلى الخلف من مسرح العمليات دون أن يخسروا شيئاً يذكر ، بينما كان تراجع جيش الروم يعني تخليهم عن أرض مهمة من أراضي امبراطوريتهم . وقد أدرك القادة المسلمون ما يرمي إليه هرقل من هذا الموقف بعد أن تأكد له فشل تخطيطه في جر الجيوش الإسلامية

إلى المعركة الفاصلة في المكان الذي قام باختياره بناء على تخطيطه ورؤيته العسكرية للمعركة .

لم يتابع المسلمون تقدمهم في عمق الأراضي لملاحقة جيش الروم إلى أنطاكية فقد أدركوا الأبعاد العسكرية التي كان هرقل يرمي إلى الوصول إليها ، وبذلك أفشل المسلمون خططه في استدراجهم إلى أنطاكية وفرضوا عليه إعادة النظر في حساباته العسكرية .

إزاء هذا الموقف الذي تبناه جيش المسلمين قرر هرقل القيام بالتقدم إلى الأمام جنوباً ، وفي تقدمه هذا يكون قد تخلى عن أفكاره السابقة وبدأ ينفذ ما خططه المسلمون لموقع المعركة الحاسمة ، وكان هذا يمثل انتصارا أولياً للفكر العسكري الإسلامي في مواجهة الفكر العسكري الروماني .

لقد كان تقدم الجيش الروماني بمثابة تحول من حالة الانسحاب إلى أنطاكية إلى حالة تقدم باتجاه اليرموك لشن هجوم واسع على القوات الإسلامية . وبهذه الحركة تسلمت قوات الروم زمام المبادرة من الجيوش الإسلامية بعد أن فقدتها مدة سنتين متواصلتين عندما كانت تتبنى عمليات الدفاع والانسحاب .

إن المتتبع لسير الأحداث في مسرح العمليات ، لابد له أن يدرك أن عملية التحول من الانسحاب إلى التقدم كانت عبارة عن رد فعل على إحجام المسلمين عن مواصلة حركتهم في عمق أراضي بلاد الشام إلى أنطاكية ؛ ولذلك عندما تحولت من الانسحاب والدفاع إلى التقدم والهجوم كان تحولها بمثابة تحول اضطراري أملته ضرورات المعركة ؛ لأن هذه القوات بعد أن قامت بعملية التقدم الواسعة طلب هرقل من قيادتها التحول إلى الدفاع بعد أن تنتشر في مواقع حصينة .

وفي هذا الصدد ذكر الطبري في كتابه تاريخ الأمم أن هرقل طلب من قائد جيوشه (ماهان) : "أن ينزل منزلا واسع العطن ، واسع المطرد ، ضيق المهرب ".

وبهذا القرار يكون هرقل قد طلب من قواته العمل على الدفاع مرة أخرى ،

وهذا ما يدل على عدم ثقته بقواته الجرارة خصوصاً عندما طلب من قيادته الدفاع في موقع ضيق المهرب حتى لا يسمح للجيوش أو جزء منها بالهرب .

ولهذا السبب وضع ماهان قواته بين ثلاثة مواقع طبيعية هي : نهر الرقاد من الجهة الغربية ، ونهر اليرموك من الجهة الجنوبية ، ووادي علان شرقاً ، وبقيت الجهة الشمالية فقط كجهة مفتوحة ، وبذلك قيد الروم من قدرة جيشهم على المناورة، وسهلوا على جيش المسلمين مهمة تطويقهم ، وهذا ما استغله خالد بن الوليد خلال المعركة .

إن تدخل هرقل بعمل القيادة الميدانية ، وتحديد المنطقة ، بحيث تكون واسعة العطن ، أي أنها واسعة بما فيه الكفاية لاستيعاب حجم القوات الرومانية التي تجاوز عددها (٢٤٠) ألف مقاتل ، وواسعة المطرد أي أنها تسمح للقوات بالحركة بصورة جيدة تمكنها من المناورة ، وضيقة المهرب أي انها لا تسمح لأفراد الجيش الروماني بالهرب من ميدان المعركة . إن هذا التدخل كان تدخلاً غير مبرر ، قيّد من حرية القيادة العسكرية في مسرح العمليات . كما أن هذا التدخل يوحي للقائد الميداني بشكل القتال الذي عليه أن يتبناه أيضاً في ميدان المعركة . إن على السياسيين أن يعوا هذا الدرس بصورة جيدة ، فتدخل السياسيين في عمل القيادات العسكرية يجب أن يكون محدداً بحيث يضمن للقيادة الميدانية حرية التصرف لتحقيق الهدف ؛ لأنها الأقدر والأقرب إلى واقع وظروف المعركة . وهذا ما فعله الخليفة أبو بكر عندما طلب من خالد بن الوليد احتلال الحيرة ، حيث لم يتدخل الخليفة بمناورة القوات الإسلامية ، وكل ما فعله أنه حدد للقيادة العسكرية مهمتها وترك لها حرية المناورة والحركة بالصورة التي تراها مناسبة .

أما القوات الإسلامية ، فبعد تشاور القادة فيما بينهم وجدوا أن أفضل المواقع لمواجهة القوات الرومانية هي منطقة (درعا) ؛ حيث تتميز هذه المنطقة بصعوبة مسالكها من الجهة الغربية الشمالية ولا تسمح للقوات بالمناورة . أما من الجهة الشرقية فهي منطقة تصلح لمناورة القطعات العسكرية ، وتتصل درعا من جهتها

الجنوبية بأطراف الصحراء العربية مما يجعل القوات الإسلامية تخوض معركتها وهي مطمئنة باستنادها إلى الصحراء التي تمثل عائقاً حقيقياً أمام قوات الامبراطورية الرومانية . وبهذا الاختيار يكون القادة المسلمون قد قطعوا الطريق على أي مناورة للروم تهدف إلى تطويقهم أو التدخل بانسحابهم إذا اضطروا لذلك.

وقد اختارت القوات الرومانية منطقة (الجابية) للانفتاح فيها ، إلا أنه بعد وصول رسالة هرقل إلى قائده الميداني ماهان قرر هذا الأخير البحث عن مكان يستجيب بصورة أفضل لأوامر قيادته العليا ، ولم يجد هذا الأخير مكانا أفضل من المنطقة الواقعة بين نهر اليرموك جنوباً ونهر الرقاد غرباً ووادي علان شرقاً .

وبناء عليه قام ماهان بتحريك قواته إلى المنطقة الجديدة . وهنا لابد من الإشارة إلى الأخطاء التي وقعت فيها القيادة الرومانية السياسية والعسكرية والتي يمكن تحديدها على النحو التالي :

- لم يتم اختيار الموقع الجديد بناء على الضرورات العسكرية أو المتطلبات الميدانية والظروف المحيطة ، بل تم بناء على ما يتناسب وتوجيهات القيادة العليا ، فقد استجاب الموقع لتوجيهات هرقل أكثر من استجابته لطبيعة المعركة القادمة ومتطلبات المواجهة .
- خطأ القيادة الميدانية بوضع قواتها في منطقة محاطة بالمواقع الطبيعية من ثلاث جهات ؛ مما سهل على القوات الإسلامية مهمة تطويقها ، وحَدَّ بصورة شديدة من قدرتها على المناورة .

ومن الأحداث التي تؤكد ما ذهبنا إليه من الأخطاء التي ارتكبتها القيادات الرومانية ، أنه وبعد حركة القوات الرومانية من منطقة الجابية ،أرسل أبو عبيدة عمرو بن العاص وهو قائد مسلم محنك ، وطلب منه أن يستطلع مواقع القوات الرومانية الجديدة وتزويده بكافة المعلومات عنها ، فذهب عمرو بن العاص في مهمته واستطلع هذه المواقع وبعد عودته قال لأبي عبيدة :

"أبشر فلقد حُصرت الروم وقل أن يأتي محصور بخير " .

لقد أدرك القائد المسلم بنظرته الثاقبة وخبرته العسكرية ، الخطأ الفادح الذي ارتكبته القيادة الرومانية بوضع قواتها في هذا المكان المحصور .

ونتيجة لذلك طلب أبو عبيدة من قادة جيشه المشورة والرأي لمواجهة الموقف الذي استجد نتيجة لحركة قوات الروم الأخيرة . وبعد التداول استقر رأي القيادة الإسلامية على استغلال نقاط الضعف في موقع الروم ، ولذلك قاموا بتحريك قواتهم لإغلاق الفجوة الوحيدة أمام هذه القوات في المنطقة الواقعة بين نهر الرقاد ووادي علان . وفعلاً تمت حركة الجيش الإسلامي وتم إغلاق الجهة الشمالية ؛ وبذلك أحكم الحصار على جيش الروم من جميع الجهات وأغلقت في وجهه جميع منافذ الهرب .

كما سبق أن ذكرنا فإن مسرح عمليات بلاد الشام لاتوجد فيه موانع طبيعية تعيق حركة القوات باستثناء بعض المواقع التي قد تؤخر من حركتها إلا أنها لا تمنعها من تجاوزها أو الالتفاف عن جوانبها ، ويعود ذلك بصورة أساسية إلى مرونة قوات المشاة والخيالة ، التي كما سبق أن ذكرنا تستطيع مواصلة حركتها في مختلف الأراضي ، وفي ظل جميع الظروف المناخية السائدة ، ولذلك فإن محاور الاقتراب لقوات بهذه المواصفات تكون كثيرة إلا أن حركتها لا تكون في الغالب سريعة . وما دامت القيادة العسكرية لكلا الطرفين قد وقع اختيارها على سهل اليرموك ليكون ميدان المعركة ، فإن هذا السهل محاط من جانبيه الغربي والجنوبي بمنحدرات عميقة ، فمن الجهة الغربية يقع وادي الرقاد الذي يلتقي مع نهر اليرموك عند الياقوتة ، ويسير من خلال واد عميق مسافة أحد عشر ميلا ، وهو محاط بحافتين شديدتي الانحدار .

ويخف هذا الانحدار تدريجياً عند طرفه العلوي ويمكن عبور هذا الوادي العميق من بعض الأماكن ، إلا أن الممر الرئيسي يقع في قرية (كفر الماء) حالياً .

أما في المنطقة الجنوبية من ميدان المعركة ، فيقع وادي نهر اليرموك الذي يبدأ من (جلين) ويسير بخط متعرج لمسافة خمسة عشر ميلا حتى يلتقي بوادي الرقاد ، ويستمر بجريانه إلى أن يلتقي بنهر جنوب بحيرة طبريا . أما وادي الحرير فيخرج من جلين من جهة الشمال الشرقي إلى أن يلتقي مع نهر اليرموك .

أما من الجهة الشمالية فإن سهل اليرموك يمتد إلى مسافة طويلة خصوصا من الجهة الشرقية حتى يتصل بتلال ازرع ، وقد شكل الجزء الغربي والأوسط من السهل ميدان المعركة الحاسمة .

مما سبق يتبين أن أهم الموانع الطبيعية الموجودة في مسرح عمليات اليرموك هي وادي الرقاد ، ونهر اليرموك ، والضفاف المحيطة بهما ، والتي يبلغ ارتفاعها في بعض الأماكن ألف قدم . وتنحدر هذه الضفاف انحداراً شديداً كما أنها تحتوي على الجروف التي تتسبب في زيادة انحدارها . وعند التقاء النهرين المذكورين تصبح هذه الضفاف أشد انحداراً مشكلة عوائق طبيعية ليس من السهل اجتيازها .

أما عن الجبال والمرتفعات الموجودة على أرض المعركة فهي قليلة جداً ، ولا تزيد عن كونها طيات أرضية بسيطة ومنخفضة باستثناء مرتفع تل السمن الذي يقع جنوب غرب قرية (نوى) الحالية ، ويمتاز هذا المرتفع بسيطرة نسبية على سهل اليرموك الذي مثل ميدان المعركة . كما يوجد في هذه المنطقة تل الجابية الذي يقع شمال غرب نوى ، فهو تل مرتفع ولكنه بعيد عن ميدان المعركة بحيث لم يتم استخدامه من قبل القوات المتحاربة .

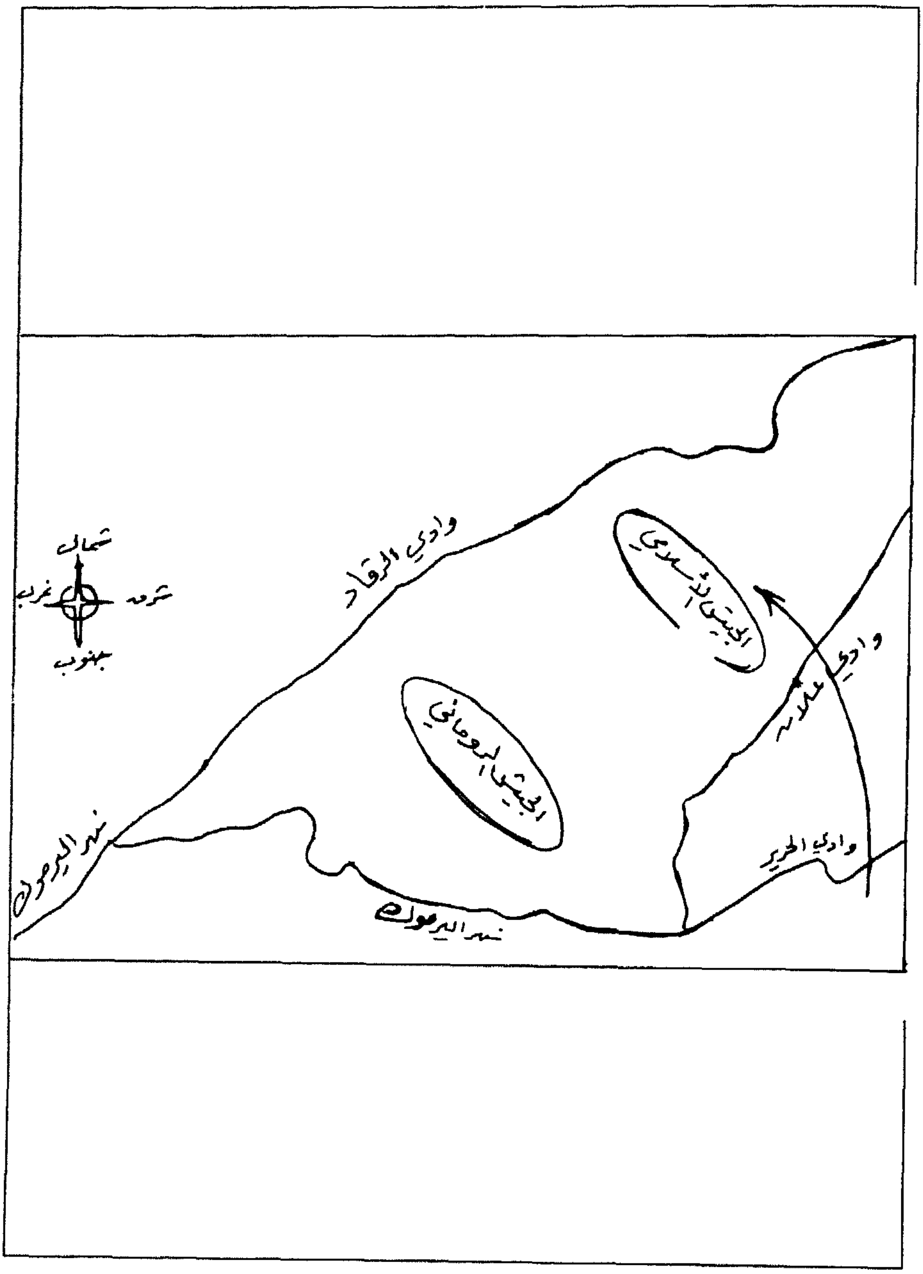
يرتفع تل السمن حوالي ثلاثمائة قدم عن السهول المحيطة به ، وهو مسيطر عليها بصورة نسبية وتتمكن القوات التي تقوم باحتلاله من مراقبة سهل اليرموك بصورة جيدة ، ويعتقد بأن جيش المسلمين قد قام باحتلاله واحتشدت قواته عليه .

أما السهل الذي جرت عليه المعركة فقد كان سهلا منبسطا ، ينحدر تدريجياً من الشمال إلى الجنوب مع بعض التعرجات القليلة ، ويجري في هذا السهل وادي

علان الذي يلتقي بنهر اليرموك في الجنوب ، وهو شديد الانحدار قبل أن يلتقي بنهر اليرموك ، إلا أنه لا يمثل عائقاً كبيراً من العوائق الأخرى الموجودة في المنطقة .

مما سبق نلاحظ أن ميدان المعركة في سهل اليرموك يشكل ميداناً نموذجياً لمناورة المشاة وقوات الخيالة ، ونتيجة لخلوه النسبي من العوائق الشديدة وامتداده من الجهة الشرقية إلى مسافات بعيدة تسهل الحركة عليها .

خريطة تعديل موقع الجيش



الهوامش

١ - صالح ، مرجع سابق ، ص ٤١ .

٢ - أكرم ، مرجع سابق ، ص ٣٣٣ .

٣ - الواقدي ، أبو عبدالله محمد بن عمر ، فتوح الشام ، شركة ومطبعة مصطفى البابي وأولاده بمصر، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٦ ، ص ١٤-١٥ .

٤ - ياسين سويد ، معارك خالد بن الوليد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٨ .

٥ - زهير صادق الخالدي ، أبطال من التاريخ العربي الإسلامي ، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة ، الطبعة الأولى ، بغداد ١٩٨٨ ، ص ١٠٢ .

٦ - أحمد عادل كمال ، الطريق إلى الشام ، دار النفائس ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ص١٩٦ .

٧ - الجبوري ، مرجع سابق ، ص ١٤٧ .

٨ - سويد ، مرجع سابق ، ص ٧٧ - ٧٨ .

٩ - إبن كثير ، البداية والنهاية ، الجزء السابع ، منشورات مكتبة المعارف ، بيروت ، ص٥.

١٠ - صالح ، مرجع سابق ، ص ١٦٢ .

١١ - الواقدي ، مرجع سابق ، ص ٤١ .

١٢ - الواقدي ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

١٣ - أكرم ، مرجع سابق ، ص ٤٦٤ .

الفصـــل الرابع :

اليرموك معركة الحسم التاريخي

١ – سير المعركة

٢ – إستكمال الفتح

٣ – النتائج العسكرية والسياسية والاقتصادية

١- سير المعركة :

إختلف الباحثون حول خطة الجيوش الإسلامية و الرومانية في معركة اليرموك، فمنهم من قال : بأن خطة الجيش الروماني كانت خطة دفاعية ، وخطة الجيش الإسلامي كانت خطة هجومية [١]. وبعضهم الآخر قال : بأن خطة الروم كانت خطة هجومية وخطة المسلمين كانت خطة دفاعية [٢] .

وللتوصل إلى حقيقة هذه القضية وحسم الاختلاف في الرأي حولها ، فإنه يقع على عاتق أي باحث أو متتبع لمجريات الأحداث في هذه المعركة ، أن يقوم بتحليل منطقي للوقائع المؤكدة ثم الخروج بالاستنتاجات المعقولة المفضية إلى الحقيقة .

وأولى هذه الحقائق التي أجمع المؤرخون عليها والتي لم يقم بينهم أي جدال حولها أن عدد القوات الرومانية التي شاركت في معركة اليرموك وعدتها تفوق عدد وعدة القوات الإسلامية التي شاركت في تلك المعركة . وثاني هذه الحقائق أن جيوش الروم قد بدأت بعد عملية انسحابها إلى أنطاكية بعملية تعرض واسعة النطاق بعد أن فشلت في استدراج القوات الإسلامية إلى هناك ، وقد بدأت بعملية التعرض هذه قبل وصولها إلى اليرموك . وثالث هذه الحقائق أن الجيوش الإسلامية كانت تقوم بعمليات تراجع وانسحاب شامل من كل محاور القتال التي كانت تعمل عليها

لتتجمع في منطقة اليرموك ولتستعد للمعركة القادمة . رابع هذه الحقائق أن القوات الرومانية كانت تسعى جاهدة لإدامة التماس مع القوات الإسلامية المتراجعة في عملية انسحابها في محاولة منها لتحويل هذا الانسحاب إلى هزيمة أو إلى انسحاب غير منظم على أقل تقدير . وهذا ما حصل مع قوات عمرو بن العاص في فلسطين حيث لم تتمكن هذه القوات من الانسحاب نتيجة لضغط القوات الرومانية عليها ونجاح هذه الأخيرة بتثبيتها في مواقعها . صحيح أن القوات الإسلامية قد حققت نصراً مهما في أجنادين على قوات الامبراطورية الرومانية قبل الاشتباك في اليرموك ، إلا أن ذلك لا يمنع القوات الرومانية من انتزاع زمام المبادرة من أيدي المسلمين ، و التحول في عملياتها القتالية إلى التعرض ثانية ، فالامبراطورية الرومانية كانت تعتبر إحدى أقوى دولتين في العالم في ذلك الزمان . وبناء عليه فإنها كانت تمتلك من الإمكانيات العسكرية و الاقتصادية و القوة البشرية و المساحة الجغرافية و العمق الحضاري ما يمكنها من تجاوز آثار هزيمة أجنادين بسهولة ، وإعداد أكثر من جيش واحد في آن معاً للحرب و الدفاع عن حدود الامبراطورية . كما أن دولة بهذا الحجم لن تهزها هزيمة في معركة واحدة ، ولن تنال من قدرتها أو تقلل من شأن جيوشها المقاتلة التي يمكن تجهيزها و إعدادها عند الحاجة .

يضاف إلى الحقائق أعلاه ، أن هدف القوات الرومانية الذي كانت تسعى لتحقيقه يتمثل بسحق وتدمير القوات الإسلامية كمقدمة ضرورية لطردها خارج حدود الامبراطورية .و إن تحقيق مثل هذا الهدف لن يكون ممكناً من خلال الاعتماد على خطة دفاعية محصنة ، في الوقت الذي كانت فيه هدف القوات الإسلامية عندما بدأت انسحابها إلى اليرموك محاولة المحافظة على قوتها من التدمير ، وذلك بخوض معركة دفاعية ناجحة، فإذا استطاعت هزيمة الروم استمرت في فتح بلاد الشام ، وإن فشلت فإنه سيكون باستطاعتها التراجع و الانسحاب عبر الصحراء العربية ، وهذا ما أكده اجتماع القيادات الإسلامية و القرار الذي خرجت به .

هناك حقيقة في هذا الصدد يجب أن لا تغرب عن البال وهي تنظيم قوات

الجيشين للمعركة . فعندما قام خالد بتنظيم القوات الإسلامية للمعركة قسمها إلى ميمنة وميسرة وقلب ، وأبقى قسما من هذه القوات وتحديداً من قوات الخيالة في الاحتياط تحت إمرته .

وهذا التنظيم في الحقيقة هو تنظيم دفاعي وليس هجومياً . أما عن تنظيم القوات الرومانية فقد تم تقسيمها إلى قوات ميمنة و ميسرة و قلب دون وجود أي قوة في الاحتياط ، وهذا بحد ذاته يشكل تنظيماً هجوميا محضا .

بعد إيراد هذه الحقائق ، فإنه يصبح من السهل على أي باحث أن يقرر كيف كانت خطة الطرفين في معركة اليرموك ، حيث تؤكد الأعداد الكبيرة لقوات الروم وتنظيمها القتالي و أهدافها البعيدة و القريبة أن خطة هذه القوات لابد وأن تكون خطة هجومية حتى و إن استندت في مواقعها على مواقع دفاعية حصينة . وأما خطة القوات الإسلامية فقد كانت في ظاهرها خطة دفاعية في المرحلة الأولى من القتال ، يمكن أن تتحول من خلال سير المعركة ، وتطور أحداثها ، إلى خطة هجومية في الوقت المناسب . ولذلك وضع خالد جزءاً من قوات الخيالة في الاحتياط لإنجاز هذه المهمة ، حيث اتضح أن خالداً من خلال تنظيم قواته كان يسعى إلى امتصاص زخم هجوم القوات الرومانية في المرحلة الأولى ، و إيقاع أكبر خسائر ممكنة في صفوفها من خلال خوض معركة دفاعية ناجحة . فإذا تحقق هذا الغرض ، استغل ضعف القوات الرومانية وقام بشن هجومه المعاكس لتدمير ما تبقى من هذه القوات وهزيمتها .

إن الخطة الدفاعية الهجومية التي تبناها خالد بن الوليد في معركة اليرموك تؤكد بشكل قاطع العبقرية العسكرية الفذة التي كان يتمتع بها هذا القائد المسلم . وأعتقد أن الكثير من المدارس العسكرية المعاصرة في عالم اليوم تقوم بتلقين قادتها، وضباطها خطط الدفاع المماثلة لخطة خالد في معركة اليرموك . ومن يتاح له الإطلاع على موضوعات الدفاع في مدرسة الدروع الأمريكية ، لا بد له وأن يلاحظ ، أن فلسفة الدفاع وأفكاره التي تلقن للضباط من مختلف دول العالم تقوم

على فكرة استنزاف القوات المعادية أولاً ومن ثم التحول إلى الهجوم . وأعتقد جازما بأنهم نقلوا جزءاً ليس بيسير من هذه الأفكار عن خطة خالد بن الوليد في معركة اليرموك . وإنه لمن المؤكد بأن الكثير من العسكريين الأمريكيين قد قاموا بدراسة المعارك الإسلامية وخططها ، وعلى وجه الخصوص ، معارك خالد بن الوليد وخططه كأشهر قائد مسلم على الإطلاق .

هذا ما أردت توضيحه من خطة القوات الإسلامية و الرومانية في معركة اليرموك ، بعد أن لاحظت من خلال مطالعتي لآراء الكثير من المؤرخين التضارب الواضح فيما بينها حول هذه الخطة . و أرجو ان أكون قد وفقت من خلال استعراض بعض الحقائق في إضاءة بعض الجوانب التي قد توصل القاريء أو الباحث في هذه المعركة إلى الحقيقة الأقرب إلى الواقع وإلى منطق الأحداث.

وقبل البدء بسرد سير المعركة أرى من الضرورة أن أحيط القاريء علماً بأني سأتحدث عن سير المعركة من خلال تقسيمها إلى مرحلتين رئيسيتين هما :

- المرحلة الأولى : و تتضمن جميع الأحداث التي تمت خلال المعركة الدفاعية التي استمرت طيلة أربعة أيام متواصلة .
- المرحلة الثانية : وهي مرحلة انتقال القوات الإسلامية من مرحلة الدفاع و الاستنزاف للقوات الرومانية إلى مرحلة الهجوم التي استمرت يومين متواصلين ، بحيث سأقوم بإلقاء الضوء على أبرز الدروس و العبر التي يمكن الاستفادة منها .

المرحلة الأولى :

وهي المرحلة التي انتهجت فيها القوات الإسلامية خطة دفاع نشط في محاولة منها لاستنزاف القوات الرومانية ، واستمرت في تطبيق هذه الخطة على مدى أربعة أيام متواصلة ، خاض فيها الجيش المسلم بعضاً من أقسى معاركه الدفاعية ، و تعرض من خلالها لامتحانات عسيرة على الصعيد المادي و المعنوي ، وقد سارت أحداثها على النحو التالي :

(١) اليوم الأول :

بعد أن قامت قوات الطرفين بعمليات الحشد و التنظيم على أرض اليرموك ، انتظرت هذه القوات حوالي شهرين دون أي اشتباك هام . ولا يعرف على وجه اليقين السبب الذي يكمن وراء هذا الانتظار ؛ ومن المعتقد أنه عائد إلى الوضع العسكري بالنسبة للقوات الإسلامية ، التي لم تكن قوية بما فيه الكفاية للبدء بالهجوم وكسب زمام المبادرة . ولكن هذا لا ينفي تردد القوات الرومانية وخوفها من القيام بهجوم سريع على القوات الإسلامية ، وأعتقد أن ذلك عائد إلى ذكريات معركة أجنادين التي أكدت أن المسلمين على قلة عدد جيشهم لديهم الاستعداد المادي و المعنوي لقلب كل الموازين .

وخلال فترة الانتظار هذه فإن القيادات العسكرية لكلا الطرفين قد قامت باستغلال هذه الفترة لإنجاز خططها ، و تنظيم قواتها ، و توزيع أوامرها ، استعدادا لخوض المعركة .

في النصف الثاني من آب عام ٦٣٦ م ، الموافق (الأسبوع الثاني من رجب عام ١٥ هـ) نشب القتال بين الطرفين ، وقد ابتدأ القتال في اليوم الأول بالمبارزة

بين قادة الجيشين . وكان خالد بن الوليد يرحب بفكرة المبارزة هذه على أمل أن يحقق بعض المكاسب الهامة ، وعلى رأسها رفع معنويات جنده وهم يشاهدون قادة الروم يقتلون ، أو يهربون من ساحة المعركة ، و العمل على تحطيم الروح المعنوية لدى الأعداء .كما كان خالد ينظر إلى المبارزة كإحدى الوسائل الضرورية لتطوير المعركة و الانتقال بها مراحل متقدمة أخرى . وفعلاً عندما بدأت المبارزة استطاع خالد أن يحقق ما كان يسعى إليه ، فقد أثار الرعب في نفوس الأعداء بشجاعته ، ورفع من معنويات جنوده إلى الحد الذي باتوا فيه مطمئنين إلى نتيجة المعركة . وبهذه المبارزة أظهر خالد للجميع بأنه ليس قائدا استراتيجيا بارعا فحسب ، ولكنه أيضاً رجل ميدان محنك ، قادر على صنع المعجزات وانتزاع زمام المبادرة من عدوه في الوقت الذي يشاء و بالأسلوب و الطريقة التي يريدها .

فعل قادة المسلمين أفعالهم في ميدان القتال ، وقتلوا من قادة الروم وفرسانهم الكثير ؛ فقد استطاع عبد الرحمن بن أبي بكر أن يقتل وحده خمسة من فرسان الروم الذين بارزوه ، وفعل قادة المسلمين كما فعل عبد الرحمن ، ونتيجة لهذه الخسائر المتواصلة ؛ أدرك ماهان قائد جيوش الروم ، أن الاستمرار بالمبارزة سيحطم معنويات جيشه ، و سيفقده الكثير من خيرة قادته وفرسانه ، و بالتالي لن تنتهي هذه المبارزة لصالحه أو لصالح قواته . ولذلك قرر استغلال الميزة الرئيسية التي يتميز بها جيشه ، و التي تكمن في التفوق العددي على قوات المسلمين ، على أمل أن تكون له فرصة أفضل للتحكم و السيطرة على مجريات المعركة ونتائجها.

وبناءً عليه قرر القيام بهجوم محدود لاختبار قوة جيش المسلمين ، فإذا حقق النجاح المطلوب ، أو أحرز أي خرق في المواقع الدفاعية الإسلامية ، فإنه سيقوم بعد ذلك بتطوير هذا النجاح واستغلاله بالصورة المناسبة .

قرر ماهان أن يهاجم المسلمين بالنسق الأول من قواته والذي يتألف من عشرة صفوف ، إلا أن هذا الهجوم لم يكن قويا بما فيه الكفاية لتحقيق أهدافه المرجوة . فقد ثبت المسلمون في مواقعهم ولم يحاول ماهان القيام بتعزيز قواته المهاجمة ،

ولذلك استمرت المعركة في هذا اليوم دون أحداث لافتة للانتباه إلى أن أوشكت الشمس على الغروب .

يصف الواقدي اليوم الأول من القتال فيقول : (قال عمرو بن جرير : فشهدنا في اليوم الأول حربا يسيرا وذلك أن ماهان أمر عشرة من الصفوف أن تحمل على المسلمين بعد أن قتل عبد الرحمن من قتل ، و حمل المسلمون عليهم فالتقت الرجال بالرجال ، فنظر أبو عبيدة وكان واقفا إلى ماهان ولم يحمل على المسلمين فعلم أن الأمر يصعب فقال لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .... قال ولم يزل الحرب بين الفريقين من قيام الشمس في قبة السماء إلى أن همت بالغروب ولم ينفصل الجمعان حتى فرق الليل بينهم فحينئذ افترق الجمعان ..... وبات المسلمون في خير وسرور ، وأوقدوا النيران وذلك أن القتل في أول يوم لم يتبين في الفريقين بل قتل من الروم يسير ومن المسلمين عشرة) [٣] .

لقد استبشر المسلمون في هذا اليوم خيرا ؛ فالقتال كان يسيرا ، وعدد القتلى بين صفوفهم كان ضئيلا ، علما بأنهم قاتلوا قتالا عنيفا . ومع ذلك فإن هناك نقطتين رئيسيتين في قتال هذا اليوم تستوجبان الملاحظة : الأولى تفوق فرسان المسلمين في مبارزاتهم على قادة و فرسان الروم . و الثانية أن الهجوم الذي شنته قوات الروم على ميمنة المسلمين كان بمثابة هجوم جس نبض يهدف إلى محاولة التعرف على نقاط الضعف في صفوف القوات الإسلامية .

لقد أدى تفوق فرسان المسلمين على عدوهم ، و فشل الهجوم الذي شنته قوات ماهان على ميمنة المسلمين ؛ إلى رفع معنويات الجيش الإسلامي وازدياد ثقته بنفسه و بالنتائج التي ستسفر عنها هذه المعركة .

(٢) اليوم الثاني :

لم يحقق الروم أية ميزة عسكرية في اليوم الأول من القتال ، و لذلك جمع ماهان قادته وتدارسوا الأمر فيما بينهم ، و أجمعوا على تغيير خططهم وأساليبهم في الهجوم . وبناء عليه قرر ماهان القيام بهجوم مباغت يحقق من خلاله مفاجأة الجيش الإسلامي وهو غير مستعد للقتال . ولذلك قام بتنظيم قواته ليلا واستعد لمواجهة القوات الإسلامية عند الضوء الأول في الصباح الباكر ، كما قرر الهجوم بقوة أكبر من القوة التي هاجم بها في اليوم الأول ، وبنى خطته في هذا اليوم على القيام بمناورة عسكرية يتمكن فيها من تثبيت قوات المسلمين في القلب وتكثيف الهجوم على الجناحين .

بدأ الروم قتالهم في اليوم الثاني بهجوم عنيف ، و جعلوا ثقل هجومهم على الجناح الأيمن للمسلمين الذي كان يقوده عمرو بن العاص ، ولأن الضغط على هذا الجناح كان عنيفا ومركزا و متواصلاً ؛ فقد تسبب في تراجع الجناح الأيمن للمسلمين إلى الخلف . ومع تزايد ضغط القوات الرومانية على ميمنة المسلمين بدأ تراجع المسلمين يتسم بالارتباك وعدم الانتظام . في هذا الوقت طلب عمرو بن العاص من قوات الخيالة التي كانت في الاحتياط أن تقوم بشن هجوم معاكس على قوات الروم المندفعة ، و فعلا قامت هذه القوات بشن هجوم عنيف على قوات الروم المتقدمة ، و دخلت معها في مواجهة قاسية ، و استطاعت إيقاف اندفاعها إلى الأمام ، لكنها عادت و تراجعت تحت ضغط القوات الرومانية .

لم يكن الموقف على الجناح الأيسر للمسلمين بأفضل منه على الجناح الأيمن ، بل كان لا يقل خطورة عنه ، حيث استطاعت قوات الروم اختراق قوات يزيد بن أبي سفيان ، على الرغم من قيامه بشن هجوم معاكس عليها ، إلا أن هذا الهجوم لم يحقق النجاح المطلوب مما أجبر قواته على التراجع .

وهكذا كانت ميمنة وميسرة القوات الإسلامية تواجهان موقفاً صعبا ، تتراجعان

أمام ضربات القوات الرومانية وضغطها . واستمرت عملية التراجع إلى أن وصل المسلمون إلى معسكر النساء . وفي هذه الأثناء كان خالد بن الوليد يراقب تطور المعركة بهدوء واتزان ، وينتظر اللحظة المناسبة للتدخل بقواته وتعديل الموقف (٤).

لقد رفض سيف الله أن يتدخل بسرعة لإعادة التوازن إلى قواته خوفا من أن يجر إلى معركة قبل أوانها فهو يقذف بآخر قوة لديه ، فإن فشلت في تحقيق هدفها فإن كارثة مروعة ستحل بجيش المسلمين .

إنتظر خالد إلى أن حانت اللحظة المناسبة ، فانقض بقواته ليواجه الروم على الجناح الأيمن حيث كان يواجه وضعاً صعباً من وجهة نظر سيف الله ، فأحاط بقوات الروم ودخل معهم في مواجهة عنيفة أجبرتهم على التراجع . وبعد أن تأكد أن التوازن قد عاد إلى جناح المسلمين الأيمن ، وأن القوات على هذا الجناح قد استعادت السيطرة على مواقعها ، انتقل خالد بسرعة أبي سليمان إلى الجناح الأيسر، بعد أن وضع كتيبة من الخيالة بقيادة ضرار بن الأزور وطلب منه مهاجمة مقدمة الجيش الروماني ، ثم اندفع خالد بقواته ووجه ضربة عنيفة لقوات الروم على هذا الجناح ، فبدأت هذه القوات بالتراجع ، فاندفع ضرار بن الأزور واخترق جيش الروم إلى أن وصل إلى قائد هذا الجناح و قتله .

يصف الواقدي القتال في هذا اليوم بقوله : (أقبل سعيد وهو ينادي النفير النفير حتى وقف أمام أبي عبيدة ومعه رجل من المتنصرة فقال أيها الأمير ، إن ماهان كاد المسلمين بتخلفه عن الحرب وهاهو قد عبأ عساكره وصف جيوشه وزحف علينا زحف من يريد الكبسة بنا ونحن على غير أهبة و عدة .... فقال أبو عبيدة : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم قال : أين أبو سليمان خالد بن الوليد ؟ فأجابه بالتلبية فقال له أنت لها يا أبا سليمان فابرز في أبطال المسلمين و صد عن الحريم إلى أن تأخذ الرجال صفوفها وتستعد بآلات حربها .... حملت الروم على ميمنة المسلمين .... فصبروا لهم صبر الكرام .... فحملت عليهم كتيبة ثانية فصبروا صبرا جميلا وحملت عليهم كتيبة ثالثة فأزالوا المسلمين عن الميمنة ....

ونظرت النساء خيل المسلمين راجعة على أعقابها فنادت النساء يا بنات العرب دونكن و الرجال ردوهم من الهزيمة حتى يعودوا إلى الحرب .... قال سعيد بن زيد كان القتال في الميمنة شديداً وكان المسلمون ينهزمون تارة و يعودون مرة وساعة نصبر وساعة نتأخر قال ونظر خالد بن الوليد إلى الميمنة وقد وصلت القلب وحمل على الروم فنكى بهم نكاية عظيمة حتى كشف أعداء الله عن الميمنة و القلب إلى أن ردت إلى مواضعها .... قال فانكسر الروم أمام خالد) .

ويصف ما حدث على الجناح الأيسر فيقول : "فكشف الروم المسلمين حتى زالوا عن مصافهم .... وركب الروم أكتاف المسلمين المنهزمين .... قال ورجع خالد ومعه ألفان من أصحابه وقد وضعوا السيوف في الروم وقتلوهم قتلا ذريعاً " (٥) .

بعد أن استعاد خالد بن الوليد توازن قواته في ساحة المعركة ، تحولت المعركة في نهاية هذا اليوم إلى مبارزة بين الفرسان ، تمكن فيها فرسان المسلمين من إحراز الغلبة على عدوهم ، وظلوا كذلك إلى أن غابت الشمس وتراجعت القوات إلى مواقعها .

من مجريات المعركة في هذا اليوم يمكننا تحديد أهم الدروس العسكرية المستفادة على النحو التالي :

- إستطاع المسلمون صد إحدى الهجمات الرئيسية لجيش الروم مما تسبب في رفع معنوياتهم .
- إن التراجع الذي أصاب ميمنة وميسرة المسلمين لم يفقدهم التصميم على القتال ، ومن يصمم على القتال و الدفاع عن مبادئه لابد أن يحقق النصر .
- القيادة الفذة هي تلك القيادة التي تعرف على وجه التحديد ، متى وكيف تستخدم القوة المناسبة في الزمان و المكان المناسبين ، كما فعل خالد عندما واجهت ميمنة وميسرة جيشه ثقل الهجوم .
- القيادة الهادئة الشجاعة و المتوازنة هي أحد مفاتيح النصر الرئيسية في أي

معركة ، و بناء عليه فإن سيف الله لم يفقد توازنه ، ولم تتعطل قـواه العقليـة عن التفكير السليم حتى في أحرج لحظات المعركة ، وهو يشاهد بعض قواته تتراجع أمام قوات أعدائه و تترك مواقعها . هذا هو النموذج القيـادي القـادر على السير بالجيوش إلى النصر .

(٣) اليوم الثالث :

قال الواقدي في وصفه لقتال هذا اليوم :"كـان اليـوم الثـالث مـن اليرموك شـديداً انهزمت فيه فرسان المسلمين ثلاث مرات كل مرة تردهم النسـاء بالحجـارة والعمـد ويلوحون بالأطفال إليهم فيرجعون إلى القتـال، ولـم يـزل القتـال قائمـا إلـى أن أقبـل الليـل بسـواده، ورجعـت الـروم إلـى مواضعهـا والقتـل فيهـم كثـير وفـي المسـلمين قليل"[٦].

فـي هـذا اليـوم حـاول جيـش الـروم القيـام بـالهجوم علـى الجنـاح الأيمـن لقـوات المسلمين ، اعتقادا منهم بأن هذا الجناح يشكل نقطة الضعف الرئيسية فـي دفاعـات الجيش الإسلامي . وقد كانت الخطة الرومانية تقتضي تثبيت قـوات القلـب وضـرب الجناح الأيمن و قوات شرحبيل ، ولذلك اختاروا نقطة الفصل بيـن قـوات عمـرو و شرحبيل كنقطة رئيسـية لهجومهـم ، اعتقـادا منهـم بأنـه يمكـن مـن خلالهـا اختـراق دفاعات المسلمين .

بـدأ هجـوم الـروم مـن المنطقـة المحـددة لـه ، ولكـن قـوات عمـرو بـن العـاص وشرحبيل بن حسنة استطاعت صـد الهجـوم الأول ، إلا أن مـيزة الكـثرة العدديـة ، والضغط المتواصل الذي مارسته القوات الرومانية علـى هـذا الجنـاح قـد حقـق لهـا بعض النجاح ، فتراجعت قوات عمرو بن العاص إلى الخلـف ؛ ممـا سـاعد القـوات الرومانية على اختـراق مواقعهـا الرئيسـية مـن أمـاكن عـدة مكنهـا مـن توجيـه ثقـل إضافي على قوات شرحبيل بـن حسـنة التـي أخـذت بـالتراجع نتيجـة لاشـتداد وطـأة الهجوم عليها .

كان خالد يراقب الوضع على الجناح الأيمن ، وعندما حانت اللحظة الحاسمة طلب خالد من قوة الفرسان التابعة لقوات عمرو مواجهة الجناح الأيسر من قوات الروم المتقدمة ، و قام هو بمهاجمتها من الجهة اليمنى ، في الوقت الذي شنت فيه قوات عمرو و شرحبيل هجومها المعاكس بقوات المشاة تقهقرت قوات الروم المتقدمة على هذا الجناح وبدأت بالتراجع للخلف .

إستطاع خالد بمناوراته البارعة أن يعيد التوازن إلى الجناح الأيمن لقواته ، و تمكن المسلمون من العودة إلى مواقعهم التي بدأوا منها ، ولكن خالدا لم يتوقف عند هذا الحد ، فواصل هجومه العنيف على ميسرة الروم واستطاع اختراقها والوصول إلى مركز القيادة الرومانية و تدميرها .

إستمر القتال في هذا اليوم إلى أن حل الظلام ، حيث تم قطع التماس و عادت القوات إلى مواقعها ، وكانت خسائر الروم مرتفعة ،وبدا واضحا تدني الروح المعنوية لديها ، خصوصا وأن جميع هجماتها التي شنتها خلال الأيام الثلاثة الماضية قد فشلت ، وفقدت أعدادا كبيرة منها .

إن أبرز الدروس العسكرية التي ظهرت خلال قتال هذا اليوم هي ما يلي:

١ - إن استغلال أي نقطة ضعف لدى العدو يساعد القائد على تحقيق النجاح ؛ ولذلك لاحظنا النجاح الذي حققته القوات الرومانية عندما استغلت الفجوة الموجودة بين قوات عمرو بن العاص وقوات شرحبيل بن حسنة . إلا أن ما يؤخذ على القيادة الرومانية ، هو عدم قدرتها على استغلال هذا النجاح ، حيث لم تقم بأي دعم أو مناورة لتعزيز ما حققته القوات المهاجمة على الجناح الأيمن ، وهذا ما يؤكد جمود القيادة الرومانية وعدم قدرتها على إبداء أي مرونة في ميدان المعركة ، مما يظهر أهمية دور القيادة في الحرب . لقد خسرت القيادة الرومانية بادرة النصر التي تم إحرازها ، في الوقت الذي تمكنت فيه القيادة الإسلامية من تحويل الهزيمة إلى بادرة نصر قادم .

٢ – قدرة القيادة العسكرية في السيطرة على الموقف وتنسيق عمل القوات له أثر حاسم في العمليات العسكرية .

٣ – إن مرونة القيادة والتنظيم عاملان رئيسيان في ميدان المعركة ولهما أثر بالغ على المواقف والنتائج؛ ولذلك لاحظنا كيف تمكن خالد بن الوليد من إعادة التوازن إلى قواته، نتيجة للتنظيم الصحيح و الاستخدام الأمثل لهذه القوات .

(٤) اليوم الرابع :

أدركت قيادة الجيشين في هذا اليوم أن المعركة سوف تدخل مرحلتها الحاسمة، وأن أحداث هذا اليوم ستقرر إلى حد بعيد الملامح الرئيسية لها، والنتائج التي ستسفر عنها؛ ولذلك أطل فجر اليوم الرابع للمعركة في جو يسوده التوتر ومليء بالتوقعات .

بعد الهجمات المكثفة التي شنتها الجيوش الرومانية خلال الأيام السابقة من المعركة والتي لم تسفر عن أي شيء يذكر سوى تزايد عدد القتلى و الجرحى في صفوفها ، قررت القيادة الرومانية أن تقذف بكامل قواتها في هذا اليوم في محاولة منها لتحويل مسار المعركة لصالحها إن أمكن . وبناء عليه خطط الروم للقيام بهجوم شامل على جميع الجبهات ؛ يهدف إلى تمزيق جيش المسلمين وتدميره . واعتقدوا أنهم إن لم يتمكنوا من ذلك ، فإنهم لن يستطيعوا بعد هذا اليوم شن أي هجوم إضافي آخر ، ولذلك بدأوا هذا اليوم وهم مصممون على حسم الموقف لصالحهم .

أدرك خالد بن الوليد كما أدركت القيادة الرومانية أن المعركة قد بدأت تدخل مراحلها النهائية و الحاسمة ، و سيتوقف على نتائج عمليات اليوم مصير هذه المعركة ، و سيتحدد الطرف المنتصر وترتسم معالم هزيمة الطرف الآخر . وبالتالي فإن الأهداف البعيدة للنجاح أو الفشل ستحددها مجريات المعركة في هذا اليوم . وقد أدرك خالد بأنه إن استطاع أن يواجه بقواته جيوش الروم في هذا اليوم

ويوقع الخسائر في صفوفها فإنه سيتمكن من انتزاع عنصر المبادرة منها ، وسيفقدها أي أمل في القدرة على شن أي هجمات إضافية .

وبخبرة القائد المحنك أخذ سيف الله يقرأ أحداث الأيام الماضية ، واستنتج من قراءته لسير المعارك و الأحداث أن جناح قواته الأيمن هو الذي سيتعرض إلى ثقل الهجوم ، بعد أن كانت القوات الرومانية قد هاجمت هذا الجناح طيلة الايام الماضية. إلا أن وجود عمرو بن العاص أحد أكبر مشاهير قادة المسلمين على هذا الجناح ، قد أدخل الاطمئنان إلى نفس خالد ؛ حيث عرف عن عمرو إقدامه بين العرب ، وكان يعتبر الرجل الثاني في الجيش الإسلامي بعد سيف الله من حيث الكفاءة القيادية و الشجاعة و الإقدام .

أما خطة الروم في هذا اليوم فقد بنيت على المرتكزات الرئيسية التالية :

- القيام بضرب ميمنة المسلمين و الجزء الأيمن من القلب ، حيث أدرك الروم أن هذا الجناح قد تحمل عبء القتال الشديد خلال الأيام الماضية ، ونتيجة لذلك فقد تحمل خسائر جسيمة وإصابات بالغة ، وعلى هذا الأساس يمكن اعتباره النقطة الضعيفة في جسم الجيش المسلم . وهكذا تكون توقعات خالد قد ثبت صحتها فيما يخص هذا الجناح .
- بعد تورط قوات عمرو واندحارها ، خطط الروم للقيام بمحاولة جر القوات الاحتياطية لجيش المسلمين للقتال على هذا الجناح لتدميرها ، مما يجعل جيش المسلمين دون أي قوة احتياطية يمكنها أن تسانده أو تدعم موقفه .
- بعد تورط قوات الاحتياط في القتال على الجناح الأيمن ، تقوم القوات الرومانية بشن هجوم شامل على الجناح الأيسر وما يليه من القوات الإسلامية، حيث يكون هذا الجناح قد فقد القوة الاحتياطية القادرة على التدخل في مجريات الأحداث ، أو تقديم أي عون أو إسناد له .

هذا عن خطط الروم ونواياهم ، أما عن طبيعة القتال في هذا اليوم ، فقد بدأ

بالمبارزة بين فرسان الطرفين ، ولكنها لم تستمر طويلا حيث انتقل الجيشان بعدها إلى المواجهة ، ثم تطور القتال بين الطرفين إلى أن بلغ ذروته في منتصف النهار بعد أن ازداد ضراوة وعنفا . وبات واضحا أن قتال هذا اليوم يعتبر من أشد ما شهدته أيام المعركة وأكثرها دموية ، وفي هذا الصدد يقول عبدالله بن قرط الأسدي في وصف شدة القتال : " شهدت القتال كله فلم أر قتالا أشد من يوم التعوير " (٧).

لقد كانت المبارزة بين قادة فرسان الجيشين لصالح أبطال المسلمين حيث تم من خلالها مصرع الكثير من قادة الروم وبطارقتهم ، ولذلك حاولت القيادة الرومانية تطوير القتال و الدخول في المرحلة الحاسمة بعد أن مهدت لها بإطلاق حوالي مئة ألف سهم على جيش المسلمين .

لقد قررت القيادة الرومانية دخول هذه المرحلة وفقا لتصورها عن أهمية قتال هذا اليوم ، وبناء على الخطة التى وضعتها لذلك . وطبقاً لهذا التصور المعقول للقيادة الرومانية شنت قواتها الهجوم على النصف الأيمن من الجيش الإسلامي تطبيقاً لتلك الخطة ، فأجبرت قوات عمرو على التراجع ، إلا أن هذا التراجع لم يكن كبيرا كما حدث في الأيام الماضية حيث استطاع عمرو بن العاص أن يوقف تقدم قوات الروم خلف مواقعه الأصلية بقليل . أما قوات شرحبيل ، فقد استطاع الروم دحرها إلى الخلف وبدأت عملية اختراق خطيرة في صفوفها ، وبات واضحا أن قوات شرحبيل لن تقوى على الصمود طويلا ، فأصبحت الحاجة ملحة لتدخل قوات خالد الاحتياطية على هذا الجناح . وبذلك يكون الروم قد استطاعوا تنفيذ خطتهم التي رسموها بصورة جيدة حتى الآن . ويعود سبب هذا النجاح إلى خطة القصف التمهيدي التي بدأها الروم ، فقد طلب ماهان من الرماة في جيشه أن يرموا جميعاً وبنفس الوقت سهامهم على المسلمين دفعة واحدة ، مما تسبب في جرح أعداد كثيرة منهم ، وقيل : إنه نتيجة لهذه الرماية أصيبت حوالي سبعمائة عين من أعين المقاتلين المسلمين ولذلك سمي هذا اليوم (بيوم التعوير) .

لقد كان لعملية القصف التمهيدي الشديد ، الدور الكبير في نجاح هجوم القوات

الرومانية في مراحله الأولية ، حيث استطاعوا استغلال الوضع السيء لقوات المسلمين و التقدم خلفهم إلى أن وصلوا في تقدمهم إلى معسكر النساء فأخذ القتال يدور حوله ، وفي هذه اللحظة بدأت النساء العربيات يحملن السيوف ويقاتلن الروم مع أزواجهن ، وقد قاتلت النساء قتالا حماسياً ألهب مشاعر المقاتلين ودفعهم إلى القتال المستميت ، وجرحت من بين النساء المقاتلات خولة بنت الأزور ، التي قاتلت كأشجع الفرسان إلى جانب أخواتها المسلمات مثل أسماء بنت أبي بكر وعفراء بنت عفان وغيرهن من نساء العرب .

أما سيف الله فقد كان يراقب الموقف ويوجه القوات بعد أن أدرك مدى خطورة القتال في هذا اليوم ، بنفس الوقت الذي أدرك فيه خطورة موقف الجيش الإسلامي و الأهداف التي تسعى القيادة الرومانية لتحقيقها من وراء الهجوم الشامل . وبخبرة القائد المحنك لم يقم خالد بالتدخل بقواته على الجناح الأيمن وبدلا من ذلك طلب من أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان أن يرفعوا من وتيرة قتالهم ضد الروم لتخفيف منسوب ضغط هذه القوات على جناح المسلمين الأيمن . وفعلا بدأ هجوم أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان يزداد كثافة ضد قوات الروم على الجناح الأيسر فاطمأن خالد إلى وضع هذا الجناح وبهذه الخطة يكون خالد بن الوليد قد أفشل الصفحة الثانية من خطة الروم التي كانت ترمي إلى جره للقتال على الجناح الأيمن ومن ثم مهاجمة الجناح الأيسر للمسلمين ، فلا خالد هاجم على الجناح الأيمن وبنفس الوقت رفع منسوب القتال على الجناح الأيسر، محولاً بذلك القوات من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم .

بعد أن تأكد بأن الروم قد دفعوا بكامل ثقلهم لحسم المعركة ، تركهم يتوغلون في معسكر المسلمين في محاولة منه لاستنزافهم قبل أن يقوم بالتدخل بقواته الاحتياطية لإيقافهم . وبعد أن نفذ الجناح الأيسر ما طلبه خالد منه ، وبعد أن توغلت قوات الروم في جناح المسلمين الأيمن و الخسائر التي وقعت في هذا الجناح بدأ خالد يحضر نفسه للتدخل في المكان و الزمان المناسبين وبالقوة المناسبة أيضاً ، فقام

بتقسيم قوات الاحتياط إلى قسمين متساويين ، جعل القسم الثاني بقيادة قيس بن هبيرة وطلب منه القيام بالهجوم على قوات الروم من الجهة الجنوبية ، في الوقت الذي طلب فيه خالد من شرحبيل بن حسنة القيام بالهجوم من الوسط ، وتحرك خالد بقواته الاحتياطية ليهاجم الروم من الجهة الشمالية ، وبذلك يكون خالد بن الوليد قد قرر حسم المعركة بهجوم معاكس من ثلاث شعب يشن على قوات الروم في الجناح الأيمن . وبهذه اللحظة يكون قد وضع القوات الرومانية بين فكي الكماشة الإسلامية التي بدأت هجومها الدموي الصاعق .

قاتل خالد على رأس قواته قتال الرجال الذين لا يعرفون الخوف ولا يهابون الموت ، وفي هذا الصدد أشار الواقدي إلى شجاعة خالد بقوله : ونقل عن خالد أنه انقطع في يده ذلك اليوم تسعة أسياف و قد أخبرنا عن خالد بن الوليد ممن حضر قتال اليرموك وشاهده قال كان يعد قتال خالد بمائة رجل من شجعان الرجال، قال وحمل بعصابة حمراء وهو يفزع الروم باسمه ويقول أنا خالد بن الوليد .... ولم يزل يضرب فيهم بسيفه حتى كل ، فأشفق عليه الحارث بن هشام المخزومي فقال لأبي عبيدة : أيها الأمير لقد قضى خالد ما يجب عليه وأدى السيف حقه فلم لا أمرته أن يريح نفسه . قال فمشى أبو عبيدة إليه وجعل يعزم عليه أن لا يتقدم ويسأله أن يريح نفسه . فقال خالد : أيها الأمير ، أما والله لأطلبن الشهادة بكل وجه فإن اخطأتني فالله يعلم نيتي وحمل فلم يرجع عن حملته حتى جلاها وذلك أن كل المسلمين استعفوه في حملته وأقبلوا على القتال بعد هزيمتهم والنساء أمام الرجال ولم يزل الحرب بين الفريقين حتى انقلبت الروم على أعقابها وقد قتل منهم ألوف عديدة(٨) .

بعد تدخل قوات خالد على الجناح الأيمن والتدمير الذي ألحقته بقوات الروم بدأ التوازن يعود إلى هذا الجناح وأخذت بوادر هزيمة الروم تلوح في الأفق. وفي هذا الوقت اعتقدت القيادة الرومانية بأن خطتها تسير وفق ما هو مرسوم لها أن قوات المسلمين الاحتياطية قد تورطت في المعركة على الجناح الأيمن. ولذلك ومع بداية

حركة القوات الإسلامية الاحتياطية وتدخلها في الجناح الأيمن بدأ الروم بتطبيق الصفحة لتالية من خطتهم وهي تكثيف ثقل الهجوم على الجناح الأيسر بعد أن فقد احتياطه .

شهد الجناح الأيسر هجوما مكثفا لقوات الروم ، و دخل المسلمون معها في معركة ضارية وعنيفة ، وقد استطاع أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان تحقيق بعض النجاح في مرحلة المواجهة الأولية . إلا أن جيش المسلمين أخذ يتعرض لهجوم شديد ورمايات مكثفة من الأسهم التي أوقعت عدداً كبيراً من الإصابات بين صفوفه مما اضطر قوات المسلمين إلى التراجع . وقد حاول أبو عبيدة ويزيد قطع التماس مع القوات الرومانية على هذا الجناح ، إلا أن ماهان قد قرر استثمار الفوز بعد أن شاهد الإصابات التي وقعت في صفوف المسلمين ؛ ولذلك طلب من قواته مواصلة الضغط على القوات الإسلامية ومنعها من إعادة تنظيمها وتحويل انسحابها إلى هزيمة . وبما أن القيادة الرومانية قد أخذت بالاعتبار أن معارك هذا اليوم هي التي ستحدد ملامح النتيجة النهائية للمعركة ، فإنها هاجمت بضراوة منقطعة النظير مستغلة وضع القوات الإسلامية على الجناح الأيسر . وقد تمكن الروم من دحر قوات أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان على هذا الجناح .

لم تندحر قوات يزيد و أبي عبيدة ، فقد ظلت إحدى الكتائب التي يقودها عكرمة ابن أبي جهل ، وهو أحد أبطال المسلمين المعروفين بشجاعتهم و إقدامهم ، ظلت هذه الكتيبة في مواقعها تقاتل قتالا عنيفا وقد طلب هذا القائد المسلم من جميع قواته البقاء في مواقعها و القتال حتى الموت دون أي تراجع ، فتحول جميع المقاتلين إلى قوة من الفدائيين الانتحاريين ؛ انقض عكرمة مع رجاله على قوات الروم ، وكانت هجمة غير مسبوقة في تاريخ الحروب الإسلامية ، فلأول مرة في تاريخ حروب المسلمين تشكل قوة انتحارية تقاتل حتى الموت . وفعلاً فإن جميع رجال هذه القوة استشهدوا أو أصيبوا إصابات خطيرة ، وكان من بين الشهداء عكرمة بن أبي جهل وابنه عمر . ولقد كان هجوم عكرمة في هذا اليوم نقطة تحول في مسار المعركة ،

حيث تراجع الروم و اندحروا أمام ضربات المسلمين الساحقة . يقول محمود شيت خطاب في هذا الصدد : " لقد كان عكرمة فدائياً بطلا بايع المسلمين على الموت في اليرموك ، فكان يركب الأسنة حتى جرحت صدره ووجهه ، فقيل له : اتقي الله و ارفق بنفسك ، فقال : كنت أجاهد بنفسي عن اللات و العزى فأبذلها لها ، أفأستبقيها الآن عن رسول الله ؟ لا والله أبدا . إن صرخته في أحرج الساعات يوم اليرموك كان لها أبلغ الأثر في انتصار المسلمين على الروم " (٩) .

أما الجنرال أكرم فيقول عن عكرمة في اليرموك : "إن المجد العظيم الذي أحرزه المسلمون في يوم فقدان العيون . وهو يوم لن يرى المسلمون مثله قط في بلاد الشام ، يعود الفضل فيه إلى عكرمة بن أبي جهل " (١٠) .

لقد قاتل المسلمون في هذا اليوم قتالا شديدا ووقعت بينهم الكثير من الإصابات ، حتى بلغ عدد الجرحى أكثر من عدد الذين لم يجرحوا من أفراد الجيش ، ولكنهم صمدوا ومنعوا قوات الروم من تحقيق النصر بعد أن أوشكت على بلوغه .

عندما حل ظلام ذلك اليوم كان سيف الله جالساً على الأرض المضرجة بالدماء في قطاع أبي عبيدة ، وكان رأس عكرمة على إحدى ركبتيه ، وعلى الركبة الأخرى كان يستند رأس ابنه عمر بن عكرمة ، فكان الأب و الابن يحتضران ، وكان خالد يمسح على وجهيهما ويقطر الماء في حلقيهما حتى توفيا .

بعد أن حل الظلام وافترقت الجيوش كانت معنويات المسلمين مرتفعة على الرغم من كثرة إصاباتهم ، وقد أيقن خالد بعد انتهاء معارك اليوم أن الأزمة قد انتهت وأن الروم قد أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة .

إنتهى أشد أيام القتال ضراوة وعنفا وكان يوما حاسما في تاريخ المعركة ، أحرز المسلمون فيه النجاح بعد أن قاتلوا قتالا عنيفا . وفي اعتقادي أن الإنجازات التي حققها المقاتلون المسلمون في هذا اليوم تعود إلى العوامل التالية :

١ - عبقرية خالد بن الوليد وقدرته على التنبؤ بالأحداث ، ولذلك استطاع أن يفسد

جوانب مهمة من خطة الروم عندما طلب من أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان أن يقوما بشن الهجوم على قوات الروم وزيادة الضغط عليها ، بدلاً من الانتظار حتى يزداد ضغط هجوم الروم عليهم .

٢ - إستخدام الاحتياط في الوقت المناسب ، فبعد أن تأكد خالد من أن قوات أبي عبيدة صامدة في مواقعها تدخل بقوات الاحتياط في الجناح الأيمن ، وقام بمناورة رائعة تمكن خلالها من تطويق القوات الرومانية ودحرها .

٣ - المفاجأة التي أحدثها ظهور قوات الصاعقة الانتحارية التي شكلها عكرمة ، و الهجوم العنيف الذي شنته على قوات الروم ، و الخسائر الكبيرة التي أوقعتها في صفوفها .

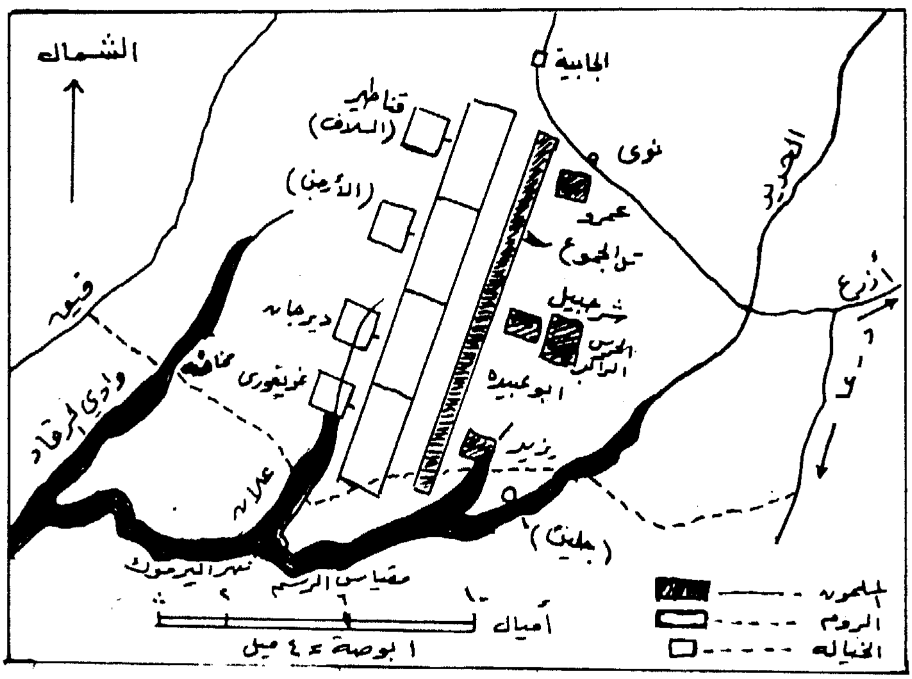
٤ - تدخل النساء في المعركة بصورة فعلية ، مما أسفر عن مشاركة فعالة في قتال الروم ، وإثارة النخوة و الحمية في نفوس المقاتلين المسلمين .

٥ - فشل القيادة الرومانية في تحقيق أهدافها أمام قوات عمرو بن العاص ، وعدم تمكنها من تطبيق كل ما جاء في الخطة التي رسمتها لنفسها .

٦ - نجاح خالد بن الوليد في خطته الدفاعية التي وضعها ، والتي بناها على فكرة استنزاف قوات الروم أولاً ، ومن ثم توجيه هجوم معاكس قوي يوقع أكثر ما يمكن من الإصابات بين صفوفها . ولذلك سمح خالد للقوات الرومانية بالتوغل داخل مواقع المسلمين على الجناح الأيمن و الاندفاع إلى الأمام قبل توجيه ضربته الساحقة لهم .

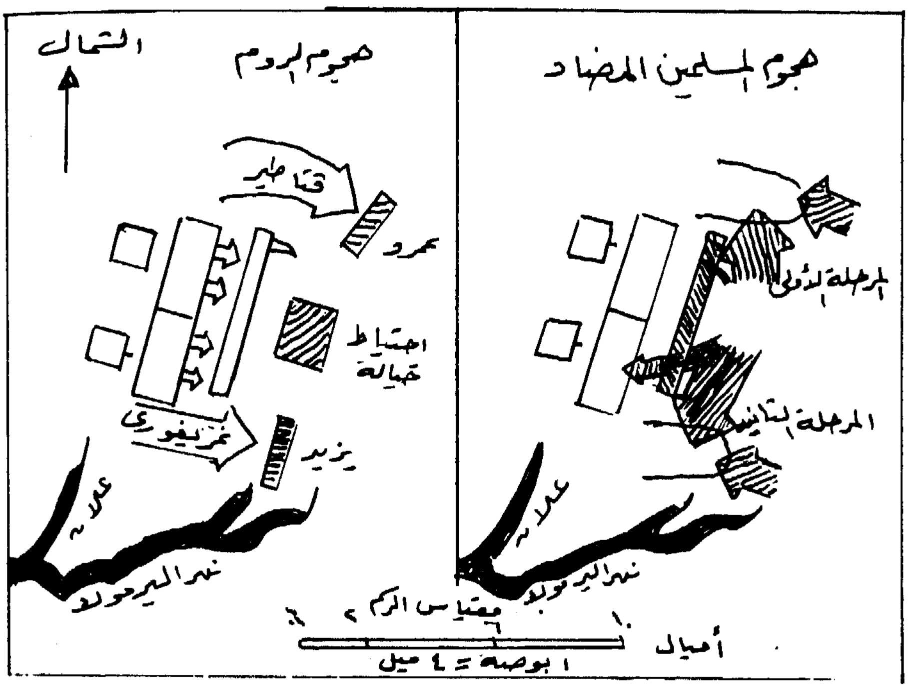
خريطة اليرموك

اليوم الأول



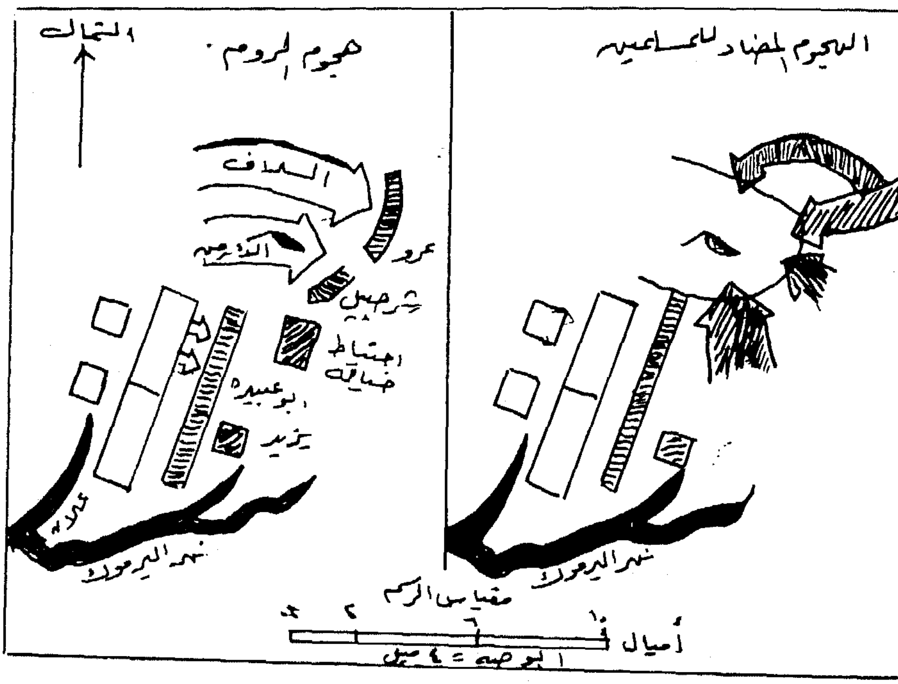
خريطة اليرموك

اليوم الثاني



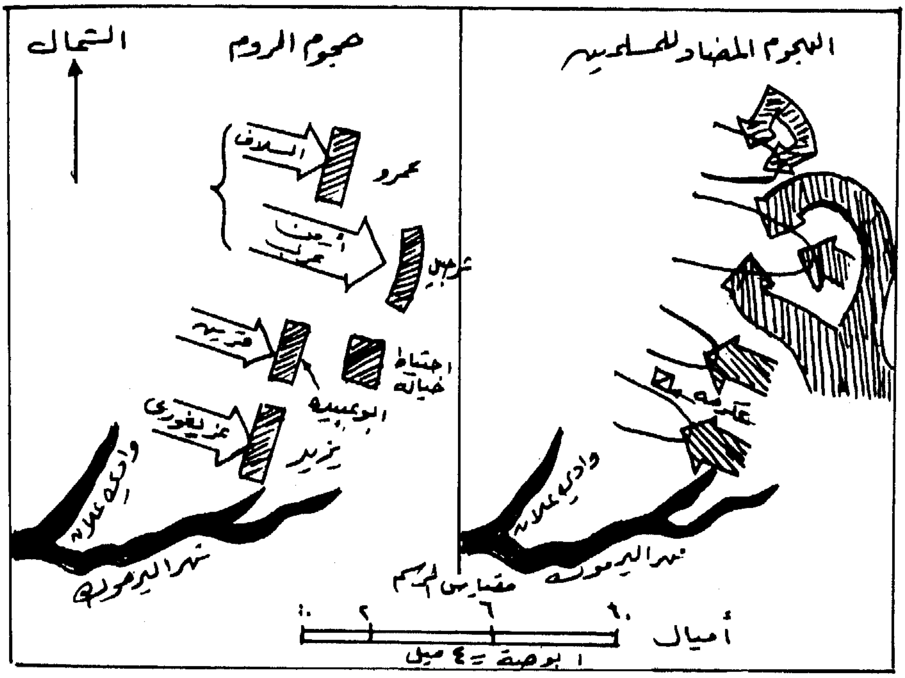
خريطة اليرموك

اليوم الثالث



خريطة اليرموك

اليوم الرابع



مرحلة الانتقال إلى الهجوم :

لقد أكدت الأيام الأربعة الأولى من أيام القتال أن القوات الإسلامية تخوض معركة دفاعية في وجه هجمات الروم المتلاحقة ، وقد استطاعت هذه القوات إيقاع الكثير من الخسائر في صفوف الروم على مدى الأيام السابقة . وكان اليوم الرابع من أيام المرحلة الأولى هو اليوم الحاسم في القتال ، حيث اعتبر يوم التحول الرئيسي في مسار المعركة ، وقد تحدد هذا التحول بالأحداث الرئيسية التالية :

- لقد كان الهجوم الشامل الذي شنته القوات الرومانية في اليوم الرابع هو الهجوم الرئيسي لهذه القوات ، وقد فشل في تحقيق أي من أهدافه ؛ ولذلك أصبح من غير المحتمل أن تقوم القوات الرومانية بشن هجوم شامل آخر بنفس القوة ونفس الاندفاع .
- لقد أدى فشل الهجوم الروماني في اليوم الرابع إلى انخفاض معنويات قواتهم في الوقت الذي أدى صمود المقاتلين المسلمين إلى رفع معنوياتهم .
- لقد أدت الخسائر التي وقعت في صفوف الروم – وعلى وجه الخصوص قتل عدد كبير من قادتهم و إبادة الكثير من قواتهم المتحركة التي كان يمثلها الخيالة – إلى انخفاض الكفاءة العسكرية لهذه القوات و الحد من قدرتها على المناورة .

كل هذه الاعتبارات جعلت من اليوم الرابع يوم تحول في طبيعة قتال المسلمين ، مكنهم من الانتقال من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم تمهيدا لحسم المعركة بعد أن أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من النصر . ولم يكن هذا الوضع الذي آلت إليه المعركة يخاف على أحد وعلى وجه الخصوص القيادتان الرومانية و الإسلامية ..

لقد أخذ قائد الروم ماهان يفكر فيما أصاب قادته ، وكيف أبيدت خيالته والخسائر التي لحقت في صفوف قواته . ولذلك أخذ يبحث عن أسباب النجاة له ولمن تبقى

من جيشه ، فتشاور في هذا الصدد مع بعض قياداته التي أشارت عليه بضرورة التفاوض مع المسلمين على الصلح . وكانت هذه أول إشارة على انهيار القوات الرومانية وعدم قدرتها على مواصلة القتال ، وأن روح الهزيمة قد بدأت تدب في صفوفها .

أرسل ماهان بمبعوثه إلى أبي عبيدة ، وعرض عليه إيقاف القتال بين الجيشين ضمن شروط ترضي الطرفين ، وبعد سماع أبي عبيدة رسالة المبعوث همّ بالاستجابة ، إلا أن سيف الله قد استلم رسالة أخرى من خلال رسالة المبعوث ، واستوعب كل أبعادها ؛ ولذلك طلب من أبي عبيدة عدم الموافقة على طلب المبعوث وقال له : "لا تفعل أيها الأمير فما عند القوم خير بعد ذلك " (١١) .

هكذا فهم القائد الفذ رسالة المبعوث . أدرك بعبقريته أن الهزيمة قد دبت في صفوفهم ، وأنه لا يوجد أمامه الآن سوى أن يحصد النصر بعد أن يحصد رقاب من تبقى منهم بسيفه . وامتنع أبو عبيدة عن قبول الرسالة ، وقال للرجل ارجع إلى صاحبكم وأخبره أننا لن نؤخر القتال وأننا على عجلة من أمرنا .

عندما وصل الجواب إلى ماهان قائد القوات الرومانية أصيب بخيبة أمل كبيرة ، وأدرك أي مصير ينتظره وقواته ، ولكنه كان مجبراً على مواصلة القتال وعدم الانسحاب أمام الجيش الإسلامي ؛ ولذلك أخذ يستعد لمواصلة قتاله مع المسلمين . وقد اختلف الباحثون حول اليوم الذي استطاع فيه خالد أن يلحق الهزيمة بقوات الروم فمنهم من قال إن الهزيمة قد تمت في اليوم الخامس وفي صبيحة اليوم السادس عندما نظر المسلمون إلى ساحة المعركة لم يجدوا أثراً للقوات الرومانية . وقد قال بهذا الرأي أبو عبدالله الواقدي ونقل عنه الكثير من الباحثين . أما الجنرال أكرم فقد اعتبر أن الهزيمة قد لحقت بالروم في اليوم السادس من أيام القتال . وفي اعتقادي أن رأي الجنرال أكرم أقرب إلى الصحة وأرجّح الأخذ به للأسباب التالية :

١ - إن المفاوضات لوقف القتال بين الطرفين قد بدأت في اليوم الخامس ، ولا بد

لها أن تكون قد استنفدت وقتاً - ولو- يسيراً منه .

٢ - إن القوات الإسلامية و الرومانية كانت في حالة منهكة من شدة القتال الذي حدث في اليوم الرابع ، ولحق بها إصابات كثيرة ، مما يرجح أن يوم الحسم لم يكن في اليوم الخامس .

٣ - إن خالد بن الوليد قد استفاد من هذا اليوم في إعادة تجميع وتنظيم قواته بتشكيل جديد لحسم المعركة نهائياً لصالح المسلمين ، ولذلك ظهرت تعبئة مختلفة في يوم الحسم عن الأيام السابقة .

وتأسيساً على هذه الأسباب فإنني أرجح أن المعركة قد حسمت في اليوم السادس من القتال .

لقد استمرت مرحلة الهجوم الإسلامي على القوات الرومانية لمدة يومين ، تمكن خالد خلالها أن يحسم الموقف و يحقق النصر العظيم على قوات الامبراطورية الرومانية حيث كان سياق الأحداث على النحو التالي :

(١) اليوم الأول :

في هذا اليوم من أيام القتال فشلت محاولات القيادة الرومانية مع القيادة الإسلامية في الوصول إلى أي اتفاق حول إيقاف القتال بين الطرفين . وفي هذا اليوم أيضاً ، لم يكن جنود الطرفين في الوضع الأمثل للقتال ومواصلة الحرب ، فقد أخذ منهم قتال اليوم الرابع مأخذه فكانت آثار التعب و الإرهاق بادية عليهم كما كان للإصابات الكثيرة التي وقعت بين صفوف الطرفين دورها في ذلك ، حتى قيل إن الكثير من جنود المسلمين لم يكونوا بقادرين على الوقوف .

في هذا اليوم بدأ خالد بن الوليد القائد الاستراتيجي الفذ ، الاستعداد لخوض المواجهة الحاسمة وإنهاء المعركة التي كان قد خطط لها بعد أن تمكن حتى الآن

من تحويل الوضع العام لصالح المسلمين ، ونقل موقف القوات الإسلامية من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم ، واستنزف طاقات هائلة من قوة الجيوش الرومانية ؛ ولذلك أخذ يستعد للمعركة بإعادة تنظيم جنوده ووضع خططه ، وإصدار أوامره إلى قادته فقام بجمع كل قوات الخيالة التي كانت موزعة على تشكيلات الجيش الإسلامي وجعلها في قوة واحدة بلغ عددها حوالي ثمانية آلاف خيال . وقام بعد ذلك بإصدار أوامره و تعليماته و خطته إلى قادته ، وطلب منهم التقيد التام بما جاء فيها ، وبذلك يكون خالد قد أنهى استعداداته للمرحلة الفاصلة من مراحل القتال.

ويعتقد إلى حد بعيد أن هذا اليوم لم يحدث فيه أي أعمال قتالية ذات شأن ، حيث اكتفى الطرفان بالاستعداد و التحضير للمعركة .

(٢) اليوم الثاني :

كان شروق شمس أحد أيام الأسبوع الرابع من آب عام ٦٣٦ م الموافق (الأسبوع الثالث من رجب عام ١٥هـ) ينذر بالكارثة الرهيبة التي ستقع في هذا اليوم الذي بدأ القتال فيه بالمبارزة بين فرسان الطرفين ، حيث تفوق فرسان المسلمين على فرسان الروم ، فقد خرج جرجير – وهو أحد القادة الرئيسيين في قوات الروم – وطلب مبارزة قائد الجيش الإسلامي في محاولة منه لقتل القائد المسلم و تحطيم معنويات قواته ، فخرج إليه أبو عبيدة وقتله .

بعد ذلك خرج ماهان للمبارزة فخرج إليه مالك بن الأشتر النخعي الذي تمكن من هزيمته . وكان خالد يراقب الموقف ، فعندما شاهد ماهان ينهزم من ميدان القتال طلب خالد من قواته أن تهاجم قوات الروم ، فهذا القائد البارع يعرف كيف يستغل كل لحظة وكل مناسبة . لقد كان المسلمون على علم بنوايا خالد بن الوليد الهجومية والعنيفة ، فهو قائدهم الذي قادهم إلى أن أوصلهم إلى هذا اليوم المشهود.

لقد كانت خطة خالد بن الوليد مبنية على أن يقوم جيش المسلمين بالاشتباك بالقلب و الميمنة لتثبيت قوات الروم المواجهة له ، في الوقت الذي طلب فيه عمرو ابن العاص أن يقوم بهجوم ضاغط على قوات الروم المواجهة لقواته ، بينما تحرك خالد بجميع قوات الخيالة التي جمعها تحت قيادته لإغلاق الفجوة الوحيدة على ميسرة الروم ليضعهم داخل الطوق الفولاذي بعد أن يقوم بعزل خيالتهم عن مشاتهم ليفقد قوات المشاة أي إسناد أو دعم .

بدأت المعركة واشتبك القلب و الميسرة من الجيش الإسلامي مع قوات الروم واستطاع تثبيتها ، بينما شن عمرو بن العاص قائد الجناح الأيمن هجوما عنيفاً على ميسرة الروم ، وقام خالد بتطويق الجناح الأيسر بخيالته ، وبدأ القتال عنيفاً ، وبدأ الوضع ينذر بالمجزرة البشرية الرهيبة التي تتعرض لها قوات الروم . وبعد أن تمكن خالد من عزل خيالة جيش الروم عن مشاته ، بدأت عملية السحق لقوات الروم ، فترك الخيالة ميدان المعركة وفروا إلى الشمال ، وبدأت الفوضى تدب في منطقة القلب من جيش الروم بعد أن وجه عمرو بن العاص ضربة ساحقة لجناحهم الأيسر مما تسبب في إلحاق الميسرة بالقلب وبدأت الفوضى تدب في صفوفهم .

لقد هرب قائد الجيش الروماني ماهان مع الخيالة كما هرب معه جبلة بن الأيهم تاركين قواتهما تواجه قدرها المحتوم . وبدأ جيش المسلمين بالتقدم التدريجي من الأمام ، في الوقت الذي بدأ فيه خالد بن الوليد بمهاجمة الروم من الخلف ، وتحت هذا الضغط بدأ الروم انسحابهم باتجاه الجنوب الغربي ، فطلب خالد من قواته عدم التدخل في هذا الانسحاب وقد اندهش الروم من عدم مهاجمتهم من خيالة المسلمين. ولكن خالداً القائد العنيف ، الذي تبنى استراتيجية العنف و الإبادة ضد قوات أعدائه، ما كان له أن يترك القوات الرومانية تنسحب بدون تدخل لولا أنه خطط لذلك مسبقاً ويعرف إلى أين تتجه هذه القوات المنهزمة .

بدأ انسحاب القوات الرومانية يتحول إلى هزيمة باتجاه وادي الرقاد ، واتجهت بعض القوات المنسحبة نحو الغرب ولم يعترض خالد طريقها أيضاً . إستمرت

القوات الإسلامية بالسير خلف القوات المنهزمة أو المنسحبة ، واتجهت الخيالة إلى الشمال لإغلاق المنفذ الوحيد لانسحاب جيش الروم بعد أن استطاعت أعداد كبيرة أن تخرج منه . وبهذه الحركة أصبحت جميع المنافذ مغلقة أمام القوات المنهزمة . ولكن الروم كانوا يعرفون بعض المنافذ الأخرى للهرب عبر إحدى المخاضات الواقعة على وادي الرقاد ولذلك عندما أغلقت جميع الطرق في وجوههم بدأوا حركتهم نحو المخاضة ، وعندما وصلت طلائع قواتهم إلى هناك وبدأت باجتياز الوادي إلى الضفة الغربية ، كان الموت و الهلاك بانتظارهم . فخالد الرجل العسكري الموهوب ما كان له أن يترك هذه الفجوة دون أن يتخذ التدابير اللازمة لإغلاقها، فقد أرسل ضرار بن الأزور الفارس الشجاع على رأس خمسمائة خيال للسيطرة على الضفة البعيدة من وادي الرقاد ، وكان قد أرسله ليلاً دون أن يعلم الروم بذلك ، فذهب ضرار وأخفى رجاله قرب المخاضة.

وهنا لابد لي من التوقف قليلا للتعليق على هذا الحدث و الإشارة إلى بعض الأمور التي أرى ضرورة إلقاء الضوء عليها ، و أول هذه الأمور أن خالداً عندما أرسل ضراراً إلى المخاضة كان متأكداً من النصر حد اليقين ، وهذا نادراً ما يحدث في المواجهات العسكرية .

كما أود الإشارة إلى أن خالد بن الوليد قد خطط إلى جر القوات الرومانية إلى نقطة التقتيل المحددة واستطاع أن يدفعهم إليها ، وهذا ما يؤكد على عبقرية القائد وحسن تنفيذه لخطته . و الأمر الأخير الذي يستوجب الإشارة إليه هو القدرات العسكرية التي كان يتمتع بها خالد ، فقد كان هذا القائد ينقل قواته على أرض المعركة كلاعب شطرنج محترف ، يعرف كيف وإلى أين وفي أي وقت يحركها .

عندما بدأت قوات الروم المنهزمة باجتياز المخاضة و التسلق إلى الأعلى ، بدأ ضرار بن الأزور ومن معه بإسقاط الحجارة من الأعلى على الجماعات المتسلقة ومن كان منهم ينجح في الوصول إلى قمة الجبل كانت سيوف الخيالة بانتظاره . أصبح الروم الآن منقسمين أولهما غرب الوادي ، وثانيهما شرقه ، وكل الطرق

أمامهم مغلقة ، ولذلك اتخذ جيش الروم الموجود على الجهة الشرقية وضعية الدفاع وجعل وادي الرقاد خلفه .

بدأ هجوم المسلمين على الكتل البشرية المكدسة ، وبدأت صفوف الروم بالانهيار أمام ضربات المسلمين ، ثم بدأت المعركة تتحول إلى مجزرة رهيبة ، وبدأت الهزيمة المنكرة . لقد كان المنظر مرعبا ، فعندما توقفت المعركة كان كل شيء في أرضها يتحدث عما أصاب جيش الامبراطورية العظيم ، وكيف انتهت أعظم معارك التاريخ التي قادها خالد بن الوليد .

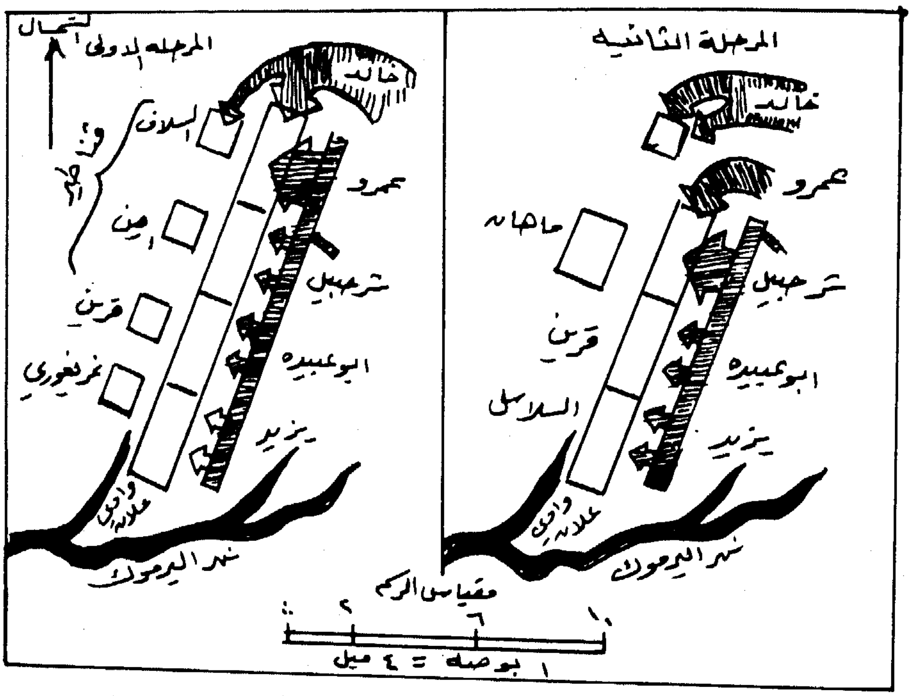
لم يكن من عادة سيف الله أن يتوقف عند حدود المعركة على الأرض ، فهو منذ حروب العراق لا يؤمن بترك قوات العدو تنهزم كما تشاء . ولذلك فور انتهاء معركة اليرموك قام بعملية مطاردة واسعة النطاق لخيالة الروم الذين انهزموا من ساحة المعركة ، واستطاع أن يلحق بهم قبل وصولهم إلى دمشق ، فاشتبك معهم في قتال عنيف أسفر عن مقتل قائدهم ماهان وهرب من استطاع أن يهرب من خيالته .

بعد ذلك توجه خالد إلى دمشق التي خرج إليها أهلها مذكرين بالمعاهدة التي سبق أن وقعها قبل سنتين ، فجدد لهم المعاهدة ، وأمنهم على أموالهم وأنفسهم ، ومن ثم عاد لينضم إلى قوات المسلمين في اليرموك .

أما عن خسائر الروم في المعركة ، فقد ذكر الواقدي أن المسلمين قد قتلوا من الروم زهاء مئة وخمسة آلاف جندي ، وغرق في الواقوصة أعداد كبيرة منهم ، وتم أسر حوالي أربعين الفاً ، وقد أكدت هذه الأرقام الرسالة التي كتبها أبو عبيدة إلى الخليفة عمر يخبره فيها عن هزيمة الروم ، حيث ذكر أبو عبيدة أرقاما مشابهة. وإذا ظهر في الأرقام بعض المبالغة فإن الحقيقة المؤكدة أن المسلمين قد قتلوا أعداداً هائلة من الروم . أما خسائر المسلمين فقد بلغت حوالي أربعة آلاف شهيد .

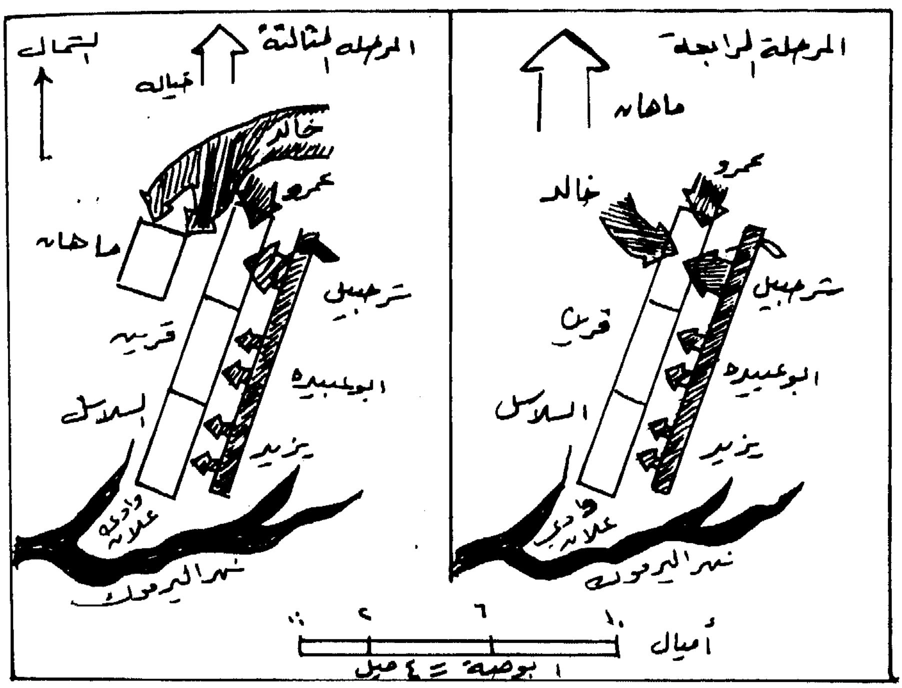
خريطة اليرموك

اليوم السادس (١)



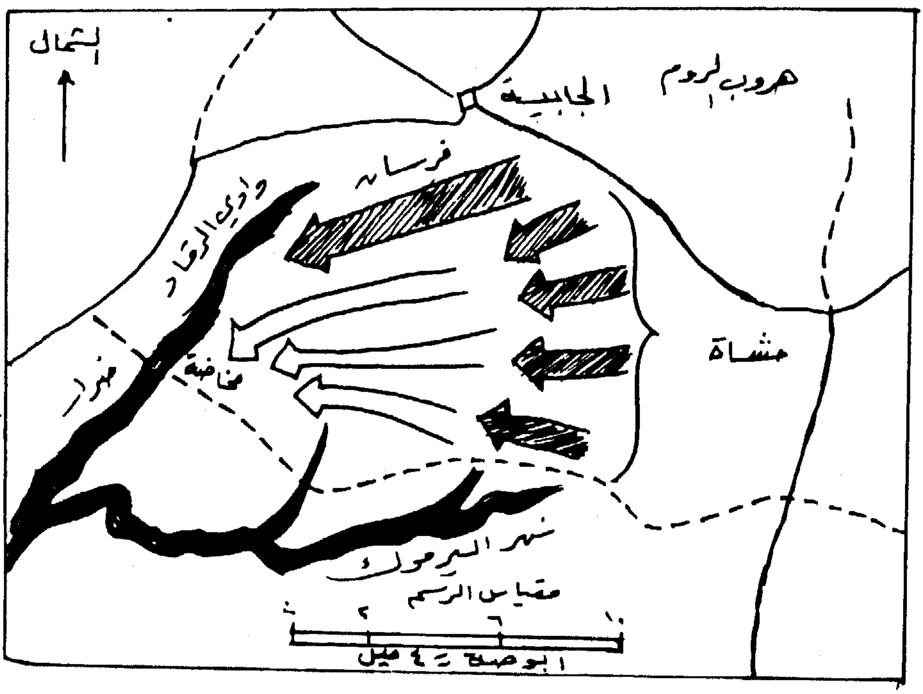
خريطة اليرموك

اليوم السادس (٢)



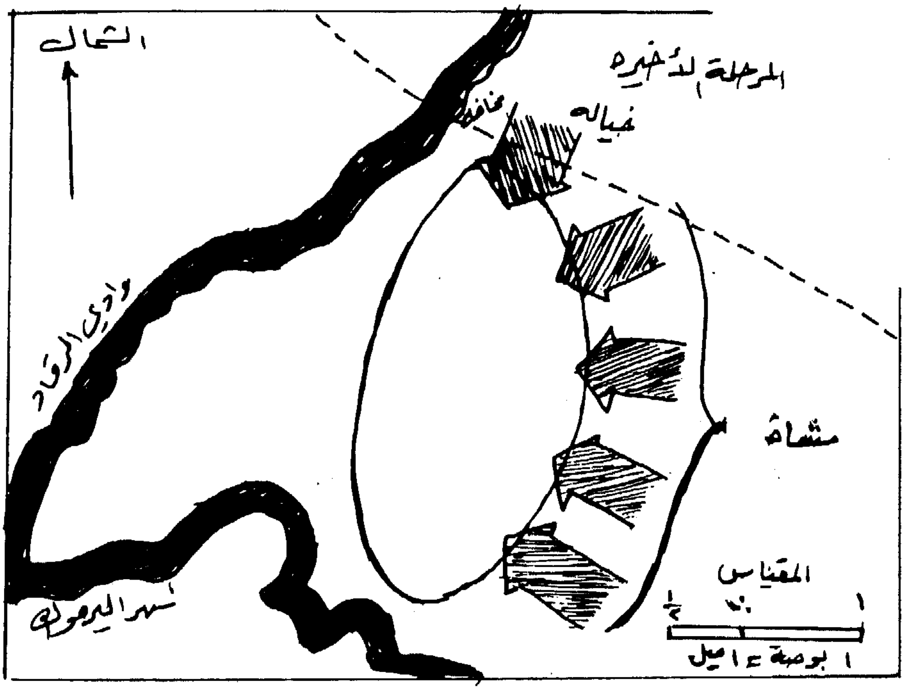
خريطة اليرموك

اليوم السادس (٣)



خريطة اليرموك

اليوم السادس (٤)



٢- إستكمال الفتح :

بعد الكارثة التي حلت بالقوات الرومانية في معركة اليرموك ؛ انسحب ما تبقى من هذه القوات إلى منطقة شمال سوريا و الجزء الشمالي من ساحل البحر الأبيض المتوسط . بينما بقيت قوات المسلمين في منطقة الجابية للاستراحة وتوزيع الغنائم و مداواة الجرحى و القيام ببعض الأعمال الإدارية .

في أوائل عام ٦٣٧ م (أواخر شعبان ، عام ١٥هـ) عقد أبو عبيدة مجلس حرب لبحث خطط المستقبل ، وكان الهدف غير واضح له ، حيث كان أمامه خيار بين فتح القدس أو قيسارية . ولذلك كتب إلى الخليفة بفتح القدس ، فسار أبو عبيدة بجيشه في اتجاه القدس ، وكان خالد في المقدمة على رأس هذا الجيش ، فوصل المسلمون إليها في أوائل تشرين الثاني ، وضربوا حصاراً حولها بعد أن انسحبت حاميتها الرومانية إلى داخل الأسوار .

حاصر المسلمون مدينة القدس أربعة أشهر متواصلة ، وعندما يئس المدافعون من وضعهم ، عرض بطريرك القدس (سوفرونيوس) تسليم المدينة ودفع الجزية بشرط أن يأتي الخليفة بنفسه ليوقع الاتفاقية ويتسلم المدينة . فكتب أبو عبيدة إلى الخليفة عمر حول ذلك وطلب منه القدوم إلى القدس ، وبناء على ذلك انطلق عمر باتجاه القدس مع أصحابه .

كان وصول عمر إلى القدس لحظة تاريخية عظيمة بالنسبة لجنود المسلمين الذين فرحوا بقدوم خليفتهم ورؤيته . وفعلا كتبت الاتفاقية ووقعها عمر بن الخطاب نيابة عن المسلمين ، وشهد عليها خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن ابن عوف ومعاوية . وكان ذلك في نيسان عام ٦٣٧، الموافق (ربيع الأول عام ١٦هـ) ، وبعد أن مكث عمر في القدس عشرة أيام ، عاود أدراجه إلى المدينة المنورة . وبناء على تعليمات الخليفة توجه يزيد بن أبي سفيان على رأس قوة إلى

قيسارية ، وفرض عليها الحصار وعاد عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة لفتح الأردن وفلسطين . وقد استعصت قيسارية على المسلمين ولم يتم فتحها إلا عام (٦٤٠) م الموافق (١٩ هـ) عندما استسلمت حاميتها إلى معاوية بن أبي سفيان .

وفي هذه الأثناء توجه أبو عبيدة وخالد بن الوليد على رأس جيش مكون من سبعة عشر ألفاً لاستكمال فتح شمال سوريا ، فسار أبو عبيدة إلى دمشق ، ثم إلى حمص ، ومن هناك إلى قنسرين ، فوصل خالد إلى (خضير) التي تبعد عن قنسرين حوالي ثلاثة أميال ، وعند وصولها هوجمت قواته من قبل القوات الرومانية المتواجدة هناك . ولكن خالداً زج بقواته بسرعة إلى المعركة وقتل قائد الروم منذ بدايتها ، وظل خالد يقاتل حتى لم ينج أحد من الروم . وعندما تلقى الخليفة عمر بن الخطاب أنباء معركة خضير لم يحاول أن يخفي إعجابه بعبقرية خالد العسكرية فقال : " خالد قائد بطبيعته ، ورحم الله أبا بكر لقد كان حكمه على الرجال خيراً من حكمي" . وكان هذا أول اعتراف من عمر بأن حكمه على خالد لم يكن حكما صائباً .

توجه خالد إلى قنسرين وبدون أدنى تأخير استسلمت المدينة له ، وتم ذلك في شهر حزيران عام ٦٣٧م ، الموافق (جمادى الأولى ، عام ١٦هـ) ، وانضم أبو عبيدة إلى خالد في قنسرين حيث توجه الجيش من هناك إلى حلب . وقد حاول قائد الحامية الرومانية في حلب أن يواجه قوات المسلمين خارج المدينة ، ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا ، فانسحب بقواته إلى داخل الحصن ، فتقدم المسلمون وفرضوا حصارهم على المدينة .

وقد توقع قائد الحامية الرومانية أن تصله الإمدادات من هرقل ، إلا أن المدد لم يصل فاضطر إلى الاستسلام .

بعد أن تم الاستيلاء على حلب ، أرسل أبو عبيدة قوة بإمرة (مالك الأشتر) للاستيلاء على (عزاز) الواقعة على الطريق المؤدي إلى حدود بلاد الروم ، وقد

استطاع مالك الاستيلاء على عزاز ثم عاد إلى حلب . لقد كان الاستيلاء على عزاز قد ضمن للمسلمين عدم وجود قوات كبيرة من الروم شمال حلب ، مما مكن أبا عبيدة من السير غرباً للاستيلاء على أنطاكية .

إقترب جيش أبي عبيدة من أنطاكية من الجهة الشرقية ، واصطدم مع أحد الجيوش الرومانية التي كانت تدافع عنها ونشبت بين الجيشين معركة كبيرة لم تذكر تفاصيلها من قبل المؤرخين . ولكن أبا عبيدة استطاع أن يدمر جيش الروم ويحتل أنطاكية عاصمة المنطقة الآسيوية من الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وقد كان لخالد بن الوليد دور بارز في حسم هذه المعركة لصالح المسلمين .

بعد سقوط أنطاكية تقدمت قوات المسلمين جنوبا على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط ، و استولت على اللاذقية وطرطوس وجبلة ، وبذلك تم تطهير معظم شمال غرب سورية من قوات الروم . وعاد أبو عبيدة بعد ذلك إلى حلب ، بينما تحرك خالد بن الوليد شرقاً إلى (منبج) بالقرب من نهر الفرات وفي أوائل كانون الأول عام ٦٣٨م ، انضم خالد بن الوليد إلى أبي عبيدة في حلب .

ترك أبو عبيدة خالد بن الوليد في قنسرين كقائد لها ، وعاد مع قواته إلى حمص حيث أقام فيها كقائد لها ، وكانت مهمة خالد في قنسرين مراقبة تحركات الروم في الشمال .

في نهاية عام (١٦هـ) ، الموافق (٦٣٧م) كانت جميع أنحاء بلاد الشام وفلسطين بيد المسلمين باستثناء قيسارية ، التي ظلت بيد الروم . وتولى مختلف قادة المسلمين إدارة المناطق التي فتحوها ؛ فعمرو بن العاص أصبح أميراً على فلسطين وشرحبيل بن حسنة على الأردن ، و يزيد بن أبي سفيان على دمشق ، و أبو عبيدة على حمص ، وخالد على قنسرين ، إلا أن الخليفة عمر عاد و عزل خالداً عن قنسرين .

بعد معركة أنطاكية أصبح هرقل قلقاً على امبراطوريته التي أصبحت معرضة

لخطر هجوم المسلمين بعد تدمير قواته في أجنادين و اليرموك وأنطاكية ؛ ولذلك حاول إثارة عرب الجزيرة ضد قوات المسلمين ليأخذ الفرصة كي يعيد ترتيب دفاعاته ، ونجح هرقل في تحريض عرب الجزيرة من النصارى ، فقاموا بحشد قواتهم لمهاجمة المسلمين .

علم أبو عبيدة بتحشد العرب النصارى فجمع قادته واستشارهم في الأمر . فكان رأي خالد أن يخرج المسلمون من المدن ويواجهوا قوات عدوهم خارجها . إلا أن معظم القادة أشاروا بالدفاع عن حمص ، فقبل أبو عبيدة برأي الأغلبية ، وبدأ بحشد قواته في حمص ، وأخبر الخليفة عن تطورات الموقف المستجد ، فقام الخليفة بتعزيز الجيوش الإسلامية في سورية ببعض قوات سعد بن أبي وقاص التي كانت في العراق .

تقدم العرب النصارى إلى حمص وفرضوا الحصار حولها وفي هذا الوقت تحركت بعض القوات الإسلامية الموجودة في العراق لنجدة جيش أبي عبيدة . وعندما سمع العرب النصارى بذلك خافوا أن تسقط أراضيهم في أيدي القوات القادمة من العراق ، فرفعوا الحصار عن حمص وعادوا مسرعين إلى الجزيرة .

وعندما سمعت القوات القادمة من العراق بفك الحصار عن حمص ، توقفت عن التقدم بانتظار تعليمات جديدة من سعد .

لقد نبهت حركة العرب النصارى المسلمين إلى حقيقة مفادها أنه لا يمكن اعتبار سوريا بحوزتهم بشكل نهائي إلا بعد تطهير الأرض المجاورة في المنطقة الواقعة شرق جبال طوروس ، حيث لا بد من إخضاع هذه المنطقة أو تدميرها لتصبح منطقة آمنة وراء الحدود السورية .

طلب الخليفة عمر بن الخطاب من سعد أن يجعل قواته التي تقدمت إلى سوريا تقوم باحتلال منطقة الجزيرة ، وعين عياض بن غنم قائداً لمسرح العمليات فأعطى سعد تعليماته لعياض بن غنم كي يستمر في فتح الجزيرة بالقوات الموضوعة تحت

إمرته ، فاكتسح عياض بن غنم المنطقة و أخضعها لسيطرته ، وبعد أن أنهى مهمته التحق عياض مع قواته بقوات أبي عبيدة بناءً على طلب الأخير .

وفي خريف عام (٦٣٨م) أرسل أبو عبيدة مفارزه عبر الحدود الشمالية ، وكانت اثنتان منها بقيادة خالد بن الوليد وعياض بن غنم ، واستطاع خالد الوصول إلى مرعش واحتلالها وكسب غنائم كبيرة منها عاد بعدها إلى قنسرين .

وبعد عودته قصده الشاعر الأشعث بن قيس ، وهو زعيم قبيلة كندة ، فجاء إلى خالد وقال فيه قصيدة جميلة مدح فيها القائد العظيم ، فأعطاه خالد مقابل ذلك جائزة مقدارها عشرة آلاف درهم . وفي غضون فترة وجيزة كانت أنباء هذه الحادثة عند الخليفة بواسطة عيونه ، فغضب عمر وصمم أن يضع حداً لتصرفات خالد الذي تجاوز الحدود من وجهة نظره .

لقد كان خالد رجلاً مبذراً منذ أيام صباه ، حيث وصلت إلى يديه أموال لا تحصى لكنه أنفقها بعطاياه ، وسعة العيش الذي كان يعيشه وأفراد عائلته وحاشيته الكبيرة .... ولولا ذلك لأصبح خالد أغنى رجال عصره .

لم يكن الأشعث يعلم أنه بقصيدته البليغة كان يحفر قبرا لمستقبل خالد العسكري وإن كانت هذه الحادثة صحيحة فهي ليست من الحوادث غير المألوفة عن خالد . فهذا القائد الشجاع الكريم كان يعيش هذه الحياة حتى قبل إسلامه ، فما بالك بعد أن أصبح أشهر قادة عصره بعد الإسلام [١٢] . وعلى الرغم من أن الكثير من المؤرخين قد أجمعوا على حدوث هذه القصة ، إلا أنني لا أجدها سبباً كافيا لإغضاب عمر ، فخالد رجل مسلم وهو حر بأمواله ، ولا أعرف السبب أو العلاقة بين عطية خالد للأشعث وغضب عمر عليه ، حيث إنني لا أرى سبباً لهذا الغضب. وعلى أي حال فإننا سنتناول العلاقة بين خالد وعمر في قضية العزل ، وسنلقي مزيداً من الضوء على هذه القصة .

٣- النتائج العسكرية و السياسية و الاقتصادية :

لا نستطيع أن نقارن معركة اليرموك بغيرها من المعارك التي حدثت عبر التاريخ، فمهما قيل عن حروب الاسكندر وهولاكو ومعارك الحربين العالميتين الأولى و الثانية وغيرها فإن كل هذه المعارك لا يمكن مقارنة نتائجها بنتائج معركة اليرموك الخالدة وما أسفرت عنه من تغيرات استراتيجية على الصعيد الدولي والعسكري والسياسي والجغرافي والاقتصادي، لا تزال ماثلة للعيان حتى يومنا هذا.

إن معركة اليرموك من وجهة نظر استراتيجية هي أول معركة حاسمة في تاريخ الدولة الإسلامية ؛ ولذلك ارتبط مصيرها بنتائج هذه المعركة إلى حد بعيد . فهذه الدولة الناشئة ما كانت لتستطيع أن تتحمل هزيمة قاسية في معركة كمعركة اليرموك دون أن يهتز كيانها و تتصدع أساساتها . ولكن النصر الذي جاء فيها قد فتح الأبواب أمام الدولة الإسلامية لتصبح واحدة من الدول التي تنافس غيرها على زعامة العالم . ومن هنا تكون معركة اليرموك قد نقلت الدولة الإسلامية من دولة ثانوية لتضعها في مصاف الدول الكبرى في ذلك الزمن. وهذا يعني أن الدولة الإسلامية بما حققته في معركة اليرموك قد اقتربت من نقطة التوازن بين أهدافها البعيدة وقدراتها المتاحة لتحقيق تلك الأهداف ، كما سبق وأن ذكرنا عن ذلك في الفصل الأول .

كما فرضت معركة اليرموك حقائق مادية كثيرة ، وقلبت بعض المعايير التي كانت سائدة في ذلك الزمن . فلأول مرة وجدت الامبراطورية الرومانية و الفارسية أن الواقع يفرض عليها أن تعيد النظر بفكرتها عن العرب ، فقد أصبح واضحاً بأن هناك شيئاً ما يكتنف الإسلام الذي حول أمتهم من أمة بدوية غير منظمة وصعبة المراس إلى أمة مرهوبة الجانب ، تمتلك قوة منظمة ، ظهرت في كل حروبها بأنها قوة لا تقهر .

لقد كانت الصفعة الأولى التي وجهها خالد إلى الامبراطورية الرومانية قاسية ومؤلمة ؛ لأن الروم اعتادوا معاملة أهل الصحراء بازدراء واضح فأصابها من هؤلاء ما لم يصبها عبر تاريخها الطويل .

إن البعد الاستراتيجي لمعركة اليرموك كان في أحد جوانبه بعداً آنياً ؛ فبانتصار المسلمين في اليرموك فتحت آفاق جديدة للدعوة الإسلامية وتهيأت مرتكزات قوة مضافة لهذه الدعوة ، فصار من المؤكد بأنه سيتاح لها أن تنتشر بين قطاعات عريضة من الشعوب المختلفة ، وسيكون هناك مجال واسع أمام هذه الشعوب للدخول في الدين الجديد . وهذه هي أهم حقائق الدعوة الإسلامية التي جاءت من أجلها . إن البعد الإنساني لهذه المعركة كان بمثابة الميزة الرئيسية التي انفردت فيها معركة اليرموك عن غيرها من المعارك . وعلى هذا الأساس فإن الانتصار الذي تحقق في معركة اليرموك هو انتصار للإنسانية أولاً قبل أن يكون انتصاراً للدولة الإسلامية . فما دام الإنسان هو هدف هذه الدعوة وغاياتها الأساسية فإن أي تطور يطرأ على مسارها هو في الحقيقة تطور غير مباشر يصيب المسيرة الإنسانية على هذا الكون .

لقد عرف التاريخ الإنساني حروباً كثيرةً بين الأمم قديمها وحديثها ، ولكن لم تكن نتائج تلك الحروب و المعارك تنطوي على المضامين الإنسانية التي انطوت عليها معارك المسلمين . وعلى هذا الأساس كان أثرها وقتياً زائلاً ، في الوقت الذي بقيت آثار المعارك الإسلامية قائمة إلى يومنا هذا ، على الرغم من استهداف هذه الآثار من قبل قوى أخرى سعت وبكل السبل إلى طمسها و العمل على تغييرها ولكنها بقيت صامدة واندحر المعتدون عنها .

وما دمنا في الحديث عن البعد الاستراتيجي لمعركة اليرموك فلا بد من التنويه إلى أن هذه المعركة قد بدلت من موازين القوى التي كانت قائمة في ذلك العصر . لقد عصفت قوات خالد بن الوليد بجيوش الامبراطورية الرومانية بعد أن كانت قد مزقت جيوش الامبراطورية الفارسية بسلسلة من المعارك الدامية . وبناء عليه فقد

أصبح ما يسمى بالمجال الحيوي لهذه الدول مجالا محدودا بعد أن تقلصت حدود امبراطورياتها من جهة ، وظهرت الدولة الإسلامية كقوة مرهوبة الجانب من جهة أخرى . ولأننا نعرف بأن المجال الحيوي للدولة يتطور تطورا مضطردا مع تطور قوة وإمكانات الدولة ؛ لذلك فإن أي تقليص أو ضعف يطرأ على هذه القوة لابد له وأن يقود إلى تقليص في مجالها الحيوي . إن الضربات التي وجهها خالد لجيوش الفرس و الروم هزت أركان هاتين الامبراطوريتين وقلصت من قوتهما بشكل واضح لذلك فلا عجب والحالة هذه أن نشاهد انحسار المجال الحيوي لهاتين الدولتين وتزايد آفاق هذا المجال بالنسبة للدولة الإسلامية .

وفيما يتعلق بالحقائق الاستراتيجية الأخرى التي أرست معركة اليرموك أسسها فهي في الحقيقة أكثر من أن تحصى أو تعد ، ولكن من الممكن القول بأن كل ما طرأ من تغييرات إقليمية ودولية كان يرتكز في الأساس على ما تم إنجازه في معركة اليرموك ،لأنها كانت المعركة التي هيأت السبل لانطلاقة الدولة الإسلامية غير المحدودة في جهات الأرض الأربع .

على الصعيد الجغرافي ، أضافت معركة اليرموك مساحات جغرافية جديدة إلى رقعة الدولة الإسلامية . ويرى الكثير من الباحثين أن هذه المعركة أضافت بعداً جغرافياً مميزاً لاستراتيجية الدولة الإسلامية ؛ لأن البعد الجغرافي على علاقة وثيقة بالاستراتيجية العليا للدولة ؛ حيث يوجد تناسب طردي بين مساحة الدولة الجغرافية ومستوى الأمن القومي المتحقق : بمعنى أنه كلما ازدادت مساحة الدولة ، ازداد أمنها القومي قوة ، و كلما صغرت مساحتها ، سهل اجتياحها ؛ لأنها تصبح فقيرة إلى العمق الاستراتيجي الكافي الذي يخفف من القوة الدافعة لأي هجوم معاد . أضف إلى ذلك زيادة مساحة الرقعة الجغرافية لأي دولة تقلل من تأثير عنصر المفاجأة العسكرية ، و تساعد على سرعة حشد القوات ، وتحسن من قدرة الدولة على توجيه الضربة الثانية .

ولذلك شاهدنا دولتي الفرس و الروم بعد كل هزيمة تمنيان بها ، كانتا قادرتين

على حشد جيوش إضافية و الدخول في معارك جديدة أخرى ، وقد ساعدتهما المساحة الجغرافية المترامية الأطراف ، على الصمود وعدم الانهيار بعد الهزائم التي منيتا بها .

وبناءً عليه ، تكون معركة اليرموك قد مكنت الدولة الإسلامية من إضافة مساحات جغرافية جديدة إلى رقعتها ، مما أعطى أمنها القومي بعداً مضافاً وجعلها في الموقع الأنسب لتدعيم استراتيجيتها القومية .

أما من الناحية الاقتصادية ، فإن عنصر الاقتصاد يأخذ أهميته على الصعيد الاستراتيجي من حقيقة ما يعكسه من ارتباط مباشر بين إمكانات الدولة الاقتصادية وأهدافها القومية ؛لأن قدرات الدولة الاقتصادية هي التي تحدد مستوى القوة العسكرية و السياسية التي تتمتع بها هذه الدولة ، و بالتالي مستوى الأمن الذي يمكن لها تحقيقه .

وإذا عرفنا أن بلاد الشام كانت من أغنى أقاليم الامبراطورية الرومانية ، أدركنا الأهمية الاقتصادية التي كانت تمثلها هذه البلاد للدولة الإسلامية ودور ذلك في تدعيم قدراتها المختلفة .

إن المقومات الأساسية لأي استراتيجية ، تتمثل بالقوة البشرية ، والموارد الاقتصادية ، والرقعة الجغرافية ، والروح المعنوية . ومن هذا المنظور تعتبر معركة اليرموك قد حققت إضافات هائلة للمقومات الأساسية لاستراتيجية الدولة الإسلامية بعد أن حققت نسبا مرتفعة من هذه المقومات .

أما على الصعيد السياسي فقد جسدت هذه المعركة الحقائق الأساسية التالية : -

- تطوير الوضع السياسي للدولة الإسلامية على الصعيد الدولي؛ بحيث ظهرت الدولة الإسلامية بعد هذه المعركة ، بأنها من الدول التي يجب على القوى السياسية الأخرى أن تحسب لها ألف حساب .
- أكسبت معركة اليرموك الأمن القومي الإسلامي بعداً إقليمياً ودولياً معقولاً

بمعنى أنه أصبح هناك اعتراف إقليمي ودولي بقدرة الدولة الإسلامية على ردع أي عدوان يقع عليها ، وإن هذه القدرة تكتسب مصداقية مضافة بما هي مدعمة فيه من قوى مادية ومعنوية .

- طورت هذه المعركة من حيز التأثير السياسي للدولة الإسلامية ؛ بحيث أصبحت تتعامل مع غيرها من الدول من مكانة الند القوي ، وأصبحت مصالحها السياسية موضع احترام من قبل الجميع ؛ مما سهل من مهمة الدولة الأساسية التي تسعى لتحقيقها .
- فرضت حالة التغيير السياسي و الجغرافي و الاقتصادي تطويراً رئيسياً على هيكل الدولة الإسلامية الإداري ؛ مما تسبب في ظهور بعض التنظيمات الإدارية الجديدة مثل نظام الدواوين و الولاة ، وأخذت الوضع المناسب لمفهوم الدولة المعاصرة .
- أما عن الأثر السياسي الذي أحدثته معركة اليرموك على الامبراطورية الرومانية ، فقد أنهت هذه المعركة حكمها إلى الأبد في بلاد الشام وهزت موقعها السياسي هزاً عنيفاً على الصعيد الدولي .

أما على الصعيد الاجتماعي ، فقد كان لمعركة اليرموك آثار حاسمة في هذا المجال ، حيث قلبت هذه المعركة الناحية الاجتماعية في هذه المنطقة من العالم ، وجعلت من بلاد الشام بلاداً عربية إسلامية ستبقى كذلك إلى ما شاء الله .

أما على الصعيد العسكري فتعتبر معركة اليرموك ، واحدة من أكبر معارك التاريخ التي تضمنت كل صفحات القتال العسكرية دفاعا وهجوما وتقدما وانسحابا كما تضمنت أشكالا كثيرة للمناورة ، مثل الهجوم الجبهوي والاختراق والالتفاف والتطويق والمناورة على الأجنحة ، كما ظهر فيها مناورات دفاعية رائعة أخذت شكل الدفاع المتحرك و الهجمات المعاكسة وحرب الاستنزاف وغيرها . وبذلك تكون معركة اليرموك قد قدمت فوائد جمة للعسكرية الإسلامية على صعيد

التخطيط و المناورة .

فعلى مستوى التخطيط انطوت خطة خالد بن الوليد على شقين رئيسيين هما :

- تبنّي أسلوب الدفاع النشط لاستنزاف قوات العدو وإنهاكها ، وهو ما عمل عليه خالد طيلة الأيام الأربعة الأولى من المعركة ؛حيث كانت قوات المسلمين تدافع دفاعاً نشطاً أمام هجمات الروم المتلاحقة ، وعندما كان يهتز توازن أحد أجنحتها كان خالد يتولى مهمة إعادة التوازن إلى هذا الجناح من خلال قيامه بهجمات معاكسة متقنة في الزمان و المكان المناسبين .
- التحول إلى الهجوم في الوقت الذي يكون فيه الدفاع قد حقق أغراضه وفعلا تحول جيش المسلمين من حالة الدفاع إلى الهجوم منذ اليوم الخامس للمعركة، فلم يشن خالد بن الوليد هجومه المضاد إلا بعد أن تأكد أن قوات الروم قد استنزفت وأصيبت بخسائر جسيمة ، وأصبحت غير قادرة على القيام بأي هجمات إضافية مؤثرة .

وهكذا نلاحظ أن خالد بن الوليد عندما قرر التحول من الدفاع إلى الهجوم بعد اليوم الرابع من المعركة اتخذ قرارا حاسما ينطوي على القيام بعملية عزل خيالة الروم عن مشاتهم وذلك لتحقيق غرضين رئيسيين هما :

- منع خيالة الروم من إسناد قوات المشاة مما يجعل من هذه الأخيرة فريسة سهلة لقواته .
- محاولة تجزئة قوات الروم لإضعافها أولاً ، وتسهيل عملية مواجهتها ثانياً ، ومنع الاتصال فيما بينها ثالثا . وقد حقق خالد هذه الأهداف جميعها ، فبعد هزيمة خيالة الروم بقيت قوات المشاة الرومانية لتواجه قدرها المحتوم على أرض المعركة.

لقد كانت معركة اليرموك نصراً حاسماً للإسلام و المسلمين على الصعيد الاستراتيجي و التكتيكي ، إلا أن المسلمين فقدوا في هذه المعركة حوالي أربعة

آلاف شهيد ، وأصيب عدد كبير جداً منهم بجراح . أما خسائر الروم فقد اختلف حولها المؤرخون ؛ حيث ذكر بعضهم أنها بلغت حوالي مائة وعشرين ألفاً (١٢) . وقدر البعض الآخر هذه الخسائر بسبعين الفاً ، ومن المعتقد أن رقم القتلى الفعلي كان كبيراً بغض النظر عن الرقم الصحيح .

بعد هذا العرض الشامل لنتائج المعركة يمكننا القول بأن معركة اليرموك كانت معركة حاسمة في التاريخ الإسلامي على كافة الصعد ، سطرها خالد بن الوليد بعبقريته العسكرية الفذة ، ونقل على أثرها الدولة الإسلامية برمتها نقلة استراتيجية نوعية فتحت أمامها آفاق المستقبل الرحب ، ورفع من معنويات المسلمين ، وجعل دورهم أكثر أهمية وأشد أثراً على الصعيدين الإقليمي و الدولي ، فهذا هو خالد الذي لقبه رسول الله عليه السلام بسيف الله المسلول ، وهذه هي أفعاله التي لا تزال آثارها ماثلة أمامنا حتى يومنا هذا .

الهوامش

١ – كعوش ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .

٢ – صالح ، مرجع سابق ، ص ١١٥–١٢١ .

٣ – أبو عبدا لله محمد بن عمر الواقدي ، فتوح الشام الجزء الأول ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي وأولاده بمصر ، الطبعة الرابعة ١٩٦٦ ، ص ١٣٣ .

٤ – صالح ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ .

٥ – الواقدي ، مرجع سابق ، ص ١٣٧–١٤٢ .

٦ – الواقدي ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ .

٧ – الواقدي ، مرجع سابق ، ص ١٤٩ .

٨ – الواقدي ، مرجع سابق ، ص ١٥٠–١٥١ .

٩ – محمود شيت خطاب ، قادة فتح الشام ومصر ، دار الفتح للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٥ ، ص ٩٢ .

١٠ – أكرم ، مرجع سابق ، ص ٤٨ .

١١ – الواقدي ، مرجع سابق ، ص ١٥٣ .

١٢ – الطبري ، مرجع سابق ، ص ٥٩٦ .

الخاتمـــــة :

إستراحة المحارب

إستراحة المحارب :

كما سبق أن بينا ، فإن التاريخ هو مفكرة الزمن التي تحتوي بين صفحاتها حوادث الأيام وأخبار الشعوب والأمم في الغابر من السنين ، يقدمها للأجيال لتدرسها وتحللها لتستنبط الأحكام و العبر التي تساعدها على تشكيل حاضرها ورسم خطوط مستقبلها . وحوادث التاريخ كثيرة ومتعددة منها ما هو بيّن واضح ومنها ما هو غامض في دوافعه وأسبابه . وقضية الغموض في بعض حوادث التاريخ ، جعلت منها مراكز استقطاب للباحثين ، وأبواب اجتهاد للمؤرخين .

وقضية عزل خالد بن الوليد من قبل الخليفة عمر بن الخطاب هي واحدة من تلك القضايا التي ما زال الغموض يلّف معظم جوانبها ، ويخفي حقيقة أسبابها ودوافعها ، مما فتح باب الاجتهاد على مصراعيه أمام الباحثين و المفكرين على اختلاف ميولهم وانتماءاتهم للحديث عن هذه القضية وأسبابها .

يعتبر خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب من أبرز رجالات التاريخ على الإطلاق فالأول هو من القادة العسكريين بينما الثاني هو أعظم رجل دولة عرفه التاريخ الإسلامي. ولذلك فإننا نجد أن من حق هذين الرجلين العظيمين على كل باحث في

هذه القضية أن يفهم طبيعتها وظروفها وملابساتها كما هي ، مبرأة من أي خلط أو جهالة، وبعيدة عن أي هوى أو ميل، حتى تأخذ الواقعية دورها في رسم خطوط هذا الحدث .

إن قضية عزل خالد عن قيادة جيوش المسلمين في بلاد الشام ليست بالقضية السهلة أو المحدودة التي يمكن حصرها بعزل قائد عن موقعه ، بل هي أبعد من ذلك وأشد أثراً مما ظهرت عليه ، فهي لم تمس مستقبل قائد عسكري كبير مثل خالد فحسب ، بل تجاوزت ذلك لتلامس بآثارها ونتائجها مستقبل الدولة الإسلامية وعقيدتها في آنٍ معاً . فعزل خالد قد عطّل إمكانية قيام فتوحات إسلامية إضافية ؛ وهذا يعني تقليصاً في رقعة الدولة الإسلامية الجغرافية و السكانية وما يترتب عليه من نقص في مواردها الاقتصادية ومكانتها السياسية وقدرتها العسكرية .وعلى الرغم من قول بعض المؤرخين بأن القادة الذين خلفوا خالداً في القيادة قد حققوا ما نقص من عمله ، إلا أن هذا الادعاء على صحته يغفل حقيقة هامة هي : أنه كان من الممكن استغلال هذه القيادات جنبا إلى جنب مع قيادة خالد العسكرية لتحقيق ما هو أعظم مما تحقق .

وأرى من الواجب هنا قبل الخوض في تفاصيل هذه القضية إقرار حقيقتين رئيسيتين هما :

١- إن عمر بن الخطاب من البشر يصيب ويخطيء، وقد سبق أن أخطأ في بعض المواقف فقال على سبيل المثال : أخطأ عمر وأصابت امرأة .

٢- إن الكثير ممن كتبوا عن هذه القضية لم يكونوا مجردين من العاطفة ، كما أن بعضهم قد جانبه الحياد و الواقعية . وفي اعتقادي أن موقف الكثير ممن كتبوا عنها كان محكوما ببعض الجوانب الإيجابية التي كانوا يحاولون دائماً إظهارها أو إضفاءها على رجالات الإسلام الأوائل . علماً بأن هذه القضية لا تمس أحداً ولا تسيء إلى عقيدة . فعمر ليس بنبي ، وخالد ليس بمعصوم،

و بالتالي قد يخطيء هذا أو ذاك . وبناء عليه فإن الحقيقة تقتضي أن لا يمنعنا التزامنا الديني و الخلقي من الإشارة إلى الخطأ أينما كان ؛ لأن هذا الالتزام لن يحدث جرحاً في العقيدة أو الدين ، بل العكس هو الصحيح . وهنا لابد من الإشارة إلى أن شخصية عمر وعبقريته قد طغت على الكثير من المواقف وجعلت بعض الباحثين يترددون كثيراً قبل الاقتراب من مناقشة هذه القضية ، خوفاً من أن يوصفوا أو توصف كتاباتهم على أنها بمثابة نيل شخصي من عمر ، وهذا الأمر لا يستسيغه الكثير من ذوي الأفكار المغلقة .

وقبل أن أبدأ بعرض معطيات وظروف العزل لابد من الإشارة إلى بعض الكلمات التي قيلت بخالد بن الوليد وعبقريته العسكرية ، والتي تمثل له سجل شرف لن يرقى إليه شخص مهما كان .

بعد معركة مؤتة أطلق عليه الرسول ﷺ لقب سيف الله المسلول . وعندما كان الخليفة أبو بكر يخطط لحروب الردة بحث مع عمرو بن العاص مسألة تعيين عدد من أمراء الألوية ، وقال : " يا عمر ! إنك رجل ثاقب الفكر ، فما هو رأيك بخالد ؟ " فأجاب عمرو بن العاص :" إنه سيد الحرب ، وصديق الموت" [١] .

وبعد فتوح العراق قال عنه أبو بكر : " يا معشر قريش .... عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله – قطع اللحم– .... أعقمت النساء أن يلدن مثل خالد"[٢].

وقال عنه قبل معركة اليرموك : " لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد " [٣] .

أما عمر بن الخطاب فقد قال عنه : " رحم الله أبا بكر فقد كان أعلم مني بالرجال " . وعندما سمع بوفاة خالد قال : " دع نساء بني مخزوم يبكين على أبي سليمان فإنهن لا يكذبن ، فعلى أبي سليمان تبكى البواكي " .

– وصف إدوارد جيبون في كتابه " إنحطاط الامبراطورية الرومانية " خالد بن الوليد بقوله : " إنه أعنف وأنجح مقاتلي الجزيرة العربية " [٤] .

أما الجنرال الألماني " غولتس " فيقول عن خالد :" إنه أستاذي في فن الحرب ".

ويقول عنه المؤرخ الألماني موللر : " إنه شبيه نابليون "، وفي مكان آخر يقول : " لم يأبه لشيء إلا للحرب ، ولم يرد أن يتعلم شيئاً سوى الحرب ". أما المؤرخ الفرنسي (إميل ردمنغهام) فيقول عنه في كتابه " حياة محمد " : " خالد لا يقهر " ، وفي مكان آخر يقول : " القائد الممتاز " و" القائد الكبير " (٥) . ويقول عنه الجنرال أكرم في كتابه خالد بن الوليد : " كان خالد من أعظم القادة الذين عرفهم التاريخ ، ومن ألمع العباقرة العسكريين . وإننا لم نر حالة واحدة مشابهة في التاريخ بحيث تجمع هذه الصفات كلها في رجل واحد ، وكان خالد أحد أعظم قائدين في التاريخ لم يعرفا الهزيمة قط . وكان القائد الثاني هو جنكيز خان . بالإضافة إلى عبقرية خالد الاستراتيجية و التكتيكية فقد كان عنيفاً في تنفيذ أساليب قتاله .... كان خالد جندياً بطبيعته ".

هذه هي أهم الآراء القديمة و الحديثة بالقائد الكبير ، فلماذا أُنهيت حياته العسكرية بالطريقة التي أنهيت بها ؟ ولماذا اتخذ الخليفة قراره هذا ؟ وما هي الأسباب التي دفعته لذلك ؟ كل هذه الأسئلة وغيرها سنحاول الإجابة عليها في هذا السياق ، متوخين الواقعية في نظرتنا إلى الأحداث ، حتى نتمكن من الخروج عن الإطار التقليدي في سرد هذه القضية وأسبابها و النتائج التي تمخضت عنها .

في الثاني و العشرين من آب عام ٦٣٤م (الثاني و العشرين من جمادى الآخرة عام ١٣هـ) توفي الخليفة أبو بكر ، وتولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب .

وفي نفس الوقت الذي تولى فيه الخلافة أصدر أول أمر له بعزل خالد عن قيادة جيش المسلمين في بلاد الشام ، وكتب إلى أبي عبيدة يقول له : " بسم الله الرحمن الرحيم ، أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور ، وقد استعملتك على جند ابن الوليد في بلاد الشام فقم بأمرهم الذي يحق عليك " (٦) ، وقام عمر بإبلاغ المسلمين بقراره هذا .

تلقى المسلمون في المدينة هذا الخبر بصمت ووجوم ، وكانت مفاجأة كبيرة

بالنسبة لهم ، حيث لم يكن أحد يتوقع أن يتصرف عمر مع سيف الله بهذا الأسلوب وبمثل هذه السرعة ، خاصة بعد الانتصارات التي حققها خالد للإسلام خلال الفترة الماضية ، وفي الوقت الذي تتهيأ فيه جيوش المسلمين لخوض أكبر و أخطر المعارك في تاريخ الدولة الإسلامية .

أدرك عمر بفطنته وذكائه الحالة التي انتابت المسلمين وردود الفعل لديهم على الخطوة التي اتخذها بحق خالد ، ووجد من الصعوبة عليه الصمت وعدم طرح مبرر لها ، كما أدرك أن مبرراته لابد أن تكون على جانب كبير من الإقناع بحيث توازي خطورة القرار الذي اتخذ لأن شخصية عسكرية فذة مثل خالد بن الوليد لا يعقل عزلها دون تقديم مبررات .

جمع عمر بن الخطاب المسلمين وقدم لهم أول مبرر لعزل خالد وقال : " إني أعتذر عن هجر خالد بن الوليد ، فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين ، فأعطى ذا البأس ، وذا اللسان فأمرت أبا عبيدة ".

ومع أن هذا التبرير لم يكن مقنعاً للكثير من الذين استمعوا إليه مما اضطر بعضهم إلى معارضته . إلا أن الشيء الأهم من ذلك أن عمر بن الخطاب نفسه وبعد مرور فترة طويلة عاد وبرر إجراءه مع خالد بمبرر آخر حين قال : " إني لم أعزل خالداً عن سخط ولا عن خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخشيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا ، وألا يموتوا بعرض فتنة " (٧) .

ولا نعرف على وجه اليقين الدوافع التي جعلت عمر يعود ثانية وبعد مرور الوقت إلى إعلان تبرير آخر مناقض للتبرير الأول ولا يأتي عليه أو يلتقي حتى معه . ولا شك بأن قيام عمر بمحاولة إطلاق أكثر من مبرر لعملية عزل خالد كانت تؤشر على حالتين رئيسيتين هما :

١ - أن المسلمين ما زالو غير مقتنعين بالمبررات التي قدمها عمر في هذه القضية .

٢ - أن عمر بن الخطاب نفسه كان غير مقتنع بالتبرير الأول ويعرف أنه لم يكن مقنعا للمسلمين ؛ ولذلك حاول إطلاق المبرر الثاني ليخفف من وطأة القضية على نفوسهم أولاً وعلى نفسه ثانياً ، لأنه على ما يبدو فإن هذه القضية ظلت تتفاعل في نفسه مدة طويلة .

وقد جاء التبرير الثاني على عكس الأول ، ففي الثاني كاد أن يكون التبرير شهادة بعبقرية خالد بينما كان الأول ينطوي على اتهام مباشر له .

أما عن مواقف المسلمين من قضية العزل فإن هذه المواقف كانت متشابهة إلى حد بعيد في نظرتها إلى هذه القضية ، حتى أبو عبيدة نفسه لم يكن على يقين بصواب الخطوة التي اتخذها الخليفة بحق خالد ، فبعد أن وصله كتاب الخليفة عمر أصيب الرجل بالذهول ، وكان لا يتمنى أن يحدث هذا لخالد ، فهو يعرف أن خالداً كان رمزاً للجيوش الإسلامية ، وأن وجوده على رأس هذا الجيش كان عاملاً في غاية الأهمية ليجعل المسلمين يثقون بالنصر على أعدائهم . كما أن تغيير القيادة في هذا الوقت الصعب سيكون له تأثير سيء على الجند ، وأنه من الصعب إقناعهم بعدالة عزل خالد ، أو الحكمة من حدوثه في هذا الوقت بالذات ، علاوة على ذلك فإن أبا عبيدة لم يكن راغباً في تولّي القيادة في منتصف العملية التي أشرف عليها وخطط لها خالد بنفسه .

أما عن موقف الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم ، فقد وصفه أبو زيد شلبي في كتابه الموسوم "تاريخ خالد بن الوليد" بقوله : " إن أجلاء الصحابة وكبراءهم كانوا يودون أن لو كان قد بقي خالد أميراً ويرغبون في أن يكون خالد متمتعا برضاء الخليفة كما كان في زمن أبي بكر فهم يعرفون خالداً وعزماته وسياسته في الحرب، و الكثير منهم عجم جاهليته وإسلامه ، وبودهم لو يظل سيف الله شاهراً سيف الإمارة مسددا سهم القيادة في صدور الأعداء" (٨) .

هذا هو موقف أبي عبيدة وغيره من كبار الصحابة فإذا كان هؤلاء وهم خيرة

المسلمين وصفوتهم ومن أكثر الناس المقربين إلى عمر بن الخطاب وأعرف النـاس بالرجلين ، إذا كان هذا موقفهم ، فما هو يا ترى موقف الجنود المقاتلين الذين قادهم سيف الله من نصر إلى نصر بعبقرية مطلقـة ؟ لقد وصف أبو زيد شلبي شعور الجند نحو خالد ومستوى تعلقهم به فقال : " أما الجند فكانوا لأحرص على القتال تحت لوائه ، وسواء منهم من قاتل تحت رايته بالأمس ومن لم يقاتل يتسابقون علـى طاعته ويستميتون للقتال بين يديه ويحرصون على أن يكونوا في كردوسـه ، يعرفون يمن نقيبته وحسن تدبيره وأصالة رأيه في القيادة و التعبئة و الوصول إلى النصر " (٩) . هذا هو رأي الجند في خالد ومشاعرهم نحوه ، ومن المعتقد إلـى حد كبير أن إخفاء حقيقة عزل خالد عن الجند كان يعود إلى هذه الأسباب ؛ لأن أبا عبيدة كان يعرف مكانة خالد في نفوس جنده ، كما كان على يقين بأن إبلاغ الجند بمثل هذا القرار سيؤثر على معنوياتهم ، خصوصاً أنهم مقبلون على خوض معركة لا قبل لهم بها . أضف إلى ذلك أن إبلاغ الجند بهذا القرار قد يحدث في صفوفهم ما لا تحمد عقباه ، خصوصاً أن العصبية ما زالت متأصلة في نفوسهم ؛ ولذلك آثر أبو عبيدة عدم إبلاغ خالد عن القضية في حينها ، وعندما سأل خالد أبا عبيدة عن ذلك أجابه : " لم أرغب في إضعاف سلطتك وأنت مشتبك مع العدو " (١٠) .

أما إذا حاولنا مناقشة هذا القرار على الصعيد العسكري فإننا سنكون مضطرين لإلقاء الضوء على أهم المتغيرات التي أحدثها في مجال القيادة و العمليات .

فعلى الصعيد القيادي فإننا نجد من الضرورة إجراء مقارنـة بين قيادة خالد بن الوليد وقيادة أبي عبيدة التي وقع عليها اختيار الخليفة عمر بن الخطاب ، و الكفاءة العسكرية التي يتمتع بها كلا الرجلين ، وأثر ذلك على العمليات العسكرية .

وبداية نقول : إنه وعلى الرغم من دور أبي عبيدة البارز في التاريخ الإسلامي ومكانته بين الرجال و الصفات القيادية التي كان يتمتع بها ، إلا أن مقارنته مع خالد ابن الوليد في الأمور لعسكرية ستظهر لنا بالتأكيد فوارق كبيرة بين الرجلين ليس

على الصعيد التكتيكي الميداني فحسب ، بل على الصعيد الاستراتيجي أيضاً .

ففي أول اختبار له بعد استلامه قيادة مسرح عمليات بلاد الشام ، واجه أبو عبيدة محنة عسكرية حقيقية بعد أن فشل في تقدير موقف قوات العدو الصحيح في معركة أبي القدس ، حيث أرسل عبدالله بن جعفر على رأس قوة مقاتلة للقيام بعملية إغارة على قوات العدو في هذا الموقع ، وبعد أن تورطت بالقتال تم تطويقها مما اضطره إلى الطلب من خالد بن الوليد العمل على إنقاذ عبدالله بن جعفر من المأزق الذي وقع فيه . وفعلا تمكن خالد من القيام بهذه المهمة و أنقذ عبدالله ومن معه .

كما أشار بعض المؤرخين إلى أن عمل القوات الإسلامية في مسرح عمليات بلاد الشام قد أصابه التباطؤ الواضح بعد أن تولى أبو عبيدة قيادة القوات ، وهذا ما يؤكد الخلل الذي وقع نتيجة لعزل خالد ؛ لأن عزل هذا الرجل كان بمثابة تغيير جوهري في استراتيجية العمل العسكري برمته ، في وقت لا يسمح بإحداث مثل هذا التغيير ، مع أن أبا عبيدة كان قائداً جيداً كمحصلة لتوجيهات خالد بن الوليد الذي ظل قريبا منه طيلة فترة العمليات .

كما يعتقد بعض المؤرخين ، أن أبا عبيدة لم تكن له الرؤية الاستراتيجية أو الإحساس التكتيكي التي تتطلبها المواقف العسكرية المختلفة ، والتي كان يتمتع بها خالد ، ومع ذلك استمر في قيادته ونجح في فتح بلاد الشام ، بعد أن أصبحت عبقرية خالد العسكرية وخبرته تحت تصرفه (١١) .

وقد ظهر اعتماد أبي عبيدة على خالد في أكثر من موقف ، ففي اجتماع مجلس الحرب الذي عقده أبو عبيدة في مرحلة التخطيط لمعركة اليرموك ، وبعد تداول الأمر بين المجتمعين ، التفت أبو عبيدة إلى خالد وقال له : " يا أبا سليمان إنك رجل الجرأة و الإقدام و الرأي ، فما رأيك فيما سمعت ؟ " فأجاب خالد : أما أنا فلدي وجهات نظر مختلفة ، ولكنني لا أعارض المسلمين . فقال أبو عبيدة : إذا

كان عندك وجهات نظر أخرى تكلم وسوف نفعل ما تقول .

عندئذ طرح خالد رؤيته الاستراتيجية للمعركة و قال : " أيها الأمير ، إعلم أنك إن انتظرت في هذا المكان فإنك تساعد العدو عليكم ففي قيسارية التي ليست بعيدة عن الجابية يوجد أربعون ألف روماني بقيادة قسطنطين بن هرقل ، وأنا أشير عليك أن تنتقل من هنا وتجعل أزرع خلفك ولتكن على اليرموك ، وبذلك يسهل على الخليفة إرسال التعزيزات ، وسيكون أمامك سهل كبير ملائم لهجوم الخيالة " (١٢) . وفوراً تم وضع خطة خالد موضع التنفيذ بعد أن وافق المجتمعون عليها .

وفي المراحل النهائية لخطة عمليات اليرموك خاطب خالد أبا عبيدة قائلاً : "أيها الأمير أرسل في طلب جميع قادة الكتائب وأخبرهم بأن يستمعوا لما سأقوله" (١٣) . وقد فهم أبو عبيدة رسالة خالد هذه وهو في الواقع لم يكن يسعى إلى أكثر من ذلك . وبناء عليه طلب أبو عبيدة من قادته بعد أن اجتمعوا إليه أن يستمعوا لما سيقوله خالد وأن يعملوا على تطبيقه ، ففهم القادة أيضاً معنى الرسالة التي تلقوها من أبي عبيدة ، وهكذا أصبح خالد بن الوليد القائد الفعلي للمعركة وإن ظلت قيادة القوات الاسمية لأبي عبيدة .

وبناء عليه يمكن القول إن قرار عمر بن الخطاب بعزل خالد وتولية أبي عبيدة قيادة جيوش المسلمين ، لم يجعل من أبي عبيدة قائداً لمعركة اليرموك ، ولم يذهب بخالد عن هذه القيادة .

وتأسيساً على ما سبق فإن قرار الخليفة من وجهة نظر عسكرية لم يكن القرار الأفضل ، كما أن الأحداث التي تلت لم تجعله نافذ المفعول من وجهة نظر عملية حتى نهاية المعركة .

أما إذا نظرنا إلى قرار الخليفة من حيث ملاءمته للظروف المحيطة بالقوات في مسرح عمليات بلاد الشام وتوقيته الزمني ، فإن هذه النظرة ستقودنا حتماً إلى الإقرار بأن هذا القرار لم يكن مناسباً على أكثر من صعيد ، فهو من جهة ، يوحي

بأن الخليفة لم يكن على اطلاع دقيق على الأوضاع التي كانت القوات الإسلامية تعاني منها في مسرح عمليات بلاد الشام ، حيث لم تكن هذه القوات بحاجة إلى التغيير بقدر ما كانت بحاجة إلى أي شيء يشد أزرها ويرفع من معنوياتها . أضف إلى ذلك أن هذا القرار قد جاء قبل وقت قصير من أخطر معركة خاضها الجيش الإسلامي في تاريخه القتالي وهي معركة سيترتب عليها الكثير من المتغيرات الحاسمة على مختلف الصعد . فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن خالداً كان يمكن له أن يشق عصا الطاعة على المسلمين ، ونحن نعرف قدرته على ذلك وثقة جنوده به ، ولو أن ذلك قد حصل ، لكان قرار عمر بن الخطاب قد حطم الدولة الإسلامية وأصاب عقيدتها في مقتل . ولكن خالداً الرجل العبقري الفذ لم يكن من الرجال الذين يضعون المصلحة الخاصة قبل المصلحة العامة ؛ ولذلك عندما أبلغ بقرار عزله قال قولته التاريخية : " أنا لا أقاتل من أجل عمر بل من أجل رب عمر " . هذه هي القيادات الإسلامية التي دحرت أعظم امبراطوريتين في العالم ومرغت أنفها بالتراب .

لقد اتخذ خالد موقفه العظيم هذا وتعالى فوق جراحه وما كان لرجل عظيم مثله أن يتخذ غير هذا الموقف ، فمواقف الرجال دائما تكون بمستوى عظمتهم وموقعهم في التاريخ . لقد اتخذ خالد هذا الموقف وهو يعرف الكثير عن مواقف عمر بن الخطاب منه قبل توليه الخلافة ، ففي حروب الردة اتهمه بالظلم بعد أن قتل مالك ابن نويرة ، وطلب من أبي بكر أن يتخذ نفس الموقف ، ولكن أبا بكر كان يعلم بأن هذين الرجلين العظيمين لا يكنان المحبة لبعضهما ولذلك قال لعمر : " إرفع لسانك عن خالد ، وإنني لم أكن لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين " . فأجابه عمر قائلاً : " لكن ... عدا على امريء مسلم فقتله ثم نزا على امرأته " (١٤) .

في معركة المصيخ قتلت جيوش المسلمين اثنين من الذين أسلموا وظلوا يعيشون مع الفرس في ديارهم ، وعندما سمع عمر بهذا الحادث هرع إلى أبي بكر يشتكي إليه ظلم خالد بن الوليد ، لكن أبا بكر قال لعمر : " كذلك يلقى من ساكَنَ أهلَ

الحرب في ديارهم".

ولذلك قال خالد عندما قرأ رسالة عمر : " رحم الله أبا بكر فلو أنه كان حيّاً لما عُزلت من قيادتي " . ويتضح من قوله أنه كان يعرف موقف عمر منه ، ومحاولاته السابقة لعزله عن القيادة ، ومن المعتقد إلى حد كبير أن خالداً لم يفاجأ بهذا الموقف من الخليفة نتيجة لمعرفته بمواقفه السابقة ، وإذا كان هناك من مفاجأة فقد تكون في توقيت قرار العزل .

إنه مهما قيل عن موقف خالد من قرار الخليفة ، فإن الشيء المؤكد أن سيف الله لم يكن الوحيد من بين المسلمين الذي أزعجه ذلك ، فردود الفعل على هذا القرار كانت متشابهة تقريباً من قبل الجميع . لقد أكد الكثير من المؤرخين على أن هذا القرار قد جانبه الصواب فقال بعضهم : " وليس من السياسة في شيء عزله في زمن أبي بكر ولا في زمن عمر ، ويبدو لنا أن عمر عزل خالداً أكثر من مرة وهذا العزل الذي حصل و المسلمون على اليرموك عزل عن القيادة .... ولما فتحت قنسرين عُيّن خالد عليها تحت يدي أبي عبيدة ، ثم عزله منها عمر " (١٥) .

مما سبق يتضح أن عمر بن الخطاب لم يتوقف عند عزل خالد عن القيادة العسكرية فقط ولكنه عزله عن ولايته في بلاد الشام ، ولم يمنحه أي ولاية كغيره من قادة الفتح . وهذا ما يطرح على تفكيرنا سؤالا ملحا بحاجة إلى إجابة : إذا كان عمر برر عزل خالد عن قيادة الجيش خوفا من الفتنة فبماذا يبرر عزل خالد عن ولاية قنسرين وعدم منحه أية ولاية كغيره من القادة طيلة حياته ؟

ومع ذلك ظل خالد الجندي المطيع والمستشار المؤتمن و المقاتل الشجاع في كل معارك بلاد الشام ، وهذا ما دعا عمر بعد معركة " خضير" إلى القول : " خالد قائد بطبيعته " ، وكان هذا أول اعتراف من عمر بعبقرية خالد العسكرية .

لاشك بأن أي قائد من القادة الأقل شهرة وعبقرية من خالد يتوقع التكريم من قيادته العليا وليس العزل ، فالرجل الذي قضى على المرتدين وفتك بجيوش أعظم

امبراطوريتين في ذلك الزمان عزل من قيادته وهو في أوج انتصاراته ، وهذا ما لم يحصل ، أو يحدث مثله في التاريخ القديم ، أو الحديث مع أي قائد .

لقد أنهى قرار عمر حياة خالد العسكرية .... وهذا ما يؤسف له فسيف الله الذي سله الله على الكافرين ، والذي رفض أبو بكر أن يغمده ، قد أغمد أخيراً على يد الخليفة عمر ، وهكذا انتهت حياة الرجل الذي وصفه إدوارد جيبون بأنه أنجح وأعنف مقاتلي الجزيرة .

لقد عاش خالد بعد قرار عزله أكثر من أربع سنوات وهو بعيد عن الجيش والسلطة ، ومع استمرار الفتوحات كان خالد يفرح لها ، ولكن من المؤكد أن كل نصر للمسلمين كان يذكِّره بأنه لم يشترك في المعركة ، ولن يشترك ؛ لأن عمر لن يسند له أي مهمة عسكرية في المستقبل . وقضى خالد وقتاً طويلاً يفكر بمعاركه التي خاضها ، ويستعيد ذكريات المعارك و المنازلات التي هزم فيها أعظم أبطال العالم . ظل هكذا حتى توفاه الله وانتقل إلى الرفيق الأعلى دون أن يحاول عمر الاستفادة من عبقريته ، بل ومع استمرار الزمن ألغى عمر حضوره العسكري بشكل تام .

ونحن اليوم ننظر إلى القضية بعين التاريخ ونحاول محاكاة أحداثها وتفاصيلها نجد من الممتع أن يتأمل الإنسان فيما كان سيحدث لو أن خالداً ظل على رأس قيادة القوات الإسلامية ، وأرسل بعد نجاحه لفتح الامبراطورية البيزنطية ، وبما أنه لم يخسر معركة في حياته ، فإنه بدون شك كان قد فتح آسيا الصغرى و البسفور ووصل إلى البحر الأسود وربما تجاوزه إلى آفاق بعيدة يوسع رقعة الدولة ، وينشر العقيدة ، ويرفع من شأنها السياسي و العسكري ، ويحقق لها العزة و الكرامة .

إن عزل خالد قد أدى إلى توقف الفتوحات الإسلامية على حدود بلاد الشام ، و بالتالي توقفت فتوحات المسلمين باتجاه أوروبا من البوابة الشرقية ، حيث صدرت الأوامر إلى هذه القوات بدلاً من التوجه شمالا في أراضي الامبراطورية الرومانية

بالتوجه شرقاً نحو الامبراطورية الفارسية وغربا نحو مصر وشمال إفريقيا .

لقد بدأ قرع أبواب أوروبا من بوابتها الغربية ، حيث انطلق المسلمون من هناك إلى الأندلس، بينما كان من الممكن قرع البوابة الشرقية لأوروبا بجيش خالد. وقد يكون عدم قيام المسلمين بذلك هو الذي أخر فتح القسطنطينية حتى عام (١٤٥٣م)، وربما لو توجه خالد إليها لفتحها في عهد عمر؛ لأن المسلين الذين نجحوا في العبور إلى الأندلس عجزوا عن فتح القسطنطينية ، وفي الوقت الذي تم لهم فيه ذلك كان الإسبان يطاردون فلولهم في إسبانيا .

هذا باختصار عن قضية العزل . أما أسبابها ، فقد اختلف الباحثون حولها ؛ فمنهم من قال : إن الخليفة أبا بكر كان يشكل نموذجا للقيادة الديمقراطية ولا مركزية الحكم ، والتي تترك مجالا كافيا للقيادة العسكرية للتصرف ، و العمل بمطلق الحرية دون أي تدخل ، أما عمر فإنه كان يمثل نموذجا آخر من نماذج القيادة يمكن أن نطلق عليه القيادة المركزية التي تمسك بزمام الأمور بقوة وتفرض رأيها على القيادات المختلفة وهي بعيدة عنها ، و بالتالي تصبح القيادات الفرعية مقيدة إلى درجة كبيرة .

وبالتالي يصبح خالد بن الوليد لا يصلح للعمل في مثل هذا النظام الإداري من منطلق اختلاف الطبائع البشرية ؛ فعلى سبيل المثال كانت سياسة عمر مع الولاة جميعا أن يراجعوه بالأموال ، وهذا ما أشار به على أبي بكر ، فوافاه الحساب من كل والٍ إلا خالد أبى وأغلظ في الجواب حيث قال : " إمّا أن تدعني وعملي وإلا فشأنك و عملك " ، أضف إلى ذلك أنه كان بين الرجلين اختلاف في نظرتهما للأمور ، فعمر كان يحب الأناة و التروّي قبل اللجوء إلى القتل و القتال ، بينما خالد كان ميالاً إلى حسم الأمور بقوة ممزوجة بالعنف .

وهناك من اعتقد أن هذين الرجلين لا يحب بعضهما بعضاً ، وقد يكون هذا الرأي أقرب إلى الصحة ، و دليلنا على ذلك ما ورد على لسان أبي بكر في

أكثر من موقع حول هذه القضية ، ونتيجة لهذا الشعور ؛ جاء قرار عزل خالد .

ومن المؤرخين من اعتقد أن عزل خالد يعود إلى حادثة المصارعة التي وقعت بينه وبين عمر حيث صرع عمر وكسر ساقه .

ولا نعتقد من وجهة نظر منطقية بأن هناك سبباً واحداً لموقف عمر من خالد وعزله عزلا عسكريا و إداريا ، بل قد يكون جميع هذه الأسباب هي السبب ، وقد لا يكون أي سبب منها ، و لأننا غير معنيين بالأسباب التي أدت إلى هذا الموقف ، بقدر ما نحن معنيون بالنتائج التي تمخضت عنه ؛ نقول بأنه كان من الأولى أن يستمر خالد في قيادته وأن تستغل مواهبه العسكرية لخدمة الدعوة المحمدية، وأهدافها الإنسانية ، ولكن هذه هي إرادة الله ، وهذا هو قدر سيف الله القائد المسلم الفذ .

الهوامش

١ - الجنرال أكرم ، مرجع سابق ، ص ٥٢٣ .

٢ - العقاد ، مرجع سابق ، ص ٨٦٣ .

٣ - كموش ، مرجع سابق ، ص ٥٩ .

٤ - أكرم ، مرجع سابق ، ص ٥٢٤ .

٥ - الخالدي ، مرجع سابق ، ص ٩١ .

٦ - أكرم ، مرجع سابق ، ص ٤١٩ .

٧ - العقاد ، مرجع سابق ، ص ٨٨٢ .

٨ - أبو زيد شلبي ، تاريخ خالد بن الوليد ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ص ١٩٧ .

٩ - المرجع السابق ، ص ١٩٦ .

١٠ - مصطفى طلاس ، سيف الله ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨ ، ص ٢٦٠-٢٦١ .

١١ - أكرم ، مرجع سابق ، ص ٤٢٧ .

١٢ - الواقدي ، مرجع سابق ، ص ١٠٩ .

١٣ - المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

١٤ - الطبري ، مرجع سابق ، ص ٥٠٤ .

١٥ - أبو زيد شلبي ، مرجع سابق ، ص ١٨٩-١٩٤ .

المراجـــع

المراجع

١ - **القران الكريم** .

٢ - **الحديث الشريف** .

٣ - **إبن الأثير** ، الكامل في التاريخ ، تحقيق أبي الفداء ، عبدالله القاضي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧ م .

٤ - **إبن كثير** ، البداية و النهاية ، منشورات مكتبة المعارف ، بيروت .

٥ - **الواقدي** ، **أبو عبد الله محمد بن عمر** ، فتوح الشام ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى ١٩٦٦م.

٦ - **الطبري** ، **إبن جرير** ، تاريخ الأمم و الملوك ، بيروت .

٧ - **المسعودي** ، مروج الذهب ، المكتبة الإسلامية ، بيروت .

٨ - **الجنرال** ، **أ. أكرم** ، سيف الله خالد بن الوليد ، ترجمة العميد الركن صبحي الجابي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨٢م .

٩ - **الخالدي** ، **زهير صادق** ، أبطال من التاريخ العربي الإسلامي ، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة ، الطبعة الأولى ، بغداد ١٩٨٨ م .

١٠ - **الهيثمي** ، **محمد فاروق** ، في الاستراتيجية الإسرائيلية ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ١٩٨٦م .

١١ - **العقاد** ، **عباس محمود** ، العبقريات الإسلامية ، دار الأدب ، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٦٦م .

١٢- **الجبوري ، نهاد عباس** ، العمليات التعرضية و الدفاعية عند المسلمين ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٨٧ م .

١٣- **السامرائي ، عبد الجبار محمود** ، حروب خالد بن الوليد ضد الفرس ، الدار العربية للموسوعات ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨٢م .

١٤- **الأزدي ، محمد بن عبد الله** ، تاريخ فتوح الشام ، مطابع سجل العرب، القاهرة ١٩٨٠ .

١٥- **العسلي ، بسام** ، خالد بن الوليد ، دار النفائس ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٨٠م .

١٦- **الخضري ، الشيخ محمد** ، إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ، مطبعة الاستقامة ، الطبعة التاسعة ، القاهرة ١٩٦٤ .

١٧- **أسعد ، بهاء الدين محمد ، الخلفات ، جمال يوسف** ، العسكرية الإسلامية وقادتها العظماء ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى ، الزرقاء ١٩٨١م .

١٨- **بصبوص ، أحمد عبد ربه** ، فن القيادة في الإسلام ، مكتبة المنار ، الطبعة الثانية ، الزرقاء ١٩٨٩م .

١٩- **خطاب ، محمود شيت** ، قادة فتح الشام ومصر ، دار الفتح للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٦٥ م .

٢٠- **زويلف ، مهدي حسن ، و القريوتي ، محمد قاسم** ، مبادىء الإدارة ، جمعية عمال المطابع التعاونية الطبعة الأولى ، عمان ١٩٨٤ .

٢١- **سويد ، ياسين** ، معارك خالد بن الوليد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الثالثة بيروت ١٩٨١ .

٢٢- **شلبي، أبو زايد** ، تاريخ خالد بن الوليد ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة.

٢٣- **صالح ، قاسم محمد** ، العسكرية الإسلامية في العصر الراشدي ، مديرية المطابع العسكرية ، الطبعة الأولى ، عمان ، ١٩٨٩ .

٢٤- **طلاس ، مصطفى** ، سيف الله ، الطبعة الأولى ، دمشق ، ١٩٧٨ .

٢٥- **عزمي، محمد** ، دراسات في الاستراتيجية الإسرائيلية ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، الطبعة الأولى ، بيروت .

٢٦- **كمال ، أحمد عادل** ، الطريق إلى الشام ، دار النفائس ، الطبعة الأولى بيروت .

٢٧- **كعوش ، يوسف أحمد** ، من أعلام تاريخنا العسكري ، الطبعة الثانية عمان ١٩٧٢م .

٢٨- **موسى ، بكر** ، خالد بن الوليد المثل الأعلى للقيادة الظافرة ، الشركة المصرية للطباعة و النشر ، القاهرة ١٩٧٢.

٢٩- **هويدي ، أمين** ، في السياسة و الأمن ، معهد الإنماء العربي ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨٢ .

٣٠- نشرة الاستراتيجية ، كلية القيادة و الأركان الأردنية .

٣١- نشرات الدفاع في مدرسة الدروع الأمريكية لعام ١٩٨٢ .

First Edition
1997

P.O.Box 6140 - Tel 696218 , 696588 , 697687
Fax. 696598
AMMAN - The Hashemite Kingdom Of Jordan

PUBLICATIONS OF THE MINISTRY OF CULTURE

AL YARMOUK

The Strategy and Decisivness

By

Ali Mohammad Al Marashdeh

THE HASHEMITE KINGDOM OF JORDAN

AMMAN 1997

اليرموك

الاستراتيجية والحسم

علي محمد المراشدة



7

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان
وزارة الثقافة/شارع وصفي التل
هاتف ٦٩٦٥٨٨/٦٩٦٢١٨ - ص.ب: ٦١٤٠